بيار روفايل

خبز ودموع



دار الجيل
بيروت

خبز ودمع

انها قصة الخبز والدمع

قصة الرغيف المغموسة بالدمع.

في هذه القصة تسكب محاسن نصّار دمعها لتأكل خبزها، ويسكب حبيب مرزوق دمعه ليروي قلبه الجريح. وما محاسن نصّار وحبيب مرزوق سوى محرقة مقدسة على مذبح الحب الطهور.

خبز ودمع

قصة العاطفة الصادقة والهوى الملتهب والتضحية الخالدة والحب العميق.

إنها احدى رائعات بيار روفايل.

خُبزٌ ودَمْع

بيار روفايل

خبز ودموع

دار الجيل

بيروت

الطبعة الخامسة
١٩٩٠

١
التعـــارف

سجا الشاطىء الفسيح الأرجاء في محلة « المعاملتين » في لبنان، وابتسمت رماله السمراء للسابحين وللسابحات المنتشرين في حناياه على هنأة وبهجة وارتيـــاح . وانطلقت الصبايا المستحمات في الشاطىء الفسيح الارجاء ينطرحن في احضان امواجه حينــاً وينطرحن فوق رماله احياناً يداعبن حبتهـا الدقيقة الصفراء ويبحن لها التسلل الى مفاتن أجسادهن البضة السمراء التي لوحتها شمس الشاطىء الفسيح الارجـــاء .. وانطلق الشبان في حنايا الشاطىء الجميل يستحمون ويستلقون فوق الرمال رامقين الصبايا بنظرات تخفي وراءهـــا ألف سر وسر وألف أحجية وأحجيـــة . وراحت الصبايا يخالسن الشبان النظرات وهن يتظاهرن باللامبالاة .. وانتشى الشاطىء وصفق لمواكب الشباب ولأهازيج ربيع الحياة المرع الأخضر الريان .

وهناك بين الصبايا المنتشرات على شاطىء المعاملتين كانت فتاة رائعة الحسن والجمال، هيفاء القد نجلاء العينين بيضاء البشرة سوداء الشعر ، كل ما فيها يوحي الشوق والهوى والحنين ..

وكانت تلك الفتـاة ترندي « مايوه » أحمر اللون ، أحمر بلون النجيع القاني الاحمرار ، وكانت الفتاة تلك مستلقية فوق الرمال تحت مظلة وارفة خضراء .. وراح الشبان المستحمون يحومون حول الفتاة الرائعة الحسن والجمـال كما تحوم الفراشات حول الزهرة اليانعة الفواحة العبير ، إلا أن « صاحبة المايوه الأحمر » لم تأبه لأولئك الشبان المنتشرين حولهـا يمتعون أنظارهم بمفاتن الشباب والجمـال .وحاول البعض لفت « ام المايوه الاحمر » إليه إلا ان الغادة الحسناء لم تكن لتميز ذلك البعض اقل اهتمام ، كانت الفتاة الحسناء مستلقية تحت مظلتها الخضراء وهي تحدق بالأمواج المتواثبة نحو الشاطىء على تيـه وغنج ودلال .. وتبرم الشبان الفضوليون بتلك الغزالة الشاردة الحرون ، ويئسوا من لفتهـا إليهم فانصرفوا عنها وفي القلوب نقمة وفي النفوس حقد دفين .

وطال استلقاء الفتاة الحسناء فوق الرمال ، وطال تفكيرها ، وطال تحديقها بأمواج البحر الساجية الهادئة الزرقـاء . وابتعد الشبان عنها ، ما لهم ولها . هذه فتاة متكبرة تتربع من النفور والاعتداد في أعلى مقام فليبحثوا عن « الرزقة » عند غيرهــا من المستحمات الفاتنات .. واطمأنت الحسناء وقـد ابتعد عنها اولئك الشبان ، وارتاحت كل الارتياح ، فهي تريد ان تظـل وحدهـا ، تريد ان تنصرف الى السكينة والهدوء والتفكير ، تريد ان تخلو بنفسها ، وهي مـا ارتادت ذلك الشاطىء البعيد عن بيروت إلا لتنعم بالسكينة والوحـدة والهدوء ، وبدأت

الشمس تتأهب للانحدار وراء الأفق البعيد و« ام المايوه الاحمر » لا تزال في استلقائها تحت مظلتها الخضراء ، ونهضت ،وقد وقفت الشمس على شرفة الافق الفسيح تتأهب للانحدار في اللجة المخضبة بدمهـا ، واتجهت نحو الامواج . ستغوص للمرة الاخيرة قبل ان تغادر الشاطىء الجميل ، وتقدمت من الامواج بخطوات متئدة ثابتة ، وألقت بنفسها بين احضانها .. وراحت تداعب امواج البحر البـاردة ، وانتشت بملامسة الامواج وبمداعبتها فسارت شوطاً بعيداً ، دون ان تفكر بطريقة العودة الى الشاطىء .

وتدحرجت الشمس وراء الامواج وبدأ النور يتراجع امام جيوش الظلام والفتـاة الحسناء لا تزال في اندفاعها الى الامام مبتعدة عن الشاطىء الفسيح ..

وغمر الظلام الامواج فاستفاقت الفتـاة من نشوتها الهانئـة لتجد نفسها محاطة بالظلام ، وكان هدير الامواج يزيـد سواد الليل رهبة وخشوعاً فبدأ الخوف يداعب قلبهـا الندي العود ، والتفتت الى الوراء لتشاهد انوار المقـاهي المنتشرة على ذلك الشاطىء الرحيب بعيدة عنها ، فذعرت ، وقد ادركت انهـا بعيدة بعداً شاسعاً عن الشاطىء الحالم المغمور بالظلام..وحاولت الرجوع ادراجها الا ان التعب والخوف تعاونا عليهـا فشعرت بالعناء الشديد يعصف بها والعياء يهد قواها ويكاد يشل فيها كل حركة .. وراحت الفتاة الجميلة تعمل جاهـدة على العودة الى

الشاطىء ، ولاحت لها العودة صعبة المنال.. فالمسافة التي تفصلها عن الشاطىء بعيدة المدى ، وهي خائرة القوى منهوكة الجسد محطمة الاعصاب .... واشتد الذعر بالفتاة وقد اوشكت ان تشرف على الغرق . وراحت ترفع يدها الواهية تلوح بها في الفضاء مستغيثة مستنجدة ، إلا ان الظلام الدامس الذي كان قد غمر البحر حال دون اجابة الاستغاثة والنداء .. وبذلت الفتاة المزيد من الجهد ، وقد تغلب فيها حب الحياة على الاستسلام للموت فمضت في السباحة محاولة الاقتراب من الشاطىء البعيد.. وسارت في اندفاعها نحو الشاطيء محاولة مغالبة الأمواج . الا انها ايقنت ان الوصول الى الشاطىء صعب المنال وأن الموت يكمن بين حنايا تلك الامواج المغمورة بجناح الليل الاسود البهيم..

وراحت يدها المرتفعة فوق الامواج تلوح في الفضاء طالبة النجدة . وعمدت الى الاستنجاد فأخذت تولول : « اليّ الي..» وكان صوتها الواهي فوق هدير الأمواج يذهب مع الليل الحالك السواد.. واشتد الخوف بها . ويلها. هل قدر لها ان تموت وهي لآ تزال في شرخ الشباب؟ هل حكم عليها بالموت غرقاً في هذا اليم الشاسع الواسع الرحيب ؟. ومع يقينها ان الموت اصبح على مقربة منها فقد ابت ان تكف عن محاولة النجاة ، الا انها شعرت بالوهن وبالتعب وبالعياء ، شعرت بأنها اصبحت عاجزة عن المضي في المحاولة فتراخت عزائمها ووهنت قواها وعصف الذعر بفؤادها فاسترسلت بالبكاء ..

وإذا بشبح يقترب منها ، فعاد الأمل الباسم يدغدغ فؤادها. ترى من يكون هذا الشبح ؟ فليكن من كان. هذا لا يهمها . كل ما يهمها هو ان يدنو منها وعندما يقترب منها ويراها يبقى لكل حادث حديث .. واقترب الشبح منها ، واستطاعت ان تتبينه على انعكاس الامواج فاذا به شاب في مقتبل العمر .. ودون ان يهمس بحرف لف ذراعه حول خصرها وراح يسبح عائداً بها نحو الشاطىء .. واطمأنت الفتاة الحسناء بعض الاطمئنان وقد ايقنت ان النجـــاة من الغرق باتت مكفولة مضمونة.وراحت تساعد الشاب على السباحة وعلى الاقتراب من الشاطىء الامين . وكان ذلك الشاب يسرع في اقترابه من الشاطىء ، ولاح منه انه يجيد السباحة كل الاجـادة .. واقتربا من الشاطىء.وقفز الشاب بها الى الرمال وهمس : « الحمد لله على السلامة » .. وكانت الفتاة قد استعادت قواها وشجاعتها فهمست وهي تلقي بجسدها المبلل فوق الرمال : « انا مدينة لك بحيـاتي يا سيدي . انني اشكرك من صميم قلبي » وجلس الشاب قربها فوق الرمـال وهمس : « انا لم اقم بسوى واجبي يا آنستي اللطيفة ، ولا شكر على واجب».

قالت وهي تنظر الى وجهـه الوسيم : « هل لي ان اتشرف باسم منقذي ؟ » .. قـــال : « حبيب مرزوق » فمدت يدها تصافحه وتهمس : « انا محاسن نصار » وشدت يـده يدها وهو يصافحها وتمتم : « تشرفنـا » قالت : أيكون السيد حبيب من هذه الانحاء ؟.. لقد لاح لي منك انك تجيد السباحة كل الاجادة»

قال : لا . انا لست من المعاملتين .. انني من قرية صغيرة تقع في سفوح هذه الجبال الشامخة الخضراء المنتصبة فوق هذا الشاطىء الامين الا انني احضر من حين الى آخر الى هذا الشاطىء الجميل حيث انعم بالماء وبالهواء وبالسكينة والهدوء .. وأنت ؟

قالت : انا من بيروت . كنت استحم في مسبح « سان جورج » إلا ان الازدحام هناك اهاب بي الى الهرب والى اللجوء الى هذا الشاطىء الفاتن الهادىء الجميل ، ويبدو ان البحر هنا ابى ان يرحب بي ، او بالاحرى هو اراد ان يرحب بي على طريقته الخاصة ويقضي عليّ » فابتسم حبيب وهمس : البحر يهيم ابداً بالدرر وباللالىء ، وهو يستأثر ابداً بالغالي النفيس من اللالىء والدرر ولذلك فقد حاول الاستئثار بك ايتها الآنسة محاسن .

فراقها بيانه وانتشت بثنائه . وهمست :

شكراً على ثنائك يا سيدي .

ونهضت ونهض معها حبيب ، وسارا فوق الرمال بأقدامها الحافية .. وشخصت هي الى « كابينها » وشخص هو الى « كابينه » وبعد قليل خرج حبيب من « الكابين » وقد ارتدى ثيابه .. وأقام ينتظر خروج الغادة الحسناء من « كابينها » .. وطال انتظاره دون جدوى .. وتقدم اخيراً واقترب من الباب ، من باب « الكابين » يطرقه الا انه لم يتلق جواباً .. ودفع الباب ففتح ودهش وقد اكتشف ان الفتاة خرجت . كان « الكابين »

خالياً خاوياً .. اين هي الفتاة الحسناء؟ وكيف خرجت بسرعة قبل ان يلتهي هو من ارتداء ثيابه، وقبل ان يخرج من كابينه؟.. وأسرع الى حنايا الشاطىء يبحث عنها الا انه لم يهتدِ لها الى اثر، لقد طارت الغادة الحسناء بين الأرض والسماء ..

وأسف حبيب لضياع الفتاة منه .. كان يريد ان يتحدث اليها، يريد ان يعرف من هي ؟.. ابنة من هي ؟ ماذا تفعل ؟.. ماذا تعمل ؟.. اين هي دارها ؟.. كان حبيب يريد ان يعلم كل شيء عن تلك الفتاة، الا ان الفرصة السانحة ضاعت منه . لقد افلتت من يده . ترى هل يشاهدها مرة ثانية ؟ لا، من المؤكد انه لن يشاهدها مرة ثانية . هي لن تعود الى شاطىء المعاملتين بعد ان كادت امواج المعاملتين تستأثر بها وتقضي عليها وتقصف غصن شبابها الغض النضير .

وسار حبيب مرزوق يجر رجليه جراً فوق الرمال وهو يفكر بتلك الفتاة الرائعة الجمال التي انتشلها من براثن الموت الرهيب .. ووصل الى سيارته الصغيرة السوداء الجاثمة على ذلك الشاطىء الجميل تنتظر عودته، وصعد الى السيارة وهو لا يزال يفكر بالفتاة، بمحاسن نصار .. وأدار محرك السيارة فأقلعت به تتسلق الطريق البعيد المنساب في تلك السفوح الهادئة الباسمة الخضراء على تيه ودلال ..

وعاد طيف محاسن نصار يلوح لعينيه وهو يقود السيارة الصغيرة السوداء .. واجتازت السيارة به الغابات والأحراج

الخضراء وهو يفكر بالفتاة الحسناء ..

ووصلت السيارة الى القرية الصغيرة، وتوقفت به امام البيت الصغير القديم العهد ، هذا البيت الذي ورثه حبيب عن والده والذي كان والده قد ورثه عن جده . وبقدمين واهيتين دخل حبيب الى ذلك البيت الصغير الذي كاد ينوء تحت عبء السنين الطوال فهبت والدته ترحب بـه وتتمتم : حبيب !.. عدت يا ابني ؟.. لقد اقلقت خاطري عليك . لماذا تأخرت في العودة يا حبيب ؟.

فاقترب حبيب من أمه يعانقها . لقد تعود حبيب مرزوق ان يعانق امه كلما دخل الى المنزل وكلما خرج منه .. وهمس : « لم يكن لك ان تقلقي علـيّ يا أمي وأنت تعلمين انني اتأخر احياناً في العودة الى البيت » .

قالت : « كنت اعلم انك شخصت الى المعاملتين للستحم في البحر يا ابني ، وأنا اخاف البحر، اخاف ان تستأثر امواجه بك وتبعدك عني ، لا سمح الله ، وأنت كل ما أبقى لي الدهر في هذه الحياة . ان الشوكة التي تخزك في اصبعك تخزني في قلبي يا ابني . وأنا اتمنى ان يغيبني الثرى قبل أن تعثر قدمك بحجر » .

وضمته الى صدرها برفق وحنان ، وهمست : فليسعدني الله بك يا ابني وليطل بعمري الى يوم أراك فيـه قرب عروسك وأفرح بأولادكما » .

وانسلخت عنه لتنصرف الى تهيئة العشاء .. وألقى حبيب بجسده الواهي على المقعد القديم ليعود الى التفكير بالفتاة الجميلة الفاتنة الحسناء .. وراح يستعيد في مخيلته الكلمات القليلة التي تبادلها واياها .. كانت تلك الكلمات مقتضبة مختصرة إلا أنها على رقة وعذوبة وحنان .. وطال تفكيره بالفتاة .. وعجب من نفسه . كيف تشغله هذه الفتاة ، وتثير اهتمامه ، بالرغم من انه لم يرها إلا مرة واحدة ولدقائق قليلة . ترى هل هذا هو الحب الذي يتكلمون عنه ويتغنى به الشعراء ؟.. ان حبيباً لم يتعرف الى الحب بالرغم من انه تجاوز الخامسة والعشرين من عمره . لم يكن حبيب ليهتم بالحب ولا كان ليعير الهوى والغرام اقل اهتمام، فهو منصرف الى الاهتمام بالحقل وبالكرم وبالبستان. منذ ان توفي والده ، منذ خمس سنوات ، وحبيب مهتم كل الاهتمام بأملاكه . فهو مزارع صغير يملك حقلاً يزرعه قمحاً وحنطة ، وبستاناً صغيراً كان المرحوم والده قد غرسه تفاحاً واجاصاً وكرزاً ، وكرماً صغيراً يجود عليه بما يكفيه ويكفي أمه من الخمر والزبيب .

وكان حبيب مرزوق قانعاً من دنياه بما ورث عن ابيه . وكان يعيش مع أمه في بحبوحة من العيش . المواسم مقبلة والحمد لله والخير متدفق عليه .. ولم يكن حبيب ليبذر ماله في ما لا فائدة منه . فهو لا يدخل الى مقهى ولا تطأ قدماه عتبة دار السينما ، ولا يسرف في الانفاق على اناقته وثيابه . وبيروت لا يتعرف اليها إلا مرات قليلة كل عام . هو لا يدلف الى بيروت

إلا اذا اراد شراء الاسمدة لأرزاقه ، او اذا احتاج الى ثوب له او لأمه .. وبالرغم من ذلك فهو قد تعلم قيادة السيارة وابتاع سيارة « سيمكا » صغيرة مستعملة راح يقودها بنفسه ويتباهى بها بين الاصدقاء والرفاق .. ابن المختـار ابتاع سيارة ، وهو ، اي ابن المختار ، ليس بأفضل من حبيب مرزوق .. وطاب لحبيب مرزوق ان يدلف الى المعـاملتين ليستحم في البحر ، وحر تموز يلهب الانفاس . فراح يستقل سيارته الصغيرة مرة او مرتين في الاسبوع ، ويشخص بها الى "المعاملتين" و"المعاملتين" ليست ببعيدة عن قريته ، وكان يحسن السباحة . فهو قد اتقنها منذ الصغر ، فراح يغوص من البحر في الاعماق ويبتعد شوطـاً عن الشاطىء الحـالم الجميل .. وتلك الليلة ، فيما يستحم حبيب مرزوق شاهد الفتاة الحسناء تشرف على الغرق فوثب الى نجدتهـا واستطاع أن ينقذها من الموت .

وهمس حبيب في سره ، وهو جالس على مقعده في مـنزله ينتظر ان تمد امـه له العشاء : « ليتني لم ارها ليت عيني لم تقع عليها » .. امـا لماذا يتمنى حبيب لو انه لم يرها ولم تقع عينه عليها ، فهذا ما لم يعرفه .. هو نفسه لا يعرف لماذا ؟.. فكأنه يخشى هذه الفتاة الرائعة الحسن والجمال .

كأنه يخافها ويرهب جانبها .

واذا بصوت امـه يتمالى في اذنيه : « حبيب ! .. قم يا ابني قم ، تعـال . العشاء جاهز يا حبيب » ونهض حبيب . وسار بقدمين واهيتين وشخص الى مائدة الطعام . وجلس كعادته قرب

امه .. وكان العشاء شهياً . امـه تحسن طهو الطعام واعداده . وهو طعام قروي اتقنته ام حبيب كل الاتقان. برغل.. وبيض.. وسلطة .. ولبن وزيتون وعسل ودبس .. الا ان حبيباً لم يكن ليتناول الطعام بشهية كعادته مما اثار قلق امه وخوفها .

كان حبيب يتناول الطعام على مهل ، وهو شارد الذهن تائه النظرات،حتى وهو جالس الى مائدة الطعام كان يفكر بالفتـاة الحسناء ، بمحاسن نصار .. والتفتت أمه اليه لتقول : « ما بك يا حبيي ؟. ما بك يا ابني،أراك على شرودوذهول،انت لا تتناول الطعـام بشهية . أتكون مريضاً يا ابني ؟ » .. وتـكلف حبيب الابتسام فأطلق ابتسامة مزورة جاءت تثبت الاتهام . وهمس : « لا يا امي . انا بألف خير والحمد لله . إلا انني أرهقت نفسي في السباحة والغوص فدهمني التعب والعياء ».وهمست الام: « تناول عشاءك واسترح في سريرك يا ابني لعل الراحة تعيد اليك العافية والنشاط ».قال : « سأعمل بنصيحتك يا امي » .

وعمل بنصيحتها . ما ان انتهى من تناول الطعام حتى دخل الى غرفته من المنزل فنزع عنـه ثيابه واندس في سريره محاولاً النوم . إلا ان النوم جفاه وابتعد عن مقلتيه.وكيف ينام حبيب مرزوق وهناك طيف الغـادة الحسناء يحوم حوله ويجثم فوق وسادته البيضاء ؟. وسهر حبيب مرزوق ، لقد سهر طيلة ذلك الليـل مع طيف محاسن نصار .. ولم يستطع حبيب ان يطبق عينيه على الكرى إلا وأنوار الفجر البعيد تغمر تلك الجبـال والسفوح والوديان بوشاحها الأبيض الجميل .

ونام الشاب الوسيم واستغرق في النوم . ولم يستفق إلا على صوت امه تناديه وتدعوه للنهوض وللانصراف الى العمل .. واستوى حبيب في سريره على نعاس شديد .. وفرك عينيه وهو يود لو يستطيع العودة الى الاستغراق في النوم العميق .. ودخلت الام الحنون الى غرفة ابنها حاملة له القهوة .. وتمتمت وهي تتخطى عتبة الغرفة الصغيرة « حبيب ! قم يا ابني قم ، ها الشمس بدأت تنشر خيوطها الذهبية على هضاب القرية وتلالها ، والعصافير تملأ الاحراج والغابات بصداحها . والرعاة سرحوا مع قطعانهم الى المراعي . والفلاحون بدأوا اعمالهم .. ما بك يا حبيب ؟. لماذا تستغرق في النوم والاعمال كثيرة لديك. ليس من عادتك يا إبني ان تستغرق في النوم حتى هذه الساعة ؟ » واقتربت منه وحدقت في عينيه وهي تقدم له القهوة فذعرت . عيناه الذابلتان الحمراوان تثبتان ان حبيباً لم ينم طيلة الليل . وقدمت له القهوة فتناول الفنجان من يدها بكل عناء. وجلست كعادتها ، قربه على السرير وبدأت ترشف قهوتها على مهل واتئاد وهمست : « ما بك يا ابني ؟. انك هزيل الوجه اصفر الجبين ، احمر العينين . يلوح لي انك لم تذق طعم الرقاد طيلة الليل ».وعاد حبيب مرزوق الى اطلاق الابتسامة المزورة محاولاً إيهام امه انه بألف خير .. إلا ان الابتسامة تلك لم تخدع الأم فعادت الى الأسئلة تطرحها على ابنها : « ما بك يا حبيب ؟ هل انت مريض يا ابني ؟ هل انت متعب ؟ هل انت حزين ؟. ما بك يا حبيب ما بك يا ابني ».واتسمت الابتسامة الهزيلة

الصفراء على شفتي حبيب مرزوق.ورشف القهوة. وهمس « انا بألف ألف خير يا امي . اطمئني . ليس ثمة ما يشغل البال » .. ولم تستطع ام حبيب ان تطمئن . وكيف تطمئن ام حبيب وهي تشاهد ابنها كسير الخاطر ، حزين الفؤاد .. وحاولت الام جاهدة انتزاع جواب واحد على اجوبتها العديدة من فم ابنها إلا انها عجزت . لم يكن حبيب ليفصح عما يرزح في صدره من هموم وآلام وأحزان .. وانتهى من رشف قهوته ، ووثب من السرير ليغسل وجهه ويرتدي ثياب العمل .. وكانت امه قد هيأت له طعام الصباح ، فتناول الطعام وخرج الى عمله في البستان .. وخيل أليه ان العمل سيبعد طيف محاسن نصار عن خاطره ، إلا انه كان على ضلال . لم يستطع العمل ان يجنح به عن التفكير بالفتاة الحسناء . فقد كان يراها في الاغصان والأثمار والاوراق الخضراء .. وانقطع عن العمل . وجلس تحت شجرة تفاح وارفة خضراء ، وراح يفكر : لماذا تشغل هذه الفتاة تفكيره ؟. ما له ولها يجب ان يقصي طيفها عن رأسه . عليه ان يتذرع بالحزم وبالصلابة وبالعناد ويبتعد بتفكيره عن هذه الفتاة .. واطمأن قليلاً وقد توصل الى اتخاذ هذا القرار .. ونهض ليعود الى عمله بهمة ونشاط .

وحان موعد الغداء فعاد الى المنزل .

وجلس مع امه يتناول طعام الغداء .. وجلس يمازح امه ويسايرها فاطمأنت الام وارتاح بالها . الحمد لله ، لقد استعاد ابنها هدوءه وصفاء باله .. وعاد بعد الغداء الى البستان ليكمل

عمله . وارتاح ، وقد تخلص من التفكير بالفتاة الجميلة . الا ان ارتياحه لم يطل .. ساعات قليلة وعاد طيف محاسن يحوم حول تفكيره .. وغضب ، وحنق على نفسه ، وقد ادرك انـه عاجز عن تنفيذ القرار . هو لم يستطع ان يتخلص من التفكير بهـذه الفتاة . يجب ان يراهـا . يجب ان يكلمها . يجب ان يتحدث اليها . القرار الذي اتخذه قبل الظهر نقضه بعد الظهر .. حبيب مرزوق ، سيعود الى شاطىء الماملتين . وسيشاهد محاسن وسيتحدث اليهـا وينعم بحديثها العذب الشجي وبمرأى وجهها الفاتن الجميل .. وانقطع عن العمل . وعاد الى البيت لينزع عنه ثياب العمل ويرتدي ثوبـه الانيق وسألته امه : « الى اين يا حبيبي ؟ » وهمس : « سأشخص الى المباملتين لأستحم . لـن يطول غيابي عنك يا امي . سأعود قبل الغروب » .. وهمست الام : « رافقتك السلامة يا ابني . احـذر البحر يا حبيب فهو مخادع غـدار ».ووثب اليها يعانقها متمتماً : « اطمئني . ابنك يحسن السباحة ، لقد استطاع ان يروض هذا المخادع الغدار » .. وخرج من الدار ليستقل السيارة الصغيرة السوداء وينحدر بهـا من القرية الصغيرة الخضراء الى الشاطىء الفسيح الشاسع الرحيب .

٢
اللقـــاء

حبيب مرزوق يجوب حنايا الشاطىء الفسيح المنبسط عند امواج المتوسط كأنه صفحة سمراء باحثاً بـين الصبايا المستحمات عن فاتنته الحسناء محاسن نصار .. وطال بحثه وتفتيشه دون جدوى . محاسن نصار ليست بـــين المستحمات الفاتنات على الشاطىء الرحيب . وحنق حبيب وغضب ، وشعر بأنفاسه تضيق في صدره وقد خاب امله في العثور على محاسن . ترى هل ضاعت محاسن منه ؟ ألن يراها بعد اليوم ؟.. هــل قدر له ان يخسرها الى الابد ؟..

وضاقت الدنيـــا على رحبها في عينيه ، ولاح له الشاطىء مقفراً بالرغم من انــه يمج بالسابحين وبالسابحات .. والبحر على رحبه لاح له صغيراً لا يتسع لكأس ماء .. وجلس فوق الرمال حزيناً كئيباً كسير الفؤاد ..

وانغمس حبيب مرزوق في تفكير بارد عميق .. ترى هــل تعود محاسن الى هـــذا الشاطىء ؟ هل يراها مرة ثانية ؟ ليس يدري ، ليس يدري .

وطالت جلسته فوق الرمـــال ، وطال تفكيره .. واذا بصوت عذب شجي يتكسر في اذنيه : ايهــا السيد حبيب !.. لماذا تجلس وحدك هنا ؟

والتفت الى الوراء . ووجم ، وعقدت الدهشة لسانه وقـد شاهد محاسن على مقربة منـه .. وتقدمت محاسن منه ، ومدت يدهـــا تصافحه والابتسامة تشع على شفتيها.وهمست : كيف حالك ايها السيد حبيب ؟

وصافحها بيد ترتجف.وهمس : الحمد لله ايتها الآنسة محاسن انا بخير ، وانني لأرجو ان تكوني انت ايضاً بخير .

وجلست فوق الرمال .. وعـاد حبيب الى الجلوس قربها ، وراح يحدق بهـا.كانت رائعة فاتنة . كانت ترتدي مايوه احمر ، نفس المايوه التي كانت ترتديه امس. وكان شعرها الحالك السواد مسدلاً على كتفيها العاريتين ليزيد في بياض بشرتها البضة البيضاء وكان المايوه الاحمر يسبغ على رشاقتها رشاقة وعلى جمالها جمـالاً بعيد المـدى .. وحاول حبيب الكلام . حـاول التحدث الى محاسن الا انـه عجز ، وراح يبحث عن كلام يسكبه في اذني فاتنته الحسناء غـير انه لم يعثر على كلمـة واحدة .. ولاح من محاسن انها تبحث ايضاً عن كلام تحدث به حبيباً ..

وساد الصمت برهة بينهما . وكان هـدير الامواج يتكسر في اذانهما فيزيد في رهبة الموقف وخشوع المقام .. وحلت النظرات

محـل الكلمات فراحت العيون الاربـع تتحدث بلغـة الهوى والغرام . وتشابكت النظرات.واختلج القلبان . وتهامست الروحان همسات الشوق والحب ...

وطال صمتها .. وأخيراً وبعد صمت طويل استطاع حبيب ان يستعيد جرأتـه وشجاعته فهمس : كنت اخشى الأتعودي الى هـذا الشاطىء ايتها الآنسة محاسن بعـد ان كادت امواجه تغدر بك .

وارتسمت ابتسامة هادئـة بيضاء على شفتي محاسن النديتين وهمست : لقد احببت هذا الشاطىء ايها السيد حبيب. احببته حباً شديداً ، احببته من اعمق اعماق قلبي . أتعلم لماذا ؟..

فتساءل : لماذا ايتها الآنسة محاسن ؟

فاتسعت الابتسامة البيضـاء على شفتيها.وتمتمت : قبل ان أجيبك الى سؤالك ارجو ان تتخلى عن كلمة آنسة ، قـل لي : يا محاسن، محاسن فقط بدون آنسة ، وأنا سأناديك: يا حبيب.. بدون لقب .. هل توافق على هذا الاقتراح ؟

فابتسم .. لقـد عرفت شفتاه الابتسام اخيراً . وهمس : كما تريدين ايتها الآنسة محاسن .

فضحكت وتمتمت : بدون ايتها الآنسة .. قل : كما تريدين يا محاسن .

فردد ما تقول : كما تريدين يا محاسن .

قالت : الآن استطيع ان اقول لك لمـــاذا احببت هـذا الشاطىء الجميل، بالرغم من انني كدت افقد حياتي بين امواجه. لقد احببت هذا الشاطىء لانني تعرفت فيه اليك يا حبيب .

فارتعش حبيب مرزوق. ووجم . مـاذا تقول محاسن ؟.. أتراها تفكر به كما يفكر بها ؟ هل حل بها ما حل به من شوق وهوى وحنين ؟ وهمس : محاسن . الشاطىء الذي احببته انت احببته انا ، والسبب ايضاً واحد . لقد احببت هـذا الشاطىء لأنه جمع بيننا وسأحبه العمر كله يا محاسن .

فامتدت يـــد محاسن نصار لتمسك بيـد حبيب مرزوق، وتهمس : أتعلم لماذا عدت الى هذا الشاطىء يا حبيب ؟

قال : لماذا يا محاسن ؟..

قالت بكل صراحة : لأراك .. اجل لقد عدت الى هنـا لأراك وقد كنت على يقين من انني سأجدك هنا . لقد كنت على يقين من انك تنتظر عودتي فعدت .

فارتعش حبيب وارتجفت يده القابضة على يد محاسن. وهمس: محاسن ... وانا ما عدت الى هنا إلا لأراك . كنت ابحث عنك بـــين المستحمات . كنت على يقين من اني سأراك وسأحدثك وسأستمع الى صوتك العذب الحنون .

فصمتت محاسن . وانصرفت الى التفكير تنغمس فيه على ألم وشوق وحنين ، ولاح منها انهـا ندمت على ما بدر منها ، لاح

منها انها تتألم..وسحبت يدها من يد حبيب وهمست:حبيب.. أرى ان نقف من الطريق البعيد في اوله ، أرى ان نقف هنا فلا نتقدم خطوة واحدة .

فهمس حبيب : لقد بدأنا المسير يا محاسن ، وليس لنا ان نتوقف قبل ان نصل الى نهاية الطريق .

قالت وهي تحدق بالأمواج المتواثبة نحو الشاطىء الفسيح : حبيب ا.. ان الطريق مقفر بعيد طويل . تحيط بـه الأشواك والحفر والأخاديد . انني اخشى ان تدمي الاشواك اقدامنا . اخشى ان نعثر ونكبو فنقع في وهـدة عميقة الغور . فلنتوقف هنا يا حبيب . فلنتوقف قبل ان نستفيق من حلمنا الرائع الفاتن الجميل .

فعاد حبيب يمسك بيدها المرتجفة ليقول : محاسن ا.. لا . لا يا محاسن نحن لن نتوقف . سنسير . سنسير حتى نهايةالطريق. اذا كبونا كبونا معاً ، وإذا سقطنا سقطنا معـاً . وإذا ادمت الاشواك اقدامنا ادمتها معاً . مـا ينزل بك ينزل بي ، ومـا يصيبك يصيبني . انني على استعداد لأربط مصيري بمصيرك . اسمعي يا محاسن انا سأوضح لك حـالي . لن اخفي عنك شيئاً سأخبرك كل شيء ، كل شيء .

وهمست محاسن،وهي لا تنفك تحدق بالأمواج : حبيب !.. لا. لا يا حبيبي لا تخبرني شيئاً . انا اعلم من انت. اعلم انك شاب نبيل من اسرة محافظة،لم تخدعك المدنية المزيفة ولم تبهر عينيك

انوارها الساطعة المضللة .

قال : وكيف عرفت ذلك يا محاسن ؟

قالت : عرفت ذلك من حديثك ، من تصرفاتك ، من عينيك يا حبيب .

قال وهو يحتضن يدها بيديه : اجل يا محاسن . انا شاب مزارع ، لست غنياً انني اقرب الى الفقر مني الى الغنى . انني اعيش مع والدتي في المنزل القروي الصغير الذي ورثته عن ابي . وأنا لم اتعرف الى الحب . لم احب حتى الآن . حبك يا محاسن هو الحب الاول الذي يغزو قلب حبيب مرزوق ..

وارجو ان يكون الاخير ..

وأدممت عينا محاسن وهي تسمع كلمات حبيب مرزوق ، الا انها استطاعت ان تحجب دمعها عنه .. وسحبت يدها من يده بلطف ودلال .. وهمست : قم .. قم بنا نقتحم البحر . تعال . تعال نلقي بجسدينا بين احضان الأمواج ..

ولم يكن له ان يرفض طلبها .. ونهض .. وسار قربها الى البحر يلقيان بجسديهما بين احضانه ويخوضان امواجه الساجية الصافية الزرقاء .. ولم يعودا الى الشاطىء الا والشمس تتأهب للافول .. وأمسك حبيب بيد محاسن هامساً : تعالي نجلس هنا فوق الرمال ونودع الشمس قبل رحيلها يا محاسن ..

وعادت محاسن تسحب يدها بكل لطف من يد حبيب

وتهمس : لا . لا يا حبيب يجب ان اعوذ الى بيروت . يجب ان اعود قبل المغيب .

ولاح له الجفاء في كلماتها .. فهي تريد ان تعود الى بيروت، تريد ان تبتعد عنه تريد ان تسرع في الابتعاد .. لماذا ؟.. ليس يدري .. وهمس : هل اراك غداً هنا يا محاسن ؟

ولم تجب بأجل ، ولا هي اجابت بلا ، بل تمتمت : ان شاء الله ..

قالت هذا وأسرعت بالابتعاد عنه .. ودخلت الى الكابين فارتدت ثيابها على عجل وأسرعت بالخروج .. وشاهدها حبيب تبتعد عن الشاطىء الى الطريق العام فلحق بها . هو يريد ان يعلم كيف ستعود الى بيروت، بماذا ستعود ؟ في سيارة تاكسي؟.. في اوتوبيس ؟.. في سيارة صديق ؟

ووقف بعيداً يراقبها .. وشاهدها تقترب من سيارة فخمة كبيرة . سيارة بويك خاصة . حديثة الصنع .. وفتحت محاسن باب السيارة ودخلت لتجلس الى مقودها وتدير محركها وتطلق لها العنان في طريق بيروت .

ووجم حبيب مرزوق وهو يشاهد محاسن تستقل سيارتها الفخمة الانيقة .. محاسن اذن فتاة غنية ، غنية جداً .. قد تكون ابنة نائب، او ابنة مدير، او ابنة وزير ، او ابنة صاحب مصرف كبير .. الآن علم حبيب مرزوق لماذا ابدت محاسن له

الصد والنفور بعد ان علمت انـــه مزارع فقير .. لقد خسر محاسن الى الأبد .. لا هو لها ولا هي له .

وأدممت عينا حبيب مرزوق وهو يشاهد سيارة محاسن نصار تبتعد عنــه بسرعة فائقــة في طريق بيروت .. ووهنت قدماه ، فأخــذ يرتجف كأنه ورقـــة في مهب الرياح العاصفة الهوجاء . وسار فوق الرمال ليدخل الى الكابين فيرتدي ثيابه ، ويعود الى سيارته الصغيرة المتواضعة فيستقلها متسلقاً بها الربى والوهاد الى داره ، والغصة في قلبه والأنّة في روحه والدمعة في عينيه .

٣

الحب

عصف الألم الشديد في قلب حبيب مرزوق وغمر الحزن الرحيب روحه الحنون . تلك العاطفة العاصفة الهوجـــاء التي اجتاحت حنـــايا فؤاده تبعث الالم في قلبه والحزن في روحه والدمعة في عينيه . ما هي هذه العاطفة ؟.. ما هو نوعهـا ؟. ما هو معدنها ؟ ما هو شكلها ؟.

ليس يدري ، ليس يدري ..

كل ما يعرف هو انـه يتعذب هو ان ذكرى محاسن نصار تدمي فؤاده وتؤلم روحه وتعذب قلبه وتثخن مهجته بالجراح..

أهذا هو الحب الذي يتكلمون عنه ويتحدثون بـه ؟. اذا كان هـذا هو الحب فبئس الحب وبئس الهوى وبئس الغرام ، والويل كل الويل لهؤلاء المحبين التعساء البؤساء ..

واشتد الألم الروحي العميق بحبيب مرزوق وقد آوى الى سريره في المساء، وبدا طيف الفتاة الحسناء يحوم حول وسادته.. وأدمعت عينـــاه وهو يفكر بمحاسن نصار . واستغرق في

التفكير . وراح يفكر بصيره في هـــذا السبيل الوعر الحالك السواد الذي سار فيه . اذا كان هذا هو اول الطريق فمــاذا ستكون نهايته ؟ اذا كان هــذا هو بدء الحب فكيف سيكون آخره ؟..

وذعر حبيب مرزوق وهو يفكر بالنهاية ، وأغمض عينيه على دموعه.وهمس في سره : يجب ان أتوقف عن المسير في هذا الطريق الرهيب . هذا الطريق ليس طريقي ، الحب ليس لي . ولا هو لأمثالي . ما لي وله ، فلأبتعد عنه ، انه النــار المحرقة اللاهبة المتقدة السعير.هل ألقي بنفسي في النار؟.. لا ، لا وألف لا .. نهاية النار رماد ، انا لا اريد ان اصبح رماداً ، لن اكون محرقة، سأظل غصناً ندياً رطيباً .

وعزم حبيب مرزوق على ان يبتعد عن الحب ، عزم عــلى اطفاء النار المتقدة في قلبه ، عزم على ان ينسى محاسن نصار . هو لن يفكر بها ، لن يحلم بها ، لن يحلم بهواهــا ، لن يعود الى البحث عنها ، واذا قدر له ان يشاهدها يوماً فهو سيشيح بوجهه عنها ويمضي في سبيله .. واطمأن حبيب بعض الاطمئنــان وقد توصل الى اتخاذ هذا القرار الحــازم العنيف . إلا ان القرار كان بحاجة الى تنفيذ . ترى هــــل يستطيع حبيب مرزوق تنفيذ قراره ذاك ؟.. الايام القليلة المقبلةوحدها تستطيع الاجابة على هذا السؤال .

وطال سهر حبيب مرزوق تلك الليلة،مثله في الليلة السابقة،

لقد مضت ليلتان على تعرفه الى محاسن نصار ، والليلتان لم يذق فيها طعم الرقاد .. وانهك النعاس الشديد أجفانه وأرهق جسده الغض النضير ، وأطل الفجر داحراً امامه جيوش الظلام وحبيب ساهراً يتقلب في سريره ويفكر .. واخيراً استطاع ان يغمض عينيه . لقد تغلب النعاس عليه فأطبق أجفانه واستغرق في نوم رحيب شاسع عميق ، إلا انه لم يستطع ان يتخلى عن ذكرياته القريبة حتى وهو مستغرق في النوم .

لم يستطع الكرى ان يطرد عن رأسه طيف محاسن نصار ، فانسابت الاحلام الى مخيلته حاملة اليه وجه محاسن عبر الاحلام المضطربة السوداء .. وشاهد محاسن في الحلم، شاهدها تبكي، ثم شاهدها تضحك .. وشاهد نفسه قربها .. ثم شاهدها تخوض الامواج العاتية المزبدة الهوجاء وتكاد تشرف على الغرق ، واذا به ، في الحلم يثب اليها وينتشلها من براثن الامواج ، وأمسك بيدها وسار بها فوق الرمال إلا انه عجز عن المسير معها وقد غرزت أقدامها في تلك الرمال وأخذا يسقطان فيها حتى كادت الرمال تبتلعها ..

واستفاق فجأة من النوم على صوت امه تناديه : « حبيب ! قم يا ابني ، قم يا حبيبي ها الساعة قد أشرفت على السابعة من الصباح ، قم يا ابني ».واستفاق ، واستوى في السرير يفرك عينيه ، وتلفت حوله فلم ير محاسن ولا هو رأى البحر ولا الرمال ، وتنفس الصعداء ، الحمد لله . لم يكن كل ذلك الا

أضغاث احلام .. وتقدمت ام حبيب من ابنها تقدم له قهوة الصباح .. وتناول فنجان القهوة وراح يرشفه على مهل وهو شارد الذهن تائه الافكار، وجلست امه قربه وراحت ترشف قهوتها وترمقه من حين الى آخر بنظرة طويلة ..

وساد الصمت أرجاء الغرفة الصغيرة . فلا حبيب تكلم ولا امه .. وأخيراً، وبعد صمت طويل التفتت الام الى ابنها لتقول: حبيب !. أنت هذين اليومين على غير عادتك . انني لأراك دائم الأسى والحزن والتفكير ، أراك شارد الذهن تائه النظرات شديد الذهول . أنت لم تكن يا ابني لتخفي عني شيئاً ، لم تكن لتحجب عن امك اسرارك يا حبيبي . قل لي ما بك يا ابني، هل هناك ما يضايقك يا حبيب ؟ ». والتفت حبيب مرزوق الى امه ليقول : « أبداً أبداً يا أمي ليس ثمة ما يضايقني إلا انني ارى نفسي متعباً، قد يكون التعب أنهك قواي ». فذعرت الأم ، وهمست بخوف شديد : « أتكون مريضاً يا حبيب ؟ فلنشخص الآن فوراً الى الطبيب يا بني ». وابتسم حبيب. أي طبيب يستطيع ان يكشف داءه ، والداء في الروح لا في الجسد ، وأي نطاسي يستطيع ان يصف له الدواء والداء الكامن طي روحه وفي حنايا فؤاده لا دواء له ..

وهمس حبيب والابتسامة تشع على شفتيه : « لا يا امي لا . انا لست بحاجة الى طبيب . قلت لك ان التعب هد قواي، وسأرتاح هذا اليوم واستعيد عافيتي وأعود الى عملي » ،

فهمست ام حبيب ، وقد اطمأن فؤادها : « استرح يا ابني ، استرح . لا كان العمل اذا كان العمل إنهاكاً لجسدك وهدّاً لقواك. لا تنهض من السرير ، انا سأحمل لك الطعام الى هنا ». فوثب حبيب مرزوق من السرير والابتسامة تغمر شفتيه ليقول : « لا يا امي ، انا لن اظل في السرير ، سارتاح من العمل فقط وسأنصرف الى الراحة والى التنزه والاستجمام » .

وتمتمت ام حبيب : « ليكن ما تريد يا ابني ».ونهضت ، ودخلت الى المطبخ لتهيء الطعام لأبنها في حين انصرف حبيب الى ارتداء ثيابه .. وانتهى من ارتداء ثيابه وخرج من الغرفة الصغيرة المتواضعة فاذا بأمه تعترضه قائلة : « تعال يا ابني تعال لنتناول طعام الصباح ».وهمس : « تعالي يا امي انني لأتضور جوعاً» ولم يكن حبيب صادقاً في ادعائه الجوع. لم يكن لحبيب مرزوق شهية للطعام ، إلا أنه اراد ان يساير امه وان يجاملها فجلس قربها الى مائدة الطعام وراح يتناول معها الجبن والزيتون والزعتر والعسل والدبس وهو يتظاهر امامها بالجوع الشديد .. وانتهى من تناول طعامه . ونهض ليقول : « انا لن اعمل اليوم في البستان يا امي ».قالت : « لا بأس يا ابني . اقم في المنزل ريثما تستعيد قواك ».قال : « لا . لن اقيم في المنزل بل سأخرج الى التنزه وتنشق الهواء العليل ».وهم بالخروج فأمسكت امه بيده لتقول : « الى اين ستذهب الآن يا ابني » ؟

قال : « سأشخص الى المعاملتين وسأقضي طيلة النهار على

الشاطىء الرحيب الهادىء الجميل» فدهشت ام حبيب ، والتفتت الى ابنها لتقول : « لم تكن عادتك ارتياد شاطىء المعاملتين كل يوم يا حبيب. لم تكن لتشخص الى المعاملتين الا مرة في الاسبوع وكثيراً ما ينقضي اسبوعان او ثلاثة فلا تفكر بالذهاب الى المعاملتين . ماذا بدا وما جرى الآن ؟ انك لتشخص الى المعاملتين كل يوم ».فعادت الابتسامة تشع على شفتي حبيب ، وهمس :.« انني لأرتاح الى الاستحمام في البحر والى الجلوس فوق الرمال . هل يضايقك ذهابي الى المعاملتين ؟ »وودّلو ان امه تجيب : « اجل . ان ذهابك الى المعاملتين يضايقني . لا اريدك ان ترتاد هذا الشاطىء » .

وحبيب مرزوق تمنى ان تمنعه امه من الذهاب الى شاطىء المعاملتين لينزل عند اوامرها ، وهو الذي لم يخالف لها امراً ، إلا أن الام خيبت الامل وتمتمت : « لا يا ابني . لا ان ذهابك الى المعاملتين لا يضايقني . كل ما يهمني هو ان تكون مرتاحاً يا ابني » .. وودع حبيب امه وسار الى سيارته يستقلها ويطير بها الشاطىء الحالم الهانىء الفسيح الارجاء .. وانسابت الإفكار في رأس حبيب مرزوق وهو يقود سيارته السوداء عبر الاحراج والغابات في طريقه الى المعاملتين .. وعاد طيف الغادة الحسناء يغزو تفكيره ، وانغمس في التفكير البارد الصامت الكئيب .

لماذا يشخص الآن الى الشاطىء الجميل ؟ لماذا ؟ وهل يحتاج الامر الى السؤال ؟.. هو لم يشخص الى شاطىء المعاملتين الا

ليشاهد محاسن .. ولكن ، ولكن — هل هو سيجد محاسن بين المستحمات ؟. من يدري ؟ قد يجدها هناك ، وقد لا يجدها ، فليجرب حظه .. وتذمر حبيب مرزوق ، وهو يقود السيارة الصغيرة من القرار الذي اتخذه ليلا بالابتعاد عن محاسن نصار فضحك من نفسه .. كيف سمح لنفسه باتخاذ مثل هذا القرار الجائر الظالم الشديد ؟ لماذا يبتعد عن محاسن ؟. هل اساءت اليه ؟ لا .. هل خدعته ؟.. لا .. هل بدر منها ما يوجب اتخاذ مثل هذا القرار ؟ الجواب دائما لا. لا.

ووصل الى المعاملتين .. وأوقف سيارته الى جانب الطريق العام وقفز الى الرمال..ولم يكن الازدحام شديداً على الشاطىء الرحيب . فالنهار ما زال في ساعاته الأولى والمستحمون والمستحمات ما زالوا في دورهم وفي منازلهم . هم لا يغشون الشاطىء الجميل إلا وقد مضى الشطر الاول من النهار ..

وراح حبيب مرزوق يبحث بين المستحمات القليلات عن الفاتنة الحسناء الا انه لم يقع لها على اثر. لم تكن محاسن بينهن. اين هي اذن ؟ لماذا لم تحضر الى الشاطىء الرحيب ؟ لماذا ابتعدت عنه ؟.

وطافت في رأس حبيب مرزوق عشرات « لماذا » دون ان يستطيع الاجابة على « لماذا » واحدة منها ..

ودخل حبيب الكابين فنزع عنه ثيابه وارتدى ثوب البحر ،

وعاد الى الشاطىء ليرتمي فوق الرمال وينصرف الى التفكير .. وشعر بشوق بعيد الى محاسن ، وازداد الشوق اتقاداً في قلبه وقد اكتشف غياب محاسن عن ذلك البحر الفسيح .. وراح يعلل النفس بالاماني العذاب : محاسن ستحضر ، من المؤكد انها ستحضر ، فالوقت لم يفت بعد . ان هي لم تحضر قبل الظهر فستحضر بعد الظهر ..

ورمق الساعة المشدودة الى معصمه فاذا بها تشير الى العاشرة من الصباح .. وابتسم . الحمد لله . فالوقت ما زال فسيحاً امامه . قد تحضر محاسن في الساعة الحادية عشرة ، او في الساعة الثانية عشرة .. ان هي حضرت في الساعة الثانية عشرة فهو سيدعوها الى تناول الغداء . سيتناول الغداء وإياها ويتحدثان ما طاب لهما الحديث . سيتحدثان ويشرحان كل ما في قلبيهما من حب وهوى وشوق وغرامهو سيبوح لها بهواه، سيفشي امامها اسرار قلبه وخفايا روحه . سيطلعها على كل شيء ويبوح لها بكل شيء .

ولها ان تحكم وأن تعدل في حكمها ..

واستغرق حبيب مرزوق فيبناء قصور الاماني والاحلام.. وعاد يرمق الساعة بنظرة سريعة فاذا بها تشير الى الثانية عشرة .. الساعة بلغت الثانية عشرة ومحاسن لم يبن لها اثر . لماذا ؟.. ليس يدري لماذا .. وتضاءلت امانيه وأحلامه.الا انه ابى ان يتخلى عن التفاؤل . محاسن ستحضر . من المؤكد انها ستحضر . ستتناول طعام الغداء مع والديها ثم تشخص

الى المعاملتين . محاسن ستكون اذن على الشاطىء في الساعة الواحدة او في الساعة الثانية بعد الظهر . عليــه ان ينتظر ، ساعة او ساعتين على أبعد تعديل ..

وانتظر حبيب .. انتظر ساعة وانتظر ساعتين ومحاسن لم تطل .. وتمنى حبيب مرزوق ان تبطىء الدقائق في المسير الا ان الدقائق خيبت الامل فاندفعت على سرعة وعجل فبلغت الساعة الثانية بعد الظهر ، ثم بلغت الثانية والنصف، ثم وثبت الى الثالثة ، وتخطتها الى الرابعــة ، ثم اشرفت على الخامسة ومحاسن لم يبن لها اثر .. وتلاشت الاحلام والآمال من فؤاد حبيب مرزوق.وانهــارت القصور الشامخة الشماء التي بناهــا . وأدمعت عيناه . محاسن لن تحضر اليوم ، وقـــد لا تحضر غداً ، ومن يدري . قد لا يراها مرة ثالثة طيلة العمر ..

وراح حبيب يجوب الشاطيء الفسيح الارجاء وهو غارق في تفكيره البـــارد العميق .. وأشرفت الشمس على المغيب فوقف حبيب مرزوق يودعها والدموع تموج في عينية. وتذكر، وهو يشاهد الشمس في انحدارها الى اليم ، وقفته عند المغيب مع محاسن فبكى ، وهمس في سره وهو يحـــدق بالشمس الآفلة : ايتها الشمس المنيرة . الوضاحــة الجبين !.. اين هي حبيبتي محاسن ؟

وأدار ظهره ، وسار الى سيارته الصغيرة السوداء ليستقلها ويعود بها الى القرية الهادئة الجاثمة تحت ظلال الاغصان الخضراء وهو في حال نفسية مؤلمة دامية .

٤

أين محاسن

حبيب مرزوق يقيم على ألم وأسى وشوق وعذاب . لقد عرف قلبه الحب والغرام اخيراً.فاذا بالحب نار محرقة ، وإذا بالغرام سعير متقد اللهيب . وتعذب حبيب مرزوق في حبه وتألم . وساءت صحته كما ساءت اخلاقه . فكان يغضب لكلمة تفوه بها امه ويثور لعمل تافه يقوم بـــه فلاح .. وكان دائم الحزن والشجن ، يسير وهو شارد الذهن ، ويجلس وهو تائه الفكر ، وينام .. ينـام ؟.. لا ، بل هو يستلقي في سريره ليفكر دون ان تعرف عيناه لذة النوم ..

وخافت ام حبيب على ابنها ، وخشيت ان يكون قـــد اصيب بنكبة او ان يكون قد نزل به مصاب أليم فوثبت اليه لتقول : « حبيب !.. ما بك يا ابني ؟ ماذا اصابك ؟ ماذا دهـــاك يا حبيب ؟ ».فتمتم حبيب مرزوق بتأفف وملل : « لا شيء .. لا شيء » قـالت : « اراك ياابني واهي القوى اصفر الوجه مكفهر الجبين ، اتكون مريضاً ياابني ؟» وهمس بايجاز : « لا » قالت والخوف يعصف بها : « هل هنـــاك

كارثة ألمت بك يا ابني ؟ » وتمتم : « لا . لا انا بألف خير »
قالت : « يا ابني يا حبيب . انا امك ويجب ان اقف على كل ما يشغل بالك . ان ألمك يؤلم روحي وعذابك يعذب قلبي . قل لي ما بك يا حبيب . لقد تغيرت كثيراً يا ابني . لم تعد ذلك الشاب الوديع الهادىء السعيد ، كل ما فيك يشير الى ان التعاسة تحيط بك. كل ما هنالك يثبت انك لست سعيداً ، ويثبت لي ان هناك سراً في قلبك يعذبك ويشقيك. قل لي ما هو هذا السر يا ابني ؟ »

وتألم حبيب مرزوق شديد الألم لتلك العاطفة النبيلة التي تموج في صدر امه الحنون . وودّ لو انه يستطيع ان يبوح لها بسره ليريح قلبها . ودّ لو انه يستطيع ان يريح قلب تلك الأم ، ولكن هل يستطيع ان يبوح بذلك السر ؟.. لا . لا وألف لا . سره سيظل دفيناً في صدره . هو سينزل معه الى الضريح ..

وأمسك حبيب مرزوق بيد امه ليقول : « اطمئني يا امي .. اطمئني. انني بألف خير » .. وهمست الام والدموع تترقرق في عينيها . انني لأتمنى ان تكون بألف خير ، الا انني ارى الخير بعيداً عنك بعد الارض عن السماء .

ولم ينبث حبيب بحرف . بل هو سار خارجاً من الدار ، والألم يعصف به والحزن العميق يعصر قلبه عصراً .. ووثب الى سيارته يستقلها ويطير بها الى الشاطىء الجميل ، الى المعاملتين .

هناك على الشاطىء الحـــالم الجميل الفسيح يستطيع أن يستعيد ذكرياته المؤلمة الحالمة ، هنـاك في المعاملتين يستطيع ان يناجي الامواج المزبدة ويحملها سلامه الى محاسن ، يستطيع ان يداعب حبات الرمل الصغيرة الصفراء التي وطأتها قدما محاسن .. لقـد مضى شهر على لقائه بمحاسن . شهر كامل لم يشاهد خلاله محاسن ولم يسمع صوتها ولم يأنس بها .

ووصل الى الشاطىء فـــاذا بذلك الشاطىء حزين الحنايا ، اسود الرمال ، مدلهم الأمواج .. كل ما في نظر حبيب مرزوق أصبح حزيناً.. عيناه لا تقعان على سوى الظلام والحزن والأسى والدموع . وكان الشاطىء الفسيح الأرجـــاء يزدحم بالسابحين وبالسابحات، إلا أنه لاح لحبيب مرزوق مقفراً. فما هناك سوى قفر وملل وفراغ .

وسار فوق الرمال على ألم وشوق وحنين . ووقف امـــام الأمواج يناجيها والدمعة في عينيه والحسرة في قلبه.وهمس : « محاسن اين انت ؟ » . واذا بهمس يتكسر في اذنـــه : « حبيب ! حبيب » .

ووجم .. هذا الصوت هو صوت محاسن . أتكون محاسن قربه ؟ أتكون هنا على الشاطىء الرحيب الفسيح الأرجاء ؟ وخيل اليه ان الهمس مقبل نحوه مع الامواج . خيل اليه ان الأمواج تحمل اليه همسات محاسن من وراء البحار ، الا انـه ازداد دهشة وهو يشاهد محاسن امامـه والابتسامة تشع على

شفتيها.. واشتد به الوجوم وأخذ يرتجف كأنه ورقة في مهب الرياح العاصفة الهوجاء .. وعادت محاسن الى الاقتراب منه.. وهمست وقد اصبحت قربه : « حبيب ! كيف حالك ؟ » . وحاول ان يجيب ، حاول ان يرد عليها ، حاول ان يهمس : « الحمد لله . انا بخير » إلا انــه لم يستطع ان ينطق بحرف . ولم يستطع ان يفوه بكلمة .. المفاجئة أذهلته .

الفرحة عقدت لسانه ..

وأمسكت محاسن بيده. وهمست: « تعال يا حبيب . تعال نجلس هناك . هناك فوق الرمال ، تحت المظلة الخضراء » .

ودون أن يجيب بحرف سار قربهـا . سار كما يسير الطفل قرب أمه . كما يسير الحمل قرب الراعي .

ووصلا الى المظلة الخضراء، وجلست محاسن. لقد تمددت فوق الرمال وتمدد حبيب قربها . وصمت الاثنان . هو وهي، فلم ينبس احدهما بحرف ..

وكانت الامواج ترسل حفيفاً لطيفاً يبعث الشوق والحنين في القلوب والارواح .. وطال صمتهما . وراح كل منهما ينظر الى الآخر نظرات تنم عمـا في القلبين من شوق وهوى وحب وحنان . كانت نظراتهما تنطق بما في قلبيهما .

وراح حبيب مرزوق يجمع شتات جرأته وشمل شجاعته محاولاً التغلب على رعشته واضطرابه ، محاولاً النطق ، محاولاً

الكلام . واستطاع بعد جهد ان يتكلم ، فالتفت الى محاسن ليقول : « محاسن ! لماذا ابتعدت عني ؟ لماذا انقطعت عن ارتياد هذا الشاطىء الحالم الجميل ؟ لماذا حرمتني من مرأى وجهك الصبيح ، ومن الاستماع الى صوتك العذب الشجي ؟ لماذا يا محاسن ؟ لماذا ؟ » .

وأمسكت محاسن نصار بيده هامسة : « لا تسلني شيئاً يا حبيب . ها أنا الآن عدت اليك ، لقد اجتمعنا ثانية يا حبيب » .

قال : « ولكن اريد ان اعلم لماذا انقطعت عن ارتياد هذا الشاطىء . لماذا ابتعدت عني ؟ لماذا حرمتني لذة النوم والراحة والهناء ؟ » ولم تجب محاسن على اسئلته ، بل هي التفتت اليه لتقول : « حبيب هل اشتقت اليّ ؟ هل كنت تذكرني ؟ هل عذبك بعادي وقضّ مضجعك فراقي ؟ » وشدت اصابعه اصابعها . وهمس ، وهو ينظر الى البحر الهادىء الساجي الفسيح :

« محاسن ! لا تسأليني كم تعذب حبيب وكم تألم لفراقك.لا تسألين شيئاً يا محاسن . يكفي ان تعلمي انني لم اذق الراحة منذ شهر ، يكفي ان تعلمي انني ، منذ شهور ، احضر كل يوم الى هنا واسأل الامواج والرمال والنسيم العليل عنك . ألا تصدقينني يا محاسن ؟ اذا كنت لا تصدقين فسلي الامواج والرمال ، سلي مياه البحر وزبده ، سلي هذا الفضاء الواسع

الرحيب ، سليها كلهـا تقل لك : « مسكين حبيب كم تعذب وكم تألم لبعادك يا محاسن ».وانتشت محاسن بكلامه العذب الشجي ، ان حبيباً يحسن صوغ كلمات الغزل والغرام ويجيد سكبها في الاذان .. وتشابكت الاصابع ، اصابع محاسن واصابع حبيب.وهمست محاسن :

« حبيب ! لا. انا لست بحاجة الى السؤال . لست بحاجة الى اثبات وبرهان . انا اعلم انك تعذبت لفراقي وانك تألمت لابتعادي عنك .. اعـلم ذلك لأنني انا ايضاً تعذبت لفراقك وتألمت لابتعادي عنك . لقد قضيت هـذه الليالي الثلاثين التي عشتها بعيدة عنك ، قضيتها ساهرة ساهـدة افكر بـك واناجيك واحن اليك يا .. » وكادت تقول له : « يا حبيبي » الا ان الخجل استبد بهـا وعقد لسانها .. وهمس حبيب : « قولي . قولي يا محاسن . قولي تلك الكلمة الي كنت تريدين ان تنطقي بها . قولي . قولي كل ما تريدين يا .. يا حبيبتي » وشجعتها كلمة « حبيبتي » .

فنظرت الى عينيه نظرة طويلة. وهمست: « يا حبيبي ».. ورددت الامواج صدى الكلمتين العـذبتين : « يا حبيبي .. يا حبيبتي » وعـاد الصمت يلفهما بجناحيه .. وألقت محاسن برأسها الجميل على صدر حبيب.وراح نسيم البحر العليل يبعثر خصلات شعرها الاسود الجميل فتتناثر على وجـه حبيب وعلى عنقه .. وغمر السكون انحـاء الشاطىء.وساد الهدوء الرمال.

وكانت الامواج تندفع نحو الشاطىء الفسيح لتتكسر عند اقدام العاشقين الحبيبين .. وشعرت محاسن بالسعادة تغمر كيانها وهي جالسة قرب حبيب مرزوق .

وكان السابحون قد بدأوا يغادرون الشاطىء والشمس قد أشرفت على الأفول ، وكان الشبان منهم يمرون بها فيحسدون حبيباً على جلسته قرب تلك الغادة الحسناء ، وتمر الصبايا فيحسدن محاسن على جلستها قرب ذلك الشاب القوي الجميل الوسيم .. ووقفت الشمس على شرفة الافق البعيد متأهبة للانحدار الى اللجة العميقة الغور .. والتفت حبيب الى محاسن ليقول : « محاسن ، هل تذكرين وقفتنا هنا امام هذا المنظر الجميل منذ شهر ؟ هل تذكرين يا محاسن ؟ » .

وارتسمت على شفتي محاسن ابتسامة زاهية زاهرة بيضاء وهمست : « وهل استطيع ان انسى .. كل كلمة تلفظت بها شفتاك يا حبيب في تلك الوقفة الحالمة ما زالت تتردد في خاطري .. كنت ، وأنا بعيدة عنك أردّد في خاطري كلماتك العذبة الشجية يا حبيبي لا تسل كم تعذبت وكم تألمت وكم شقيت لبعادك يا حبيب ».قال حبيب ، ويده لا تزال ممسكة بيدها وأصابعه لا تزال تشد أصابعها : « ما دام البعاد عني قد عذبك وأشجاك فلماذا لم تعودي الي !.. او بالاحرى لماذا ابتعدت عني يا محاسن ؟. »

وصمتت محاسن برهة . وراحت تحدق بالامواج الساجية

والدموع تترقرق في عينيها ، وهمست ، بعـد صمت قصير : « حبيب هل تحبني يا حبيب ؟.. » وتمتم حبيب فوراً : « لا تسليني مثل هذا السؤال يا محاسن ، بل سلي قلبـك ، قلبك ينبئك بالخبر اليقين » قالت : « لا ، أريد ان اسمع منك انت الجواب . أريد ان تنطق شفتاك بما يختلج في قلبك الحنون من عاطفة وحب وهوى وحنين . قل لي يا حبيب قل .. هل تحبني ؟ »

فنظر حبيب الى البحر الواسع الشاسع الاطراف،وهمس : « محاسن !.. هـل تشاهدين هذا البحر البعيد المدى الواسع الحنايا العميق القرار ؟.. ان حبي اياك أبعد من البحر وأوسع من اطرافه وأعمق من لجته العميقة الغور . هـل تشاهدين يا محاسن هـذا الفضاء الرحيب ؟ ان حبي لك لأرحب منه وأبعـد . حبي اياك يا محاسن يفوق البحر عمقاً واتساعـاً ، والفضاء رحابة وانطلاقاً . ان الايام الثلاثين التي قضيتها بعيداً عنك أثبتت لي انني لن استطيع الابتعاد عنك مدى العمر ..

والآن . الآن قولي لماذا ابتعدت عني طيلة هـذا الشهر يا حبيبتي ؟. فهمست محاسن : « حبيب ماذا فعلت بقلبي ؟.. لقد شاهدت شباناً كثيرين ، فلم آبه لهم . وحاول الكثيرون ان يظفروا بقلبي ، إلا ان الفشل الذريع كان نصيبهم . امـا انت فقد استوليت على قلبي فجأة يا حبيب. كان قلب محاسن محصناً ، فاقتحمت الحصون واحتللته على الرحب والسعة .

لقد ابتعدت لأهرب منك ، لأنجو من حبك لابتعد عن الحب، الحب الذي أخافه وأرتهب منه ، حاولت الهرب فعجزت.. هربت ، هربت يا حبيب ، ليس من بيروت فحسب بل من لبنان بأسره . لقد سافرت الى الجمهورية العراقية ، حيث أقمت شهراً هناك وقد حاولت خلال هذا الشهر ان أبعد ذكراك عن رأسي ، حاولت ان أبعد طيفك عن وسادتي الا انني عجزت . كنتَ وما زلتَ انت نفسي انا ، وهل يستطيع الانسان ان يهرب من نفسه ؟ انت ظل قلبي يا حبيب وهل يستطيع القلب ان يهرب من ظله » ؟

قال حبيب مرزوق : « متى سافرت الى الجمهورية العراقية يا محاسن » ؟ قالت : « اتذكر ذلك المساء الذي وقفت واياك فيه نودع الشمس على هذا الشاطىء ؟ اتذكر ما قلت لي وما قلت انا لك ؟.. اتذكر كيف هربت منك واسرعت بالذهاب » ؟ قال : « اجل اذكر . اذكر كل شيء يا محاسن» قالت : « لقد اسرعت بالهرب منك وسرت بسيارتي الخاصة الى بيروت ، وانا اتلفت ورائي . لقد خيل الي انك تلحق بي . والحقيقة ، هي انني كنت اتمنى ان تلحق بي . اهرب منك واريدك ان تتبعني. هل رأيت فتاة مجنونة مثلي ؟.. ووصلت الى دارنا في بيروت . واسرعت بالدخول الى غرفتي لاجدك هناك . هناك في تلك الغرفة الانيقة كنتَ جالساً فوق سريري .

اجل يا حبيب ، اجل يا حبيبي لقد شاهدت طيفك جاثماً فوق الوسادة البيضاء .. واغمضت عيني كي لا اراك ، الا انني رأيتك في اغماضة عيني .. وكنت اسمع صوتك ،كانت تلك الكلمات القليلة التي تحدثت بها اليّ هنا على هذا الشاطىء ، كانت تلك الكلمات لا تزال ترن في اذني .. وذعرت ، وسددت اذني لئلا أسمع صوتك الا انني سمعت ذلك الصوت يتجاوب ويتردد في اعمق اعماق روحي .. وحاولت النوم ، حاولت الرقاد لأبعد صورتك عن عيني وصوتك عن اذني الا انني عجزت . فأنا لم استطع الى النوم سبيلا . كنت مستلقية في سريري افكر بك ، بصوتك . بنظراتك ، بحديثك ، بكلماتك ، بعينيك . وعندما غزا الكرى مقلتي ، مع مطلع الفجر البعيد شاهدتك قربي في الحلم .

حتى في النوم لم استطع ان اتخلص منك .. وفي الصباح ، عندما استفقت ادركت ان الحب بدأ ينسج خيوطه الدقيقة حول قلبي . وخفت ، وذعرت . فأنا لا اريد ان افسح الى الحب طريقاً الى قلبي . لا . لا . لا انا لن احب ، لن احب .. وعزمت على الهرب من لبنان لأهرب منك . واسرعت الى انجاز معاملة السفر ، واستقللت الطائرة الى بغداد .. لأجدك قد سبقتني اليها . لقد رأيتك هناك رأيت طيفك قربي ، يسير حيث اسير ، ويقف حيث اقف ، ويجلس حيث اجلس ..

وسمعت صوتك يتجاوب في اذني مع حفيف اغصان

النخيل الدائمة الاخضرار .. الى اين هربت منك وانت قادر على اللحـاق بي الى كل مكان ؟.. وأبيت ان اتراجع ، ابيت ان اندحر ، ابيت ان القي سلاحي . وعزمت على المضي في المقاومة .. وقاومت . قاومت طيلة شهر كنت خـلاله اراك امامي كل يوم ، وكل ليـلة ، وكنت اسمع صوتك واشاهد طيفك جاثماً على قلبي .. وكان لا بـد من الاندحار ، كان لا بـد من إلقاء السلاح فألقيت سلاحي ، وعدت الى لبنان ، عدت لاطير فوراً الى هنا ، الى هـذا الشاطىء الحالم الباسم الجميل ، وانا اخشى الاّ اراك .. الا ان الله ابى ان يحرمني منك . ابى ان يفجعني بقلبي فوجدتك لا تزال هنـا ، حيث تركتك منذ شهر،تقسـيم مني على انتظار بعيد رحيب » ..

وهمس حبيب مرزوق :

« وحالي معك لم تكن بالفضلى يا محاسن . مـا حل بك حل بي ، ومـا اصابك اصابني . لقد تعذبت كثيراً لبعادك يا حبيبتي . وحاولت ، كما حاولت انت الهرب ، حاولت ان انساك ، حاولت ان اهرب من حبك، الا انني عجزت،كنت حيث اتجهت اجدك امامي. واي صوت سمعت اخاله صوتك. كنت اشاهدك في المـاء والهواء والنور ، وكنت اسمع صوتك في حفيف الاغصان وفي اناشيد الجداول وفي تراتيل الطيور . وفي الليل ، آه من الليل يا محاسن،وفي الليل ، اسهر معك ، مع طيفك الجميل ، اسهر الليل بكامله ، واذا مـا قدر لي ان

انام دقـائق قليلة انسابت الاحلام الى رأسي حامـلة الى عيني صورتك والى اذني صوتك العذب الشجي .. وكنت اشخص كل يوم الى هنا ، الى هذا الشاطىء الرحيب الشاسع الجميل ، اسأل الامواج والرمال والهواء والفضاء عنك فـــلا القى من مجيب ، وبكيت. اجل لقد بكيت يا محاسن وانا افكر بك. كنت اخشى ان افقدك الى الابـــد . كنت اخشى ان تضيعي مني وانا لا اعرف اين اجدك ، ولا اين سأبحث عنك » .

وهمست محاسن : « يبـــدو ان الحب الذي غمر قلبك هو نفسه قد غمر قلبي انه قوة هائلة رهيبة يا حبيب ، قوة عاصفة عصفت بقلبينا معـــاً فحطمتهما ونثرت اشلاءهما في الفضاء . يا لهذه القوة الهائلة الرهيبة المخيفة التي يسمونها حباً يا حبيب يا لها من قوة هائلة تلعب بقلوب البشر كما يلعب الأطفال بالدمى وتحطمها كما يحطم الاطفـــال الدمى . من كان يقول ان محاسن التي حطمت قلوب الكثيرين ، ستلتقي بشاب وسيم على شاطىء المعاملتين ليحطم قلبهـــا ويذل كبرياءها ويتلاعب بعواطفهـــا وبشعورها ؟ » .

وابتسم حبيب وهمس : « وأنا من كان يقول ان حبيباً مرزوق الذي كان يهرب من الحب ويضحك على المحبين . يصبح عاشقاً ولهاناً يسهر الليالي البعيدة يفكر بحبيبته ويبكي كالاطفال ؟ » وابتسمت محاسن ايضاً . وهمست : « للاقدار احكام لا نسبر غورها ، ولا ندرك كنهها يا حبيب . فاطلب

معي من الله ان يرفق بقلبينا وأن يحميهما من احكام الاقدار ومن ظلمها ومن جورها » .

وهمس حبيب : فليحقق الله احلامنا الوارفة وأمانينا العذاب يا محاسن .. والآن ، قولي لي هل سافرت الى بغداد وحدك ؟ »

وتمتمت : « اجل وحدي يا حبيب » .

فدهش حبيب مرزوق وتمتم :

« كيف سمح لك والدك بالسفر وحدك الى بغداد ؟ » ..

وأدممت عينا محاسن وصمتت ..

وخشي حبيب ان يكون قد اساء الى شعورها .. واحتار بماذا يتكلم وكيف يعتذر منها . وصمت . هو لم يجد كلمة اعتذار يتلفظ بها ..

وساد الصمت بينهما برهة قصيرة .. وعادت محاسن الى الكلام بعد صمت قصير لتقول : « انا بلا اب وبلا ام وبلا اخوان يا حبيب » فوجم حبيب . ماذا تقول محاسن ؟..

وتابعت الفتاة الحسناء كلامها لتقول : « سأروي لك قصتي من اولها يا حبيب انا لن اخفي عنك شيئاً . سأروي لك كل شيء . كل شيء . قد يتغير ويتبدل رأيك بحبيبتك محاسن بعد ان تقف على قصتها . قد تستطيع ان تخمد نار الحب المندلعة في قلبك بعد ان تعلم كل شيء عني » ..

فأمسك بيدها يشدها ويرفعها الى شفتيه ليلثمها ويهمس : « محاسن عندما احببتك لم اعلم من انت ولا من هو والدك ولا مـاذا يعمل ولا من هي اسرتك . عندما احببتك احببتك لأنك انت ، انت .. لأنك محاسن لا اكثر ولا اقل وسأظل احبك يا حبيبتي حتى الموت . حتى الموت ؟.. لا ، حتى بعد الموت . لأن روحي تحبك لا جسدي ، والروح خالدة كما تعلمين اما الجسد فهو فان ، ومصيره الى التراب . وبعـد ان يموت الجسد ويفنى ويصبح رمـاداً تظل الروح راتعة بالخلود وتظل اشواقها وحنانها وحنينها خالدة مثلها . لقد احبّتك روحي هنا على هذه الأرض، وستظل تحبك هناك فيالسماء » .

وأدمعت عينـــا محاسن وهي تسمع كلام حبيب النابض بالعاطفة الصادقة وبالهوى المقدس النبيل .. ورفعت يده الى شفتيها لتمرغ الشفتين النديتين براحتـه.وهمست : « أنا يتيمة الأبوين يا حبيب . لقد ماتت امي وأنا في الثالثة من عمري . ولحق والدي بها بعد سنتين تاركاً لي ثروة طائلة . كان والدي غنياً غنياً جداً ، لقد كان من كبار التجار في لبنـان ولذلك فهو قد ترك لي ثروة كبرى . وتعهدني خاليبعد موت والدي. ونشأت في دار خالي مع ابنته انعام وكان خالي وزوجتـــه يعطفان علي كما يعطفان على ابنتهما الوحيدة انعام .

وعندما بلغت الثانية عشرة من عمري فقدت خالي . فقد توفاه الله اثر نوبة قلبية عنيفة، وأقمت مع أرملة خالي وابنتها

انعام في الدار ، وكان موت خالي صدمة عنيفة لي لأنه كان عندي بمثابة أبي .. ومضت الايام يا حبيب وانا أعيش مع أرملة خالي ومع ابنتها انعام في بحبوحة من العيش . فأنا غنية جداً . الاموال التي ورثتها عن والدي ثروة كبرى وايرادها يكفي لإعالة مئة فتاة مثلي .. ثم ان خالي ايضاً كان غنياً وقد ترك لزوجته ولابنته انعام ثروة كبيرة .. وخيل الي ان الايام ستكف عن انزال الكوارث بي .. وركنت اليها ، وقنعت بالعيش السعيد قرب امرأة خالي وقرب انعام، وكانت امرأة خالي تعاملني معاملة الأم لابنتها ، امـا انعام فكانت تحبني كما تحب الاخت اختها وكنت انا أبادلها نفس العاطفة والشعور .. إلا ان الايام لم تكن لتصفو يوماً للانسان، والزمن ما كان ليكف عن نشر الكوارث والمصائب على بني البشر .. واذا بي استفيق فجأة ، منذ خمس سنوات، على كارثة جديدة فقد توفيت امرأة خالي ، توفيت كما توفي زوجها ، أصيبت بنوبة قلبية كانت القاضية عليها .. وفقدت بامرأة خالي الحنون عطف الام وحنانها . وبكيتها كما بكتها انعام ، بدموع قانية الاحرار ..

وها انا الآن أعيش مع ابنة خالي انعام في دارنا في بيروت عيشاً هادئاً هانئاً سعيداً . انا وانعام غنيتان يا حبيب ، إلا ان كل ما نملك من اموال وبنايات وذهب ، كلها لا توازي ذرة صغيرة من حنان الوالدين . نحن يتيمتان ليس لنا في هذه

الحياة احد . لا أم ولا أب ولا أخ فكأن الله الذي جاد علينا بالأموال الطائلة أبى ان يجود علينا بحنان الوالدين » ..

وبكت محاسن نصار وهي تروي لحبيبها مأساتهـا المؤلمة الدامية .. وتأثر حبيب للمأساة ورثا لحال محاسن . وهمس ، وهو يداعب شعرها الحالك السواد المتناثر على وجهه :

« محاسن ، ان الله عز وجـل لا يتخلى عن عبيده . فهو عندما يضرب بيد ، يواسي ويساعد باليد الثانية. لقد حرمك الله حنان الوالدين إلا انه عوض عليك بالمـال الذي نثره بين يديك بدون حساب » فهمست محاسن : « وهل يخيـل اليك ان المال كل شيء في الحيـاة ؟ ».وتمتم حبيب : « هناك شيء واحد في الحياة اغلى وأثمن من المال يا محاسن »وتمتمت محاسن: « ما هو هذا الشيء يا حبيب ؟ » قال : « الشرف .. ان الشرف أثمن شيء في الحياة يا محاسن . والغني الغني عـلى هذه الارض هو الانسان الشريف » .

فوجمت محاسن . لمـــاذا يتحدث حبيب عن الشرف ؟ وصمتت .. لم تنبس بحرف . لم تفه بكلمة.. وعاد حبيب الى الكلام ليقول : « قولي لي الآن ، لماذا ذهبت الى بغداد ؟.. وأين حللت من عاصمة الرشيد ؟ »

فأدركت محاسن ان الغيرة بدأت تعصف بقلب حبيب ، وهي تلمس الغيرة في عيني حبيبها ، وما الغيرة سوى دخـان

الحب العاصف الشديد .. وهمست : « اطمئن . انا حللت في دار احدى نسيباتي هناك . ان نسيبتي هذه لبنانية متزوجة من رجل عراقي نبيل . وهي تحضر كل عام مرة او مرتين مع زوجها الى لبنان وتحل في دارنا . لقد أقمت في دارهـا طيلة هذا الشهر يا حبيبي » .. فاطمأن قلب حبيب مرزوق . الحمد لله . ليس ثمة أي شاب في قلب محاسن . وهي لم تشخص الى بغداد لتقابل شاباً او لتلتقي حبيباً . هي لم تسافر الى بغداد إلا لتزور نسيبتها الكريمة ..

وعـاد الصمت يرخي سدله الباردة على الحبيبين المتيمين . ولم يطل الصمت بينهما فقـد التفتت محاسن الى حبيب لتقول بعد صمت قصير : « والآن، وقد وقفت على قصتي هل غيرت رأيـك بحبيبتك محاسن ؟ » فابتسم حبيب مرزوق . وهمس : « اجل . لقد غيرت رأيي » فوجمت محاسن . أيكون حبيب جاداً في ما يقول ... وهمست : « هل استطعت ان تتخلص من حبها ؟ » فاتسعت الابتسامة عـلى شفتي حبيب . وهمس : « لقد غيرت رأيي بهـــا على طريقتي الخاصة . كنت احبها كحبيبة فقط فاصبحت احبها كحبيبة وكزوجة المستقبل ».

وارتعشت محاسن نصار واضطربت وهي تسمع كلمـات حبيب .. واغمضت عينيها على الحـــلم الذهبي الجميل لتشاهد نفسها بعين الخيال ، وهي ترتدي ثوب العرس الناصع البياض ويدها بيد عريسها حبيب والاهل والاصدقاء حولها ينثرون

عليها الازهار والعطور والرياحين .

وبكت محاسن .. وبدأت الدموع الغزيرة تنهمر من عينيها المغمضتين على وجنتيها .. واستقرت دمعة محمومة من دموعها فوق يد حبيب فذعر.. وطوقها بذراعيه هامساً: «محاسن !. مـا بك ؟ لماذا تبكين يا حبيبتي ؟ لماذا تذرفين هذه الدموع الثخينة يا حياة حبيب؟ » وهمست وهي تمسح دموعها بكفها: « انهـا دموع الفرح يا حبيبي ، دموع السعادة . انا سعيدة بحبك يا حبيب سعيدة بهواك ، سعيدة بقربك ، إلا انـني اخشى ان تقف الايام بيننا ، اخشى ان تفرقنا الاقدار ، فتلقي بك في وهدة ، وتلقي بي في وهدة اخرى ».فهمس : « اطمئني . نحن لن نفترق . لن نفترق ابـداً يا حبيبتي . سنعيش معاً مدى الحياة . مدى الحياة يا حياتي » .. وتمتمت « هـل تتخلى يوماً عني يا حبيب ؟ » فابتسم حبيب مرزوق وتمتم : « انا اخشى ان تتخلي يومـاً انت عني . انا فقير يا محاسن . انا مزارع صغير . لقد قلت لـك سابقاً ، واعيد القول على مسمعك الآن . انني لاقرب الى الفقر مني الى الغنى. اما انت فانك غنية واخشى ان يفرق المال بيني وبينك » .

فطوقته بذراعها.وهمست : « يا مجنون . أيخيل اليك ان المال اغلى منك عندي.كل مـا في العالم من ذهب ومال لا يساوي عندي نظرة من عينيك .. ولكن قـل لي يا حبيب هل ستظل مقيماً على حبي مهما يحصل ومهما تتمخض به الايام

من المفاجئات والحوادث يا حبيبي ؟ ».فضمها الى صدره برفق وحنـان.وهمس : « محاسن !.. ثقي يا حبيبتي انني سأعيش بحبك العمر كله .. لن تستطيـع قوة ان تبعدني عنك على هذه الارض وحياتك يا محاسن، وحياة حبنا الطاهر المقدس النبيل يا حبيبتي . انا لن ابتعد عنك ولن اخون عهـدك ولن احاول التخلص من حبك مدى العمر، وانت ؟.. انت هل ستبتعدين عني يا حبيبتي ؟ ».وارتمت على صدره هامسة : « انــني اقسم لك يا حبيبي ، اقسم لك بالله العلي العظيم ، اقسم لك بحبنا ، اقسم لك بعينيك انني سأظل وفيـة لحبك امينة لهواك مدى الحياة » ..

وكانت اجنحة الظلام قـد بدأت تلف الشاطىء الفسيح الارجاء لتغمره وتغمر امواجــه بسوادها الحالك فنهضت محاسن ونهض حبيب .. وسارا فوق الرمال وهمـا على فرحة هانئـــة سمحاء .. ورافقها حبيب الى السيارة . وهمس وهو يودعها « الى اللقـــاء غداً يا حبيبتي ».وهمست وهي تستقل سيارة البويك الفخمة : « سأكون هنا الساعة الثالثة بعـــد الظهر » .. وهمس : « سأكون بانتظارك يا حياة حبيب » .

وادارت محاسن محرك السيارة وأطلقت لهـــا العنان .. ووقف حبيب يشيـع السيارة السوداء .. وعندما توارت عن عينيه استقل سيارته الصغيرة وسار بهـــا الى القرية الصغيرة الخضراء والآمـــال الباسمة تغمر فؤاده والاحلام الهانئة تشيع في قلبه السعادة والهناء .

٥

قلب يحترق

محاسن نصار تقيم على قلق وألم واضطراب . هـذا الحب الجديد الذي غمر قلبهـا يعذبها ويبعث الدموع الى عينيهـا والشوق والحنين الى قلبهـا الهائم الولوع . هي لم تتعرف قط الى الحب الحقيقي . لم تعرف ما هي قيمة الهوى قبل اليوم ، بالرغم من ان هناك عشرات الشبان قد مروا في حياتها ، وفي كل مرة كان يخيل اليها أن الحب الحقيقي بدأ يغزو قلبها ثم لا تلبث ان تكتشف ان ذلك الحب كان مزيفـاً وان الحبيب الذي تكاد تهبه قلبها هو انسان عادي لا تشعر نحوه بأي عطف ولا بأي شوق ولا بأي حنين .. ولكن الحال تختلف مع حبيب مرزوق . فقد استطاع حبيب أن يغزو قلبها وأن يسطو عليه ويحتفظ به دون ان يطلب منهـا ذلك القلب ودون ان يترك لها مجال التفكير في اتخاذ اي قرار ..

وأدركت محاسن ، ان ذلك الحب الذي غمر قلبها وأذاب فؤادها وشغل تفكيرها هو الحب الحقيقي الذي يتحدث عنه

الكتاب والأدباء في قصصهم ورواياتهم ، والذي يصفه الشعراء في قصائدهم الرائعة الغراء .

وقلقت محاسن نصار كل القلق وقد أدركت أنها وقعت صريعة الحب وضحية الغرام . هي لا تريد ان تحب ، لا تريد ان تهوى ، لا تريد ان تعشق ، لا تريد ان تتخلى عن قلبها وأن تسلم زمامه الى شاب يتصرف به كما يشاء ويفعل به ما يريد ..

وتغيرت حال محاسن نصار . لم تعد محاسن تلك الفتاة الفرحى السعيدة الطروب بعد ان احبت حبيب مرزوق . لم تعد شفتاها تعرفان لذة الابتسام ، لم تعد الراحة تغمر قلبها ولا السعادة لتتعرف الى روحها الهائمة الولوع .. وانزوت محاسن نصار في غرفتها في دارها الفخمة في شارع الحمراء تفكر بألم وبقلق واضطراب . فهي تحب حبيبها ، تحبه حباً هائلاً مروعاً رهيباً . تحبه وتريد ان تتفانى في حبه . تريد ان تكون مخلصة له ، تريد ان تكون صادقة معه . لا تريد ان تنطق أمامه بالكذب وبالنفاق ، إلا انها عاجزة عن تنفيذ ما تصبو اليه وتريد .. فهي لا تستطيع ان تخلص في حبه ، ولا تستطيع ان تكون صادقة معه . لا تستطيع ان تنطق بالصدق.والصدق يبعده عنها ويحول بينه وبينها ..

واستلقت محاسن نصار في سريرها تفكر ..

وجالت الدموع في عينيها وهي تفكر بمصيرها مع حبيب مرزوق . فهي مجرمة .. أجل هي مجرمة . لقد كذبت على حبيب . كل ما روت له من قصتها كذب ونفاق وتدجيل . هي لم تصدق في سوى فصل واحد من تلك الفصول التي روتها له .. لم تصدق في سوى قصة التيتم . فهي يتيمة الأبوين .

مات والداها وهي لا تزال صغيرة فآواها خالها . هذا صحيح ، ولكنها ما ان بلغت الثانية عشر من عمرها حتى دفع بها خالها الى الخدمة في دار احد الوجهاء الاثرياء في بيروت . وأصبحت خادمة تغسل الصحون وتكنس الارض وتنظف أثاث الدار .. وخالها ، وهو رجل قروي فقير كان يشخص في آخر كل شهر الى دار الوجيه الثري ويتقاضى اجرة ابنة اخته اليتيمة .. وكان الخال الكريم يحتفظ بالخمسين ليرة التي يتقاضاها اجرة اتعاب ابنة اخته كل شهر ويأبى ان يجود على الطفلة البائسة بليرة واحدة .. وكانت الطفلة الصغيرة ، وردة نصار – كان اسمها الحقيقي وردة نصار – كانت وردة ، وهي في الثانية عشر من عمرها راضية من دهرها بالخدمة في دار ذلك الثري ، فهي لا تطلب من الحياة إلا لقمة الخبز . يكفيها ان تأكل وتنام في تلك الدار الفخمة الأنيقة ، وخيل إليها ان الدنيا بأسرها رغيف خبز تأكله وتشبع به جوعها ، وثوب ترتديه ، ووسادة تلقي اليها رأسها وتنام .

إلا ان الحياة بدأت تكشف لها عن وجهها الفاتن الجميل

وقد وثبت الى الرابعة عشر من عمرها .

بدأت الخادمة وردة نصار تعلم ان ليس الخبز والماء والثوب كل شيء في الحياة ..

وكانت ورده ، وقد اصبحت في الرابعة عشرة من عمرها الندي تشاهد سيدتها في ثيابها الأنيقة فتتمنى لو انها تستطيع ان ترتدي ثوباً من تلك الثياب.. وتشاهد ابنة سيدها تصبغ وجهها بالأبيض وشفتيها بالأحمر وتسكب العطور على شعرها وعلى راحتيها فتتمنى لو انها تستطيع الحصول على حفنة او على قطرة من تلك العطور والعقاقير ..

وتمضي ورده الخادمة في التمنيات . فتتمنى لو ان لها خطيباً مثل خطيب ابنة سيدها ، وتتمنى لو انها تستطيع ان تستقل سيارة خاصة أنيقة فخمة مثل سيارة سيدتها ..

وكثيراً ما كانت ورده الخادمة ، ابنة الرابعة عشرة تدخل الى غرفة سيدتها، عندما تخرج تلك السيدة من غرفتها.. وتقف عند المرآة فتنزع عنها ثيابها الرثة وتقف برهة عارية أمام المرآة القريبة تستعرض جسدها الندي الشباب .. وترتاح كل الارتياح وهي تستعرض ذلك الجسد الفتي الطري العود .

جسدها أشد بياضاً وصفاء ونضارة وأبعد شباباً من جسد سيدتها الدارجة في الاربعين من العمر .. وجسد تلك السيدة

ليس بغريب عنها ، فطالما دخلت مع تلك السيدة الى الحمام لتساعدها في دلك جسدها وفي سكب العطور عليه.. وكانت وردة الخادمة تطيل الوقوف الى المرآة تستعرض جسدها العاري الجميل ثم تهرع الى ثياب سيدتها ترتديها والى العطور تسكبها على شعرها وعلى راحتيها ، والى المساحيق تصبغ بها وجنتيها وعنقها وجبينها ومقلتيها وشفتيها .

ولم تعد ورده نصار ترضى من دنياها بلقمة الخبز وبالثوب وبالوسادة بل هي اصبحت تطلب من الحياة اكثر من هذه الاشياء .. هي تريد ان تتمتع بهذه الحياة كما تتمتع بها أي فتاة مثلها ، تريد ان ترتدي الثياب الثمينة ، وأن تتحلى بالحلى والجواهر وأن تظهر جمالها الفاتن الريان ..

وبدأت الخادمة ورده تتبرم بحياتها ، انها تتعب وتشقى دون ان تتقاضى ليرة واحدة . فقد حرمها خالها من رؤية المال ومن لمسه .. ونقمت ورده على خالها شديد النقمة وراحت تفكر بوسيلة تمكنها من الحصول على اجرتها . هي تريد ان تتقاضى اجرتها وان تشتري بها ما تحتاج اليه من ثياب وأغراض .. واستغرقت الخادمة الجميلة في التفكير : كيف ستتوصل الى الاستيلاء على مرتبها او على بعضه ؟ كيف تستطيع ان تتعرف الى الليرة وان تقبض عليها وان تشتري بها الثياب والعطور والمساحيق ؟ كيف ؟ ليست تدري كيف ..

وبعد تفكير طويل ارتأت ان تطلب من خالها اقتسام مرتبها بينه وبينها ، ستطلب اليه ان يجود عليها كل شهر بنصف مرتبها-خمس وعشرون ليرة لها وخمس وعشرون ليرة له ولكن .. ولكن هل سيتزل الخال العزيز عند طلبها ؟ هل هو سيتنازل لها عن الخمس والعشرين ليره لبنانية ؟ ستجرب حظها معه ، هي لن تخسر شيئاً . ما عليها إلا ان تطلب وله ان يرفض الطلب أو ان يوافق عليه .. وأقامت ترقب مطلع الشهر القادم ، في مطلع الشهر سيحضر خالها ليتقاضى الليرات الخمسين وستثب اليه وترجوه ان يجود اليها بالخمس والعشرين ليرة المرجوة ..

ولم يطل انتظارها . ايام قليلة واطل اول الشهر ، واطل معه الخال الكريم .. ووثبت وردة الى خالها تقول بخجل وحياء : « خالي الحبيب !. انني بحاجة الى خمس وعشرين ليرة لبنانية ».ودهش الخال.وتقدم من ابنة اخته ليقول بحزم وعزم وايجاز . « لماذا ؟. »

وتمتمت وردة : « اريد ان اشتري بها ثياباً يا خالي ».وقال الخال العزيز : « انت لست مجبرة على شراء الثياب . ان اسيادك هم الذين يبتاعون لك الثياب يا وردة . هذا هو الشرط بيني وبينهم ».قالت : « ولكنني بحاجة الى هذا المبلغ الضئيل يا خالي ».وتمتم الخال : « يا وردة يا ابنتي . انت تعلمين انني مرهق متعب . تعلمين ان نفقاتي تزيد على

ايرادي . وانا اكاد لا استطيع القيام بالعبء الثقيل . ان اسرتي مؤلفة من سبعة اشخاص . انا وامرأة خالك واولادنا الخمسة . وما اجمعه كل شهر بعرق الجبين لا يزيد على مبلغ مئتي ليرة لبنانية يكاد لا يكفي ثمن خبز للاسرة ».فهمست وردة : «ولكن هل يتحتم عليّ انا ان اعيل اسرتك يا خالي» فوجم الخال . هذا التمرد لم يلمسه من قبل في ابنة اخته . هو لن يسمح لها بالتمرد والعصيان .

لا . على وردة ان تطيع الاوامر السامية ، وان تنزل عند طاعة الخال العزيز العمياء . وتمتم : « اسمعي يا وردة . انت لست مجبرة على اعالة اسرتي . هذا صحيح . ولكن انا لي بذمتك مبلغ من المال . ولي في عنقك جميل يجب ان ترديه اليّ . المبلغ هو ما انفقته على تعليمك . هل نسيت انني عهدت بك الى مدرسة القرية وانني كنت انفق على تعليمك وتثقيفك؟ اما الجميل، فهو ذلك الاهتمام وتلك العناية بك منذ ان توفي والدك حتى الآن. هل تستطيعين ان تنكري كل ذلك ؟ » .

وصمتت وردة . كل ما يقول خالها صحيح . هي لا تستطيع ان تنكر ذلك ، خالها انفق على تعليمها . فهي قد اقامت في معهد القرية اربع سنوات واستطاعت خلال السنوات الاربع ان تجيد القراءة والكتابة . ولكن وردة جهلت ان خالها لم ينفق على تعليمها ليرة واحدة ، فمدرسة

القرية مدرسة رسمية، والدولة هي التي ترعاها وتنفق عليها..

وهي، لا تستطيع ان تنكر ان خالها آواها في داره بعد موت والديها.. فهل يجوز لها ان تقابل جميلة بالتمرد والعصيان ؟. لا. هذا ما لا يجوز.

وطال الصمت بينهما، فلا وردة تكلمت ولا خالها.. وراح الخال يراقب ابنة اخته بطرف خفي دون ان ينبس بحرف.. يا لها من فتاة متمردة عقوق تتجرأ على مطالبته بالمال. هل يخيل اليها انه سيجود عليها بالمال اكراماً لعينيها السوداوين ؟ والتفت الخال الى وردة ليقول: «اسمعي يا وردة. انت الآن في الرابعة عشر من عمرك. ستظلين تحت رعايتي حتى الثامنة عشر. بعد اربع سنوات تستطيعين ان تتصرفي كما يطيب لك ويحلو. ومن الآن حتى انقضاء السنوات الاربع ستظلين تحت رعايتي وعليك ان تنزلي عند ارادتي وتتقيدي بشيئتي»..

ومضت وردة نصار في صمتها الموجع البارد الكئيب. خالها على حق، فلماذا تحاول التهرب من الحق، والحق سلطان فوق الجميع...

وانصرف الخال عنها، ليثب الى سيدها قائلاً: «يلوح لي يا سيدي ان هناك من يحاول انتزاع ابنة اختي مني، كما يلوح لي ان هناك من يحاول ابعادها عن هذه الدار العامرة ليلحقها

بخدمة دار اخرى.لذلك فأنا أرجوكم أن تشددوا الرقابة عليها لئلا نفقدها معاً » .

ووجم صاحب الدار ، الثري الغني .. ان أزمة الخادمات شديدة خانقة .. اذا تركت وردة الخدمة في دارهم فهم لن يستطيعوا الوقوع على خادمة غيرها .. ونقد الوجيه الثري خال وردة اجرة ابنة اخته وتمتم :

– اطمئن . اطمئن . سنكون عيناً ساهرة عليها ..

واطمأن الخال الكريم وعاد ادراجه الى القرية ويده قابضة على الليرات الخمسين ...

وراح اسياد وردة يراقبونها مراقبة شديدة . فهم يخشون ان يخسروا خادمتهم ، واذا خسروها لن يستطيعوا الوقوع على خادمة غيرها .

وشعرت وردة بالمراقبة الشديدة المفروضة عليها فتبرمت وتأففت ، وعزمت على التخلص من تلك المراقبة . ولكن كيف؟ كيف ستستطيع تحطيم القيود وخرق الحصار المفروض حولها ؟

واستغرقت وردة نصار في التفكير دون ان تستطيع الوصول الى حل .. فهي تريد ان ترفع سلطة خالها عنها .. تريد ان تتحرر من العبودية ، تريد ان تكون سيدة نفسها ،

تريـد ان تتقاضى مرتبها بنفسها وان تنفقه بنفسها كما تشتهي وتريد ، ولكن ، ولكن كيف الوصول الى كل هذا ؟ ليست تدري كيف ... ولم تستطع الخادمة وردة نصار ان تصل الى حل لمعضلتها ، وحزنت وردة ، وتبرمت من تلك الحياة التي تحياهـا . فهي تتعب وتشقى دون ان تستطيع الحصول على ليرة واحدة تشتري بها ثوباً او حذاء .

وذات يوم فيما وردة الخادمة تخرج من منزل اسيادها لشراء بعض السلع والخضـار من « الدكان » المجاور التقت بزميلتهـا وصديقتها الخادمة لبيبة . ولبيبة الخادمة فتاة في السابعة او الثـامنة عشر من العمر تقوم على خدمـة اسرة تقيم في دار مجاورة لدار اسياد وردة . والخادمتان، وردة ولبيبة صديقتان حميمتان..شرفة المطبخ الذي تعمل فيه وردة تطل على شرفة المطبخ الذي تعمل فيه لبيبة ، ومن الشرفتين تم التعارف بين لبيبة ووردة ، وتأصلت عرى المودة والصداقة بينهما، وكانت كل من الخادمتين الصبيتين تشكو لزميلتها همومهـا ومصائبها وتستشيرها في اعمالها، إلا أن وردة انقطعت عن التحدث الى زميلتها لبيبة بعد ان طلب خالها الى اسيادها مراقبتها .

وأوصدت ربة الدار شرفة المطبخ امام وردة ومنعتها من الخروج الى تلك الشرفة ، وقلق خاطر لبيبـة كل القلق على زميلتها وردة نصار ، وهي تشاهد باب الشرفة مقفلاً ابداً ، ولذلك مـا أن شاهدتها تدلف الى الدكان ذلـك الصباح حتى

لحقت بها لتمسك بيدها هامسة :

« وردة !.. ما بك يا اختي ؟ لماذا انقطعت عن الخروج إلى الشرفة ؟ انني أرى باب المطبخ المطل على الشرفة مقفلا ابداً . ماذا دهاك يا وردة ؟ لقد اقلقت خاطري وأثرت هواجسي يا اختي » .

وهمست وردة : « هس ... تعالي .. تعالي نقف هناك في ذلك المنعطف لئلا تقع عين اسيادي علينا. تعالي . تعالي».

وسارا الى هناك، الى آخر المنعطف. وهناك وقفت وردة تشكو لصديقتها لبيبة مصابها . قالت :

« لقد فرض اسيادي عليّ مراقبة شديدة يا لبيبة .. يبدو ان خالي طلب اليهم مراقبتي . فهم لا يسمحون لي بالخروج الى الشرفات . واذا اضطروا الى ايفادي لشراء بعض الاغراض حددوا لي موعد الذهاب والاياب . الآن لدي عشر دقائق فقط لشراء السلع والخضار والعودة بها اليهم ، والويل كل الويل لي اذا تأخرت في العودة دقيقة واحدة » قالت لبيبة : « ولكن لماذا يفرضون عليك هذه المراقبة ؟ » قالت : « قلت لك ان خالي طلب اليهم ذلك » قالت : « ولماذا يطلب اليهم خالك مراقبتك والتشديد عليك ؟ » .

فروت وردة للصديقة العزيزة تفاصيل مأساتها قالت :

« ان خـــالي يتقاضى مرتبي بكامله . طلبت منه ان يجود عليّ بخمس وعشرين ليرة لبنانية فرفض. ويبدو انه لمس بي التمرد والعصيان فخشي ان اهرب منـــه ، وطلب الى اسيادي السهر وفرض المراقبة الشديدة عليّ ليحول بيني وبين الهرب » .

فأسفت لبيبة وتمتمت: « اذن انت تتعبي دون ان تتقاضي اجرة اتعابك ؟ ».قالت وردة : « هذه هي الحقيقة الناصعة الجبين يا لبيبة ».وتمتمت لبيبة بأسف وأسى : « لمــاذا تعملين وتشقين وتتعبين اذن ؟ ».فقلبت وردة نصار شفتيها وهزت كتفيها.وهمست : « لست ادري » .. وتمتمت الخادمة لبيبة: « مجنونة. انا لو كنت مكانك لما عملت دقيقة واحدة ».قالت وردة : « ومــاذا كنت تفعلين ؟ » قالت : « كنت اهرب وابحث عن عمل في غير هذه الدار » .

فابــدت وردة نصار الاسف الشديد ..قالت : « واين سأجد العمل ، وانا لا اعرف احداً هنا في بيروت ؟ ».فعادت لبيبة تمسك بيد صديقتها وردة لتقول : « هـــل تريدين ان اساعـــدك ؟ ».قالت : « يا ليت يا لبيبة ».وتمتمت لبيبة : « اسمعي يا وردة ان ابا مسعود وحده يستطيع مساعدتك . انا سأتحدث اليه بامرك غداً ».فسألت وردة : « ومن هو ابو مسعود هــذا ؟ ».قالت : « ابو مسعود هو صاحب مكتب الاستخدام . هو يتكفل بايجاد عمـــل محترم لك في دار احد الوجهاء . ان ابا مسعود هو الذي ارشدني الى دار اسيادي .

كنت اعمـــل في دار نائب سابق في محلة راس بيروت بمرتب قدره خمسون ليرة لبنانية فاتصل بي ابو مسعود وقال: «هناك اسرة تدفع لك ستين ليرة لبنانيــــة . هل توافقين على العمل عندها ؟

ووافقت فوراً ، وتركت العمل في دار النـائب السابق واقتادني ابو مسعود الى هنا . ومن يدري يا وردة. قد يتصل بي ابو مسعود غداً ويقول لي : « هناك اسرة تدفع لك سبعين ليرة لبنانية » ... وأترك العمل حيث اعمل الآن وأنتقل الى دار الاسرة الجديد .

ان ابا مسعود يتقاضى عمولة من طالبي الخادمات. ثم يعود الى انتزاعهن من تلك الدور لينقلهن الى دور اخرى . المهم لدى ابي مسعود هو ان يتقاضى العمولة .

أنا سأطلب منه غداً ان يبحث لك عن عمل . فكوني على استعداد للهرب من دار اسيادك ومرافقة ابي مسعود الى عملك الجديد » ..

ووجمت وردة نصار . وهمست :

« ولكن هل استطيع الهرب ؟ »

قالت لبيبة :

« ولماذا لا تستطيعين ؟..ما عليك إلا ان تخرجي من دار أسيادك الى الشارع العام حتى يتم لك ما تريدين » ..

وصمتت وردة وقـد احتارت في امرها . مـاذا عليها ان تفعل ؟ هل توافق على اقتراح صديقتها لبيبـة ، ام لا ؟ . ليست تدري ..

وعادت الخادمة لبيبة الى الكلام لتقول : « انت تخرجين كل يوم من دار اسيادك في مثل هـذه الساعـة لشراء اللحم والسلع والخضار أليس كذلك ؟

قالت وردة : اجل .. » قالت: « سأكون اذن بانتظارك هنا في مثل هذه الساعة من صباح غـد ».فتمتمت وردة وهي تهم بالمسير : « وسأوافيك في الموعـد المضروب ، الى اللقـاء يا لبيبة ».وتمتمت الخادمة لبيبة : « الى اللقـاء اذن غداً في مثل هذه الساعة هنا يا وردة » ..

وأسرعت وردة بالذهاب. فهي تريـد ان تشتري السلع واللحم والخضار وتعود الى دار أسيادها قبل انقضاء الدقائق العشر لئلا تتعرض لغضب سيدتها ونقمتها ..

ولم تسلم وردة الخادمـه من غضب تلك السيدة ، ولا هي نجت من نقمتها وقـد عادت الى الدار متأخرة عشر دقائق . لقد منحتها سيدتها عشر دقائق للذهاب وللاياب إلا انها لم تعد إلا وقد انقضت عشرون دقيقة . ووثبت سيدتها اليها تؤنبها وتوبخها وتشتمها وتسبها: « لماذا تأخرت في العودة يا مقصوفة العمر ؟ هل استطيع ان اعلم لماذا » ؟

ودافعت « مقصوفة العمر » عن نفسها مدعية ان الازدحام شديد في الملحمة ، وان البقال تأخر في اعداد السلع لها ، إلا ان السيدة المصون لم تقتنع، ومضت في الشتم والمسبة: «قصف الله عمرك ايتها الملعونة، والله لأسحقن رأسك اذا اعدت الكرة مرة ثانية ». وأقسمت الخادمة وردة وحلفت انها لن تعيدها مرة ثانية . وآمنت السيدة المصون بالتوبة الصالحة تعلنها خادمتها بكل حرارة وإيمان ..

وانصرفت وردة الى عملها وهي شاردة الذهن تائهة الفكر قلقة البال .. ومضت في التفكير بكلام رفيقتها لبيبة : « هل تنزل عند رأي لبيبة، فتهرب من دار اسيادها وتصبح حرة ، طليقة الجناح ، تتقاضى مرتبها وتنفقه كما يطيب لها ويحلو؟ لا . لا . هي لا تريد ان تخرج عن طاعة خالها ولا تريد ان تغضب سيدها وسيدتها. ولكن ، ولكن ان هي لم تنزل عند رأي لبيبة ، اذا لم تهرب فهي ستظل العمر كله تحت رحمة خالها وتظل ترفل بهذا الثوب الرث الممزق ، وتظل تنتعل هذا الحذاء البالي القديم .. اذن ، اذن ماذا ؟.. اذن يجب ان تهرب من دار أسيادها وتسلم زمام امرها الى ابي مسعود وتتكل على الله ..

وعزمت وردة نصار على تنفيذ الخطة الموفقة، التي رسمتها لها زميلتها لبيبة، إلا ان الخشية ظلت تعصف بها وظل الخوف من العاقبة يغمر قلبها الصغير ، وظلت مترددة في التنفيذ .

وانقضى النهار والخادمة وردة منصرفة الى التفكير بقلق وخوف واضطراب .. وعندما حـان موعد النوم ، في ساعة متأخرة من الليل ، بعد أن انهت كل اعمالها ، آوت الى فراشها ، ولكن لا لتنام ، بل لتمضي في تفكيرها . وكانت قلقة الخاطر مضطربة البال . لا تستقر على حـال ولا تقف عند قرار ، فهي تقرر ان تنفذ الخطة المرسومة وتهرب من دار اسيادها ، ثم لا تلبث ان تعود عن قرارها ..

ومضى الشطر الاول من الليل،والخادمة وردة ساهرة في فراشها تتقلب على شوك وابر.وتفكر .. ولم تستطع الخادمة البائسة ان تستسلم لسلطان الكرى إلا والفجر البعيد قد قارب البزوغ . ونامت وردة، وظل القلق يطاردها ، وظلت الهواجس تقض مضجعها حتى وهي مستسلمة للكرى، فدهمتها الاحلام المقلقة الرهيبة المخيفة ولم تستطع أن تشعر بلذة النوم.

واستفاقت في ساعة مبكرة من الصباح على صوت « معلمتها » تدعوها كعادتها للنهوض الى العمل ، ونهضت على تعب وعياء وعناء.وبدأت العمل .. وعادت الافكار الممضة المقلقة تعذبها، وعادت الحيرة تعصف بها...وعادت الى التساؤل : ماذا عليّ أن افعل ؟ هل انزل عند رأي لبيبة ام لا ؟. ولم تستطع أن تجد جواباً لهذا السؤال.لم تستطع أن تجيب بأجل ، ولا هي استطاعت أن تجيب بلا ..

وحان موعد شراء السلع واللحم والخضار فنادتها سيدتها

اليها لتقول : « خذي يا وردة . هـذه عشر ليرات لبنانية . اشتري بها كيلو من اللحم الهبر ، وكيلو من اللوبيا وكيلو من التفاح ، ولا تنسي ما تحتاجين اليه من « التايد » والصابون . امامك عشر دقائق . عشر دقائق فقط تذهبين خلالهـا وتعودين الى هنا والويل كل الويل لك اذا تأخرت في العودة كما فعلت امس » ..

وتناولت الخادمة وردة الورقة النقدية من يـد سيدتها واسرعت بالخروج من الدار .. وتساءلت ، وقد اصبحت في الشارع العام : « هـل اشخص الى المنعطف وأوافي لبيبة الى الموعد المضروب ؟. لا.. لا ، لن اذهب الى لبيبة ، سأشتري الاغراض وأعود توا الى الدار قبل انقضاء الدقائق العشر .. ولكن .. ولكن لبيبة تنتظرني هناك . هل يجوز أن اخلف موعدي معها ؟ لا، لا، هذا ما لا يجوز ، انا سأشخص اليها.. وترددت وردة . ترددت في الذهـاب الى لبيبة وترددت في الذهاب الى الدكان .. ولم تستطع أن تتخذ قراراً حازماً فوقفت على حيرة وقلق ووجوم ..

واذا بصوت لبيبة يرن في اذنيها : « وردة !.. تعالي » .. ورأت وردة نصار نفسها تسير منقـادة الى لبيبة دون أن تنبس بحرف .. ووصلتا معاً الى المنعطف.ووقفت لبيبة تقول لصديقتها : « لك البشرى يا اختي لقد تم كل شيء بسرعة لم نكن ننتظرها ».قالت وردة بتساؤل ملحاح : « مـاذا

جرى ؟. »،قالت : « لقـــد قابلت ابا مسعود واطلعته على قصتك وطلبت اليه أن يجد لـــك عملاً في اي دار ، اتعلمين ماذا كان جوابه ؟ » .

قالت وردة : « ماذا كان جوابـه ؟ » قالت : « كان جوابه . احضريها اليّ الآن حـــالاً وانا سأتكفل امرها » فوجمت وردة . هذا مـــا لم تكن تنتظره . لم تكن الخادمة وردة تنتظر أن يتم تنفيذ الخطة المرسومة بهذه السرعة . هي لم تحدد موقفها بعد ، لم تتخذ قرارها النهائي ..

وعـادت لبيبة الى الكلام لتقول : « ستذهبين معي الآن اليه . انـــه في انتظارنا ».واشتد الوجوم بالخادمة وردة ، وهمست بدهشة واستغراب : « الآن ؟.. الآن في هـــذه الساعة ؟. » .. وهمست لبيبة : « اجل الآن ، الآن في هذه الساعة ، بل في هذه الدقيقة . ابو مسعود يقيم منا على انتظار تعالي تعالي يا وردة » .. وترددت وردة في اجابـة لبيبة الى طلبها.وهمست : « لا. لا يا لبيبة ، انا لا استطيع ان اذهب معك الآن . دعي ذلـــك الى فرصة اخرى ، دعيني افكر بالامر .

فامسكت لبيبة بيد صديقتها لتقول: « وهل يحتاج الامر الى تفكير ؟ تعالي ، لا تضيعي الفرصة يا وردة ، والفرصة لا تسنح كل آن وحين . ان ابا مسعود ينتظرنا الآن في مكتبه . تعالي ، تعالي ».قالت وردة بقلق وارتبـاك : « ولكن يجب

أن احضر ثيابي على الاقل ». فضحكت لبيبة. وهمست: « وما هي ثيابك؟ وماذا تملكين من الثياب ؟.. انها ثياب رثة ممزقة قديمة العهد . اسيادك الجدد سيبتاعون لك من الثياب أفضلها وأحدثها . تعالي . اسرعي يا وردة . هنـاك سيارة في آخر الشارع تنتظرنا لتقلنا الى مكتب ابي مسعود ». قالت وردة : « ولكن يجب أن ابتاع الاغراض لسيدتي قبـل أن اركن للفرار » فابتسمت الابتسامة على شفتي الخادمة لبيبة . وتمتمت « هل يخيل اليك ان سيدتك وسيدك وأولادهما سيموتون من الجوع اذا لم تبتاعي لهم الخضار واللحوم ؟.. تعالي. تعالي ».

وأبت وردة أن تنزل عند طلب زميلتها لبيبة. وهمست : ولكن سيدتي اعطتني عشر ليرات لأبتاع لها الاغراض ، هل استولي على الورقـة النقدية وأهرب بهـا كاللصوص المجرمين ؟ لا ، لا يا لبيبة ، هذا ما لا تقدم عليه وردة نصار ». فتمتمت لبيبة : « تعالي معي ولا تكوني جبانة . انت لـــك بذمة اسيادك اكثر من عشر ليرات لبنانية . تعالي » .

وأصرت وردة نصار على موقفهـا ، هي لن تستولي على الورقة النقدية . ستشتري الاغراض وترسلها الى دار اسيادها مع خادم الدكان ثم تسير مع لبيبة الى ابي مسعود ..

والتفتت وردة الى زميلتها العزيزة لتقول : « تعالي انت معي يا لبيبة سأشتري الاغراض لسيدتي ، واطلب الى صاحب الدكان أن يرسلها مع خادمه الى سيدتي » .

ونزلت لبيبة عند طلب وردة.وسارت برفقتها الى الدكان. وهنـاك اشترت وردة اللحم والخضار والاغراض التي طلبتها سيدتها ، ودفعت ثمنهـا تسع ليرات ونصف الليرة . وقالت لصاحب الدكان : « ارجو أن ترسل هذه الاغراض مع نصف الليرة التي بقيت من الليرات العشر الى سيدتي » .

ونادى صاحب الدكان خادمه اليه : تعال يا ولد .. خـذ هذه الاغراض وهـــذه القطعة النقدية ، نصف ليرة الى دار البيك ..

وأخـذ الولد الاغراض والقطعة النقدية الى دار البيك .. ووقف امام الباب يقرعه.. واقبلت زوجة البيك تفتح الباب بنفسها . « مقصوفة العمر » ليست في الدار ، لقـد ارسلتها لشراء الاغراض منذ نصف ساعة ، وللآن لم تحضر بعد. عليها أن تفتح البـاب بنفسها للزائر الكريم .. وفتحت السيدة البـاب . وصعقت وهي تشاهد الخادم يحمل لهـا الاغراض ، وينقدها نصف الليرة.ويقول : هـذه هي الاغراض يا سيدتي وهذا ما بقي من الدراهم » .

وسألته عقيلة البيك: « اين هي مقصوفة العمر ؟ » وقلب الخادم شفتيه ، وهز كتفيه.وتمتم: « لست ادري يا سيدتي ». وزأرت السيدة : « سأقصف عمرها عندما تعود » .. قالت هـــذا وتناولت الاغراض من الولد وابقت له القطعة النقدية ودخلت الى المطبخ والغضب الشديد يعصف بها ويهزها هزاً .

وأقامت السيدة ترقب عودة وردة ، إلا ان وردة لم تعد. فقلقت السيدة الكريمة كل القلق ، وأسرعت الى زوجها تطلعه على النبأ-قالت : « مقصوفة العمر هربت . يجب ان نعلم رجال الشرطة بالأمر » ..

ووثب البيك الى رجال الشرطة طالباً اليهم البحث عن الخادمة الضائعة ، وأرسل في طلب خالها ليطلعه على نبأ اختفاء ابنة اخته.وضرب الخال كفاً على كف.وزعق : « لقد ضاعت وردة مني » .. ولم يأسف الخال الكريم لضياع ابنة اخته ، ولا هو قلق عليها . لقد اسف لضياع الخمسين ليرة لبنانية عليه في مطلع كل شهر ..

وانطلق رجال الشرطة باحثين عن وردة نصار إلا انهم لم يوفقوا في بحثهم .. لقد ضاع للفتاة كل أثر ، وردة نصار اختفت بين الارض والسماء. لقد ذابت كما يذوب الملح في الماء .

٦

وردة الهاربة

طافت هـــذه الذكريات في رأس محـاسن نصار ، وهي مستلقية على سريرها في دارها الفخمة في شارع الحمراء فمصف الألم والشوق والحنين بها .

هذه الذكريات الافلة تؤلمها وتقض مضجعها ، ايام الفاقـة والبؤس والشقاء التي مرت بها لا تزال ماثلة أمـام عينيها . كم تعذبت ، وكم شقت وكم تـألمت في حياتها ، كم سكبت من الدموع وكم ذاقت من الآلام والهموم ؟

وكان قد خيل اليها ان ايام البؤس والعذاب والشقاء قـد توارت عنها ، بعد ان تدفق المال بين يديها على غزارة واقبال فاذا بها تكتشف الآن انها مـــا زالت في اول الطريق وان امامها طريقاً بعيداً من العذاب والآلام والدموع .

هذا الحب الذي غمر قلبها . حب حبيب مرزوق ، اذلها وأرهقها وأثخن قلبهـا بالجراح وغمر عينيها بالدموع . لقـد اوهمت حبيباً انها ابنـة رجل غني محترم فماذا عساه يفعل اذا

علم انها كانت خادمة، وأنها تأكل اليوم خبزها مغموساً بدموع عينيها ؟..

وأشعلت محاسن نصار لفافة راحت تنفث دخانها على مهل. وتصاعد دخان اللفافة كأنه اجنحة تخفق في الفضاء. وعادت الذكريات تنساب مع اجنحة الدخان امـــام عيني محاسن فتذكرت .. تذكرت كيف استقلت، ذلك اليوم الذي هربت فيه من دار اسيادها ، السيارة مع رفيقتها لبيبة وهي خائفة مضطربة وجلة ..

وانطلقت السيارة بها في شوارع بيروت تسابق الريح ، وتوقفت بعد مسير زهاء عشر دقائق امام دكان كتب على بابه : « مكتب ابو مسعود للاستخدام » ..

وترجلت لبيبة من السيارة ، وترجلت وراءها وردة .. وأمسكت لبيبة الخادمة بيد صديقتها ودخلت بها الى «مكتب ابي مسعود » ووقف أبو مسعود يرحب بهما شديد الترحيب . ووضع نظارتيه على عينيه وراح يحدق بالفتـــاة ، بوردة ، على دهشة وإعجاب . انها رائعة الحسن فاتنة الجمال ..

وتقدمت لبيبة من ابي مسعود تقول : هذه هي الفتاة التي حدثتك عنها يا ابا مسعود » .. والتفت ابو مسعود الى وردة ليقول : « ما هو اسمك يا ابنتي ؟ » وتمتمت : « وردة ... ورده نصار » قال : « كم مضى عليك من السنين في الخدمة ؟»

وتمتمت : « ثلاث سنين ».قال : « هل تتقنين جميع اعمال الخدمة ؟ ».وأجابت : « اجل » وسألها : « كم كنت تتقاضين في دار اسيادك ؟ ».وتمتمت : « كنت اتقاضى خمسين ليرة»..

وفتح ابو مسعود سجل الزبائن الكرام.وقال : « هناك سيدة محترمة طلبت اليّ ان اجد لها خادمة في مثل عمرك يا ابنتي . ستكون اجرتك لديها في الشهر الاول ستين ليرة لبنانية . وإذا ارتاحت الى عملك والى امانتك والى اخلاصك في خدمتها رفعت لك المبلغ الى السبعين . هل توافقين ؟ »

وتولت لبيبة الجواب. قالت : « اجل توافق » فنهض ابو مسعود ليقول : تعالي معي . سأوصلك بنفسي اليها . وستكونين مرتاحة كل الارتياح في عملك لديها » .. وودعت لبيبة صديقتها المخلصة وردة ، وعادت ادراجها . مهمة لبيبة انتهت عند عتبة مكتب ابي مسعود .

واستقل ابو مسعود ووردة سيارة تاكسي . وهمس ابو مسعود في اذن السائق : « الى محلة الروشة » ..

وطارت السيارة بهما الى محلة الروشة . وهناك امام بناية فخمة شاهقة عالية الأجنحة اشار ابو مسعود الى السائق بالوقوف.. وأوقف السائق سيارته. ونقده ابو مسعود الاجرة وترجل من السيارة ، وترجلت أيضاً «وردة » وأمسك ابو مسعود بيد الخادمة الحسناء متمتماً : « تعالي معي يا ابنتي .

هنا في الطابق السادس من هـــذه البنـاية الفخمة ستعملين يا وردة . »

ولم تنبس وردة نصار بحرف ، بل هي سارت قرب ابي مسعود وفي رأسها يدور ألف فكر وفكر ، وألف خيــال وخيال .

ودخل ابو مسعود بالفتاة الى تلك البناية الفخمة ، وصعد بها في المصعد إلى الطابق السادس ، ووقف امام البــاب يقرع الجرس .. وفتح الباب ، وأطلت منه امرأة في العقد الثالث او في مطلع العقد الرابع من العمر ، في زهاء الثلاثين، رائعة الجمال ترتدي ثوباً شفافاً ، وتلقي بلفافة فاخرة بين شفتيها ، وابتسمت المرأة الحسناء لأبي مسعود .وهمست : « اهلا بأبي مسعود »تمتم ابو مسعود: « هذه هي الخادمة التي طلبتها مني يا ست ابتسام » ..

وانسمت الابتسامــة على شفتي الست ابتسام وهي تشاهد وردة ذات الوجــه الابيض والشعر الاسود والعينين النجلاوين والقد الاهيف الرشيق ..

ورحبت الحسناء الفاتنــة بأبي مسعود شديد الترحيب .. والتفتت الى الخادمة لتقول : « ما هو اسمك يا شاطرة ؟ » وهمست ورده · « اسمي وردة » وتمتمت ابتسام : « وأنت وردة . اسم على مسمى.تعالى . تعالى يا ابنتي . انت ستحلين

في هذه الدار على الرحب والسعة . وستتولين مهـام داري . ليس في هذه الدار سواي . كل ما اطلب منك هو ان تكوني مخلصة لعملك امينة لسيدتك » .

ودخلت وردة . ووقفت على دهشة واستغراب وهـي تشاهد الرياش الفاخرة والتحف والاواني الفضية والبلورية في تلك الدار ، وادركت انها حيال امرأة وافرة الثراء فارتاحت بعض الارتياح ..

وأمسكت « الست » ابتسام بيد ابي مسعود ودخلت به الى غرفتها لتنقده ورقـة نقدية اجرة اتعابه . وهمست : « اكثر الله خيرك يا ابا مسعود » .

وشكر ابو مسعود للست ابتسام سخاءها الرحيب وقفل عائداً ادراجه الى مكتبه العامر الرحيب .

٧

خبز ودمع

وانسابت الذكريات على ألم وحنين في رأس محاسن نصار وهي مستلقية على سريرهـا الوثير في دارها في شارع الحمراء فتذكرت .. تذكرت كيف بدأت تعمل في دار ابتسام ، وكيف كانت ابتسام تغدق عليهـا العطف والحب والحنان والمـال ايضاً .. تذكرت كيف سلمتها ابتسام ادارة دارها الانيقة فأصبحت الآمرة الناهية في تلك الدار الفخمة البنيان الوثيرة الرياش . ولم تكن لتقيم طويلاً في دارها . فهي تحضر الى تلك الدار في ساعة متأخرة من الليل ، في الثالثـة او في الرابعة من الفجر.وتنام .. تنام لتنهض عند الظهر . ويكون اصدقاؤها قد حضروا لزيارتهـا فتجلس وإياهم في الصالون تسايرهم وتمازحهم وتتودد اليهم ، ثم ، ثم تخرج وإياهم لتناول طعام الغـداء معهم في مطعم او في ناد او في فندق فخم رحيب .

ولا تعود الى الدار الا والليل قد سار خطواته الاولى في

طريق الظلام . تعود ابتسام لترتدي ثياب السهرة وتخرج من الدار ..

ولم تكن وردة تعلم لماذا تسهر ابتسام خارج دارها . ولم تكن لتعلم لماذا تجمع حولها كل اولئك المعجبين والاصدقاء . ولم تكن الخادمة الجميلة لتسأل سيدتها اي سؤال بل هي كانت تنصرف الى عملها بكل همة ونشاط وأمانة واخلاص. يكفيها من سيدتها العطف والحنان والكرم والسخاء . ولم تحاول وردة ان تصل الى اسرار سيدتها ولا ان تقف على خفاياها .

الا ان الأقدار كشفت لها اسرار تلك السيدة . فقد شاهدت صورتها ذات يوم في مجلة فنية .

كانت وردة تنظف غرفة سيدتها فشاهدت مجلة ملقاة قرب السرير ، وتناولتها ، وراحت تتصفحها ، ووقعت عيناها على صورة راقصة نصف عارية ، وصعقت وقد عرفت في وجه تلك الراقصة وجه سيدتها ابتسام .. وقرأت الاسم : « الراقصة الفاتنة ابتسام » ... اذن .. اذن ماذا ؟ اذن سيدتها راقصة .

الآن ، الآن فقط علمت وردة لما تحشد الست ابتسام حولها كل اولئك الاصدقاء والمعجبين ، والآن ، الآن علمت وردة كيف تتدفق كل تلك الأموال على « الست » ابتسام .. ان سيدتها راقصة تعرض جسدها العاري على المسارح ليلتهمه المعجبون

النهمون بعيونهم الجشعة النهمة الحمراء ..

وشعرت وردة نصار بأن ذلك الاحترام الذي كانت تنظر به الى سيدتها ابتسام قـد تلاشى فجـأة . واحتقرت نفسها وامتهنتها . كيف تجيز لنفسها ان تعمل في دار راقصة متهتكة. لو علم خالها بأمرها ، لو علم انهـا تعمل في تلك الدار لسحق رأسها سحقاً ..

وبدأت الخادمـة وردة تفكر بالابتعـاد عن تلك الدار ، بدأت تفكر بالتخلي عن خدمة الراقصة ابتسام . في هـذه الدار النار، فلتبتعد عن النـار وتأمن شرهـا . ولكن الى اين ستذهب إن هي تركت العمل في دار الراقصة ابتسام ؟ والى من ستلجأ ؟..

وانصرفت وردة الى التفكير: يجب ان تهرب من دار ابتسام كما هربت من دار اسيادها السابقين .. تهرب ؟ ولمـاذا الهرب؟عندما هربت في المرة الأولى هربت من خالها الذي كان يفرض سلطانه عليها ويسلبها مالها. لقد هربت من وراء اسوار السجن الرهيب . اما الآن فلماذا الهرب! ليس لها الا ان تعلن للست ابتسام رغبتها في التخلي عن العمل في دارها حتى تنقدها ابتسام اجرتها وتقول لها : « مع ألف سلامة » ..

وارتاحت الخادمة وردة وقد توصلت الى اتخاذها هـذا القرار الحاسم الجازم ..

ونهضت تحزم ثيابها ، وهي الثياب التي جادت عليها بها الست ابتسام ، وتقيم على انتظار عودة سيدتها . هي لن تخرج من الدار قبل عودة الست ابتسام.لا ، لن تهرب من تلك الدار كاللصوص المجرمين . ستعلن لسيدتها عزمها على التخلي عن خدمتها وتودعها كما تودع الصديقة صديقتها وتتقاضى اجرة الايام القليلة التي عملت خلالها في دارها وتخرج من تلك الدار كما دخلت اليها بكل حرية وسلام واطمئنان ..

ولم يطل انتظارها ساعات قليلة وعادت الراقصة ابتسام بالسلامة ،. واستقبلتها الخادمة وردة بفتور لم تعهده بها من قبل .. ودهشت ابتسام وخادمتها الجميلة تستقبلها على غير عادتها ، بفتور وامتعاض .. ووثبت اليها تسألها : « ما بك يا وردة ؟ ».وهمست وردة الخادمة : « لا شيء يا سيدتي » .

قالت الراقصة الحسناء : « ولكنني اراك ساهمة واجمة مكفهرة الجبين . هل حلت بك مصيبة يا وردة ؟ »

وهمست وردة : « لا ابداً يا سيدتي » .

وتمتمت الراقصة الحسناء : « هل انت متعبة ؟ »

قالت : « ابداً » .

وهمست الراقصة : « ما بك اذن ؟ »

فصمتت وردة .. وانصرفت الى التفكير .. هل تقول لها

ما بهـا ؟ هل تعلن لسيدتها عزمها على التخلي عن خدمتهـا ؟ لا .. لا . هي لن تجرؤ على مصارحة الست ابتسام بالحقيقـة الساطعة الراهنة .

وطال صمت الخادمة وردة ، وطال تفكيرها ، فتقدمت الراقصة ابتسام منهـا تمسك بيدها قائلة : قولي لي مـا بك يا وردة ؟ لا تخافي يا ابنتي . افسحي لي عما يجول في خاطرك قد استطيع ان اساعدك يا وردة

ولم تفسح وردة الخادمة عما يجول في خاطرها .. لم تنبس بحرف .. بل مضت في صمتهـــا العميق وفي تفكيرها البعيد القرار ..

وعـادت الراقصة الحسناء الى الكلام لتقول : اسمعي يا وردة . انت قريبة إليّ يا ابنتي . انني احبك كما تحب الأم ابنتهـا بالرغم من الايام القليلة التي قضيتها في داري .. لقـد لمست فيك التهذيب والآداب ونقاوة القلب وصفاء السريرة ، لذلك فان كل مـــا يؤلمك يؤلمني .. قولي لي مـا بك يا ابنتي ولا تخافي

وشجعتهـا على الكلام فتكلمت .. قالت وردة نصـار : انا اريد ان اترك العمل في دارك يا ست ابتسام

فوجمت الراقصة ابتسام وكلام خادمتها يقع في أذنيهـا ،

وتمتمت باستفهام ، وكأنها لا تصدق ما تسمع : تريدين ان تتركي العمل في داري ؟

فهمست الخادمة مؤيدة كلامها : «اجل. اجل يا سيدتي».

قالت الراقصة: « لماذا ؟ هل استطيع ان اعلم لماذا تريدين ان تتركي العمل في داري يا وردة ؟ »

فعادت وردة نصار الى الصمت تعتصم به ، وعادت الست ابتسام الى محاولة انتزاع السر من صدر خادمتها . قالت : « قولي لي ما هو السبب يا ابنتي .. لماذا تريدين ان تتخلي عن العمل في داري .. قولي لا تخافي يا وردة » .

وكانت المجلة الفنية التي تحمل صورة الراقصة ابتسام بين صفحاتها لا تزال ملقاة على المنضدة الصغيرة ، فراحت الخادمة وردة تنظر الى الصورة بوجوم دون ان تنبس بحرف ..

وشاهدت الراقصة ابتسام خادمتها ترمق تلك المجلة بنظرات يسودها القلق ويشيع فيها الاضطراب فتناولت تلك المجلة عن المنضدة .. وشاهدت ابتسام صورتها في بدلة الرقص في تلك المجلة فانكشفت أمامها الحقيقة الناصعة البيضاء .. خادمتها شاهدت تلك الصورة وعلمت ان سيدتها راقصة ، فخافت واضطربت ، وقلقت على مصيرها ، وعزمت على الهرب منها ..

وابتسمت الراقصة ابتسام ، وقد وقفت على الحقيقة . وعادت تمسك بيد الخادمة الخجول لتقول متسائلة : « أتكون هذه الصورة هي التي شدت عزمك على الابتعاد عن هذه الدار يا وردة ؟ »

واشتد الخجل بالخادمة وقد ادركت ان سيدتها وقفت على الحقيقة . ومضت في صمتها ، وترقرقت الدموع في عينيها فراحت تعمل جاهدة على حبس تلك الدموع المتأهبة للانحدار على وجنتيها النديتين ..

وشدت يد الراقصة الحسناء يد خادمتها وتمتمت : « يا ابنتي يا وردة . انت ما زلت صغيرة السن ، ما زلت حديثة العهد في الحياة . يخيل اليك ان سيدتك فاسقة مجرمة شريرة . يخيل اليك ان الست ابتسام تسلب الناس اموالهم وانها تتمرغ في الاقذار وفي الوحول . انت على خطأ يا ابنتي . ليس كل راقصة فاسقة ولا كل من ضلت السبيل مجرمة . كما ان ليس كل زوجة وكل أم شريفة . كم هناك من الراقصات أبعد شرفاً وأعمق طهراً من ربات البيوت . لقد قال الله تعالى لآدم : « بعرق جبينك تأكل خبزك » وآدم ما زال منذ ذلك اليوم يأكل خبزه بعرق جبينه .. ولكن .. ولكن هناك فتيات يأكلن خبزهن بدموع عيونهن ، وسيدتك ابتسام بين هؤلاء النساء . نعم يا ابنتي آكل خبزي بدموع عيني .. هناك خبز ودمع . وعلى المرأة البائسة ان تسكب الدمع لتأكل الخبز.. وها انا ، كما ترين اسكب دموعي واشتري بها خبزي . انا لست امرأة

فاسقة عاهرة مجرمة يا ابنتي . لا يا وردة ، لا . انني اقسم لك انني بعيدة عن الفسق والرذيلة والفجور بعد الارض عن السماء. ألا تصدقين ؟ ما عليك الا ان تختبري ذلك بنفسك . انت ، هنا عندي ، في مأمن من كل شر وخطر . لن يمسك سوء ، وأنت داخل هذه الدار . ثقي انني سأحافظ عليك كما تحافظ الأم على ابنتها . لن اسمح بأن تسقطي في الحفرة التي سقطت فيها سيدتك ابتسام . لا ، لن اسمح بأن تسكبي دمعك ثمناً لخبزك. انت ستأكلين خبزك بعرق جبينك لا بدمع عينيك» .

وكانت الراقصة ابتسام تتكلم في حين كانت الدموع تتساقط من عيني وردة نصار . لقد أثر كلام الست ابتسام بخادمتها بالغ التأثير فعجزت عن حبس دموعها الغزيرة وأخذت تلك الدموع تنهمر بغزارة على وجنتيها ..

واحتضنت يد الراقصة ابتسام يد خادمتها لتقول : « لا تذرفي يا ابنتي هذه الدموع ، وليس ثمة ما يدعو الى ذرفها . سأروي لك قصتي من اولها كي تكون لك عبرة وعظة وتتجنبي الوقوع حيث وقعت انا .. سيدتك ابتسام كانت خادمة مثلك يا وردة » ..

فدهشت الخادمة وردة وسيدتها تعلن انها كانت خادمة مثلها . هل يمكن هذا ؟.. الست ابتسام كانت خادمة ؟ لا . لا مستحيل . هذا امر غير معقول ..

وتابعت الراقصة الجميلة كلامها قالت : « اجل يا ابنتي ، كنت خادمة مثلك. اخدم الناس ، واغسل الصحون وانظف الارض واغسل الثياب . كنت يومذاك في مثل عمرك.في الخامسة او في السادسة عشر من عمري . كنت اعمل في دار احد الاثرياء الوجهاء . وكان لذاك الوجيه الثري ابن في الخامسة والعشرين من العمر ، وكان ابن سيدي يتودد اليّ ويخالسني النظرات ويسكب في اذني همسات الحب والهوى والغرام . ووقعت في الشرك الذي نصبه لي .

فقد اغتنم ذلك المجرم الشاب خروج والديه من الدار ذات ليلة ليثب الى غرفتي ويندس معي في السرير.. وكانت الجريمة الرهيبة . وفقدت اعز ما تملك الفتاة المذرله .. وطالبته بما تطالب النعجة الذئب . طالبته بالزواج مني.فراح يسوف ويماطل . وهددت وتوعدت .. ووصل التهديد والوعيد الى والديه فغضبا ، وحنقا عليّ ، عليّ انا لا على ابنهما . وقابل والده تهديدي بتهديد مماثل ، فوثب اليّ يقول بغضب شديد:

« انت نصبت الشرك لابني املاً في حمله على الزواج منك. هل يخيل اليك انني سأوافق على زواج ابني من خادمة مثلك؟ مجنونة .

انا لن اكتفي بطردك من خدمتي ، بل سأشكوك الى المحاكم متهماً اياك بالنصب وبالاحتيال ».وخفت . فهو صاحب

وجاهـــة ونفوذ وثراء . إلا انني تذرعت ببعض الشجاعة ورثيت اليـــه لاقول : من تراه يصدقك اذا اتهمتني بنصب الشرك لابنك ؟. وهل هناك من يصدق ان الذئبة تعتدي على الذئب ؟ اذا شئت ان يكون القضاء الساحة التي نلتقي فيهـا فمرحباً بك وبأبنك . انا التي سأشكو ابنك الى القضاء » ..

ويبدو ان تهديدي كان ناجحاً فعمد ذلـك الوجيه الثري الى اللطف واللين .واقترب مني قائلاً : « اسمعي يا ابنتي . انا لا اريد ان اشهر بك امام الحاكم . ما حصل قد حصل الآن. ليس لـــك إلا أن تتقي الفضيحة . سأنقدك الآن مئة ليرة لبنانية . يمكنك بهذا المبلغ الضخم ان تتدبري امرك وأن تبحثي عن عريس تعيشين معه العمر كله » .

ولم اكن غبية ، لم اكن جاهـلة بالرغم من حداثة سني . كنت اعلم ان ثمن عفافي اكثر من مئة ليرة لبنانية .. وبدأت المساومة ، فطلبت مبلغ الف ليرة لبنانية ، وعرض عليّ مبلغ مئة وخمسين ليرة .. وهبطت بمساومتي الى السبعمئة لـيرة ، وارتفع بهـا الى المائتي ليرة .. وأخيراً تم الاتفاق على ان ينقدني مبلغ ثلاثمئة لـيرة لبنانية ويصرفني من خدمته لاتدبر امري بنفسي .. وتقاضيت المبلغ وأنا اكاد لا اصدق انـــني املك ثلاثمئة ليرة لبنانية. وخيل اليّ انني الرابحة في الصفقة. ثلاثمئة ليرةٌ لبنانية ثمن بكارتي وعفافي ومستقبلي وحياتي . انه مبلغ بخس... ولو قدر لي الآن اعود الى الوراء ، الى ذلـك

اليوم الذي وقفت فيه امام ذلك الرجل الثري اساومه لما رضيت بأقل من عشرة آلاف ليرة لبنانية .

انا على يقين الآن من أن ذلك الرجل كان على استعداد لدفع الآلاف العشرة على ألاّ يقف وابنه مع خادمة امام القضاء في دعوى مثل هذه الدعوى .. على كل انا لم اكتف بالثلاثمئة ليرة لبنانيةَ يا وردة . فقد استطعت بعد عشر سنوات من هذه الحادثة ان اسلب ذلك الذئب الذي سلبني عفافي ودفع بي الى وهدة الظلام ، استطعت ان اسلبه مبلغاً كبيراً من المال .. »

وأشعلت الراقصة ابتسام لفافة راحت تنفث دخانها في الفضاء في حين كانت وردة.نصار جالسة قربها والألم يحز في نفسها ..

وتابعت الراقصة الحسناء بعد صمت قصير قالت: « خرجت من دار ذلك الوجيه الثري وأناملي تداعب الاوراق النقدية بزهو واعتداد .. ورحت ابحث عن عمل . لم اكن اريد ان أعود الى الخدمة في المنازل والبيوت . بل كنت اريد ان اعمل عملاً آخر غير الخدمة وغسل الثياب والصحون ..

وقادتني قدماي الى مكتب الاستخدام . المكتب الذي كان يتولى امري ويجد لي من حين الى آخر داراً اعمل فيها.. ولم يكن لي اهل ألجأ اليهم .

فأنا يتيمة الأب .. مات ابي وتزوجت امي.. فهربت من

ظلم زوجهـا وقساوته لأعمل في منازل الاثرياء .. واستقبلني صاحب المكتب بالترحيب الشديد، وقد أدرك ان « الرزقة » هبطت عليـــه من السماء . ان طلاب الخادمات كثيرون والخادمات يكدن ان يكن نادرات .

وسألني صاحب المكتب ، وهو يعرفني حق المعرفة، ماذا يا ابنتي ؟ هل تركت العمل في دار اسيادك ؟ قلت : « اجل، وأريد منك ان تجد لي عملا مريحاً شريفاً » .

ففتح صاحب المكتب السجل امامه وبدأ يقرأ الأسماء على مسمعي : « هناك نائب بحاجـــة الى خادمة .. ومدير .. وتاجر .. وأرملة تعيش وحدها و ... »

وقبل ان يكمل صاحب المكتب تلاوة الأسماء قاطعتـه قائلة : « لا .. لا .. انا لا اريد ان اعمـــل خادمة . اريد وظيفة مريحة ».

وضحك صاحب المكتب وهو يسمع كلمـــاتي . وتمتم : « تريدين وظيفة ؟ ماذا تحملين من الشهادات ؟.. وماذا تتقنين من اللغات ؟.. وماذا تجيدين من الفنون والعلوم ؟ »

فأحرجني واحترت بماذا اجيب وتمتمت : « انت تعلم انني لا احمل شهادة ولا أتقن لغة اجنبية ولا اجيد فناً من الفنون او علماً من العلوم ».قال بحزم : « اذن لن تستطيعي ان

تعملي اي عمل الا الخدمة في بيوت الاثرياء ».قلت :« ولكنني لا اريد ان اعمل خادمة. لقد سئمت غسيل الصحون وتنظيف الثياب وتكنيس الغرف » .

فتمتم صاحب المكتب :« اسمعي يا ابنتي . من حظك انك لا تحملين شهادة ولا تتقنين لغة ولا تجيدين فناً . انت لو انك تحملين شهادة لما استطعت ان تجدي وظيفة ، اما وأنت لا تصلحين سوى للخدمة في المنازل ، فان مئات المنازل مفتوحة امامك للخدمة.. اذا احتاج الانسان الى موظفة في هذا البلد، وجد ألف موظفة ، اما اذا احتاج إلى خادمة فهو لن يقع على خادمة » .

فأصررت على موقفي لا اتزحزح عنه.قلت : « لن اعمل خادمة بعد اليوم ».فصمت صاحب المكتب برهة راح خلالها يقلب صفحات السجل وكأنه يبحث فيها عن وظيفة تليق بمقامي « الرفيع » ثم رفع نظره اليّ ليقول : « هناك وظيفة قد تليق بك . انت لن تكوني خادمة بالمعنى الصحيح ولن تكوني موظفة بالمعنى الصحيح ، ستكونين بين بين » ..

قلت باستفهام ملحاح: « ما هي ؟ ما هي هذه الوظيفة ؟» قال : « هناك ملهى ليلي في محلة الزيتونة بحاجة الى فتاة تساعد الراقصات والمطربات على ارتداء ثيابهن وتحافظ على تلك الثياب وعلى نقود الفنانات وحلاهن .. هل توافقين على العمل في هذا الملهى ؟ »

فترددت قليلاً في قبول « الوظيفة » ثم التفت اليه لأقول: « كم هو مرتب هـــذه الوظيفة ؟ » قال : « ستتقاضين عشر ليرات لبنانية كل اسبوع ، اي ان مرتبك سيكون اربعـين ليرة لبنانية في الشهر ، ولكنك ستحصلين على مبالغ كبيرة من المال اذا احسنت التصرف فالفنانات سخيـــات الكف ، سيجدن عليك بالمال الوفير اذا احسنت معاملتهن.ستعملين ليلاً. من الساعة التاسعة حتى الثالثة من الفجر ، وستكونين حرة طليقة الجناح طيلة النهـار ».. قلت : « لا بأس . العمل في الملهى افضل من الخدمة في بيوت الناس».قال: « تعالي معي، سأقودك بنفسي الى مدير الملهى » ..

وسرت معه الى مدير الملهى .. وأعجب المدير بي وعهـد الي بالوظيفة « الرفيعة » الشأن .. لقد دخلت الى ذلك الملهى خادمة يا وردة ثم تدرجت وترفعت الى ان أتقنت الرقص ، وأصبحت راقصة شهيرة كما ترين .. وتدفقت الاموال بـــين يدي .. وتعرفت الى الكثير من الشبان والرجال، وأصبحت عشيقة الكثيرين ولعبت بقلوب الكثيرين . كنت اريد ان انتقم من ذلك الشاب الذي اعتدى علي بانتقامي من العشاق المتدلهين بهواي . ولم اكن لأرحم احداً منهم . ما ان استولي على اموالهم حتى ادير لهم ظهري ..

ومضت الايام يا ابنتي .. مضت عشر سنوات على امتهاني الرقص ، تنقلت فيهـــا من ملهى الى ملهى ومن مرقص الى

مرقص . وذات ليلة فيا اعمل في ملهى ليلي كبير في ساحة الشهداء جاءني الخادم ، خادم الملهى ليقول : « هـذا الشاب الجالس هناك في الزاوية الخضراء يدعوك لتناول كأس ويسكي معه يا ست ابتسام » .

والتفت الى حيث اشار الخـادم ، الى الزاوية الخضراء لأشاهد الذئب . الذئب الذي اعتدى علي وكان السبب في وصولي الى هذه الحال ، نجل الوجيه الثري الذي كنت اعمل خادمة في داره منذ عشر سنوات ..

وابتسمت . لقد ارسل الله لي غريمي لأنتقم منـه . لن انتقم بعـد اليوم من جميع الشبان ، بل انا سأنتقم من شاب واحد ، منه هو بنفسه ..

والتفت الى الخادم لأقول: « انني قادمة اليه »..وارتديت ثيابي على عجـل وسرت الى الزاوية الخضراء .. وتقدمت من مائدة ذلـك الشاب وأنا أتهادى في سيري كأنني عروس في يوم عرسها ..

ووقف الشاب يرحب بي شديـد الترحيب ويدعوني الى الجلوس قربه .

وسرني منه انه لم يتعرف اليّ . فهو لم يرني منـذ عشر سنوات . كنت عندما شاهدني في المرة الأخيرة ، في السادسة

عشر من عمري ، خادمة حقيرة ، هزيلة ، رثة الثياب مشعثة الشعر وسخة اليدين قذرة الرجلين ، وهو يراني الآن غادة حسناء في السادسة والعشرين من العمر ، ارتدي الثياب الانيقة الغالية الثمن ، اصبغ شفتي بالاحمر ووجنتي بالابيض، وأصفف شعري المصبوغ بلون الذهب تصفيفاً رائعاً جميلاً ، وتلمع في معصمي وفي جيدي وفي اذني وفي اصابعي الحلى والجواهر .. وكان من الطبيعي ان لا يتعرف اليّ ..

وجلست قربه ، وراح يغدق علي كلمات الثناء والمديح . وأخذ يثني على فمي وعلى جمالي وفتنتي . وصب لي الخمرة بيده، وأخذ يسخو عليّ بالشراب وبالثناء ..

وامتدت السهرة بنا حتى مطلع الفجر . وعلمت منه انه اصبح صاحب منصب مرموق في الدولة .. ولم يخرج من ذلك الملهى الا بعد ان ضربت له موعداً للقاء في اليوم التالي ..

وفي اليوم التالي وافيته الى الموعد المضروب .. وبدأت ابتز امواله . وراح ينفق عليّ بسخاء ما بعده من سخاء . فاشترى لي الحلى الثمينة والجواهر النادرة والثياب الغالية الثمن . وجاد علي بالمال بدون حساب حتى بلغ ما أخذت منه زهاء عشرة آلاف ليرة لبنانية .

اخذت منه هذا المال الوفير دون ان يستطيع ان ينال مني قبلة واحدة . كنت اعلله بالوصال ثم أسوف ، وأماطل.

وأخيراً اخلف وعدي معه ..

وضاق ذرعاً بي وبوعودي العرقوبيـة فوثب اليّ ذات ليلة فيما كنت اجلس في الملهى ليقول : « اسمعي يا ابتسام . لقد انقضت شهور عدة وأنا انفق عليك وأغمرك بالهدايا الثمينـة النفيسة ، وأنت تعللينني بالوعود الكاذبة والعهود الخادعة . اما الليلة سأرافقك الى دارك وأقضي ليلتي عنـدك سواء شئت أم ابيت » .

وضحكت ، ونفثت دخان لفافتي في وجهه.وهمست بكل حزم ووقار :«أجلس».وأبى ان يجلس ، وقد استبد بـه الغضب الشديد ..

وعدت الى اصدار الامر اليه :«اجلس»..وجلس فقدمت له لفافة بكل احترام .وهمست : «تفضل . دخن ».وحـاول الاعتذار.وقال :

لا . شكراً .

قلت بلهجة آمرة :

دخن . دخن هناك امر هام اريد ان اتحدث به اليك .

فتناول اللفافة من يدي وأشعلها بنزق وغضب . وتمتم :

« أمر ؟.. بماذا تأمرين ؟ »

قلت : « ماذا تريد مني ؟ »

قال : « لقد وعدتني بالوصال وأنا انفقت عليك المـــال الوفير أملاً بهذا الوصال . إما ان تفي بما وعدت وإما ان تعيدي لي المال والهدايا .

فقهقهت .. ونفثت دخان لفـافتي في الفضاء . وهمست : اولاً : ان الهدايا لا ترد . ثانيـاً : انا ان كنت اخذت منك المال والحلى فما ذلك إلا ايفاء لدين لي بذمتك ..

قال باستفهام : « انت لك بذمتي دين ؟ »

قلت : « اجل .. »

قال : « ما هو هذا الدين ؟ »

فاستويت في مقعدي متخذة طابع الجد والحزم . وقلت :

« انظر اليّ جيداً . ألا تعرفني؟ ألم يسبق لك انشاهدت هذا الوجه منذ عشر سنوات ؟ تذكر جيداً . جرّب ان تتذكر .. »

فحدق بوجهي .. ثم قلب شفتيـه ، وهز كتفيه ليقول :

« ابـداً ، انا لا اذكر شيئاً ولم يسبق لي ان شاهدتك إلا منذ شهور قليلة » .

قلت: « انت شديد النسيان يا استاذ.. ألا تذكر خادمتك نبيهة .. »

وصعق الشاب وقد تلفظت امامـه باسمي الحقيقي وراح يحدق بعيني على خوف ووجل . وأخذ يرتجف كأنه ورقة في مهب الرياح ..

وتابعت كلامي لأقول : « اجل . انا نبيهة الخادمة. نبيهة التي اعتديت عليها ونقدها ابوك ثلاثمئة ليرة لبنانية ثمن شرفها وعفافها. ان شرف الفتاة العذراء غال وثمينلا يقدر بمال الدنيا . يخيل اليّ انك توافق على ان ثلاثمئة ليرة ثمن بخس للشرف أليس كذلك ؟..

انا تقاضيت منك الآن بعض مـا لي بذمتك من مال ثمناً لشرفي ولسمعتي ولمستقبلي فماذا تريـد مني بعد ؟.. تستطيع الآن ان ترحل عني بسلام ..

ولم ينبس بحرف ، لم يستطع ان ينبس بحرف . ونهض ، نهض ليسير بخطوات متئدة بطيئة ، فكأنه وهو يسير يحمل اثقالاً مرهقة رهيبة ..

وضحكت ، ضحكت بملء رئتي . انا لم اضحك مرة في حياتي كما ضحكت تلك المرة .. وارتحت شديد الارتياح وقد انتقمت من الذئب هـذا الانتقام ، وخيل اليّ انني لن ارى وجهه ابداً ، خيل اليّ انـه سيهرب مني كما يهرب من الوباء المخيف ، الا انني كنت على خطأ . فكأن الله العلي العظيم كان يريد له انتقاماً اشد وأقوى ..

فقد عاد ذلك الشاب اليّ بعد اسبوع والدمعة في عينيه والحسرة في قلبه وقال لي :

« يا ابتسام أنا احبك . لقد حاولت ان انسى حبك ، حاولت ان اطرد طيفك عن وسادتي ، حاولت ان اتخلص من هواك فعجزت : لقد اتيت الآن لأطلب يدك . اريد ان اكفر عن جريمتي السابقة بحقك وأتزوج منك » .

فقهقهت وتمتمت : الآن ؟.. الآن بعد عشر سنوات جئت تكفر عن جريمتك ؟. الآن بعد أن اصبحت النعجة في المسلخ جئت تعمل على انقاذها ؟ لا . لا يا بيك . انا لست بحاجة الى يدك الكريمة بعد ان وصلت الى ما وصلت اليه . يوم رجوتك ان تتزوج مني وتكفر عن جريمتك رفضت . يوم بكيت امامك وأمام والدك طالبة إليكما انقاذي ادرتما لي ظهركما ودفعتما بي الى هذا الظلام الذي اعيش فيه . ما مضى قد مضى الآن . انس الماضي كما نسيته انا وابحث لك عن فتاة تليق بمقامك الرفيع . »

قال : أنا أحبك أحبك ولن أتزوج من سواك .

فطفت على شفتي ابتسامة هزء وسخرية .وهمست: «ولكنني لا أحبك ولا أريد الزواج منك » .

قال : « سأغمرك بالمال وأفرش طريقك بالذهب. سأجعل منك سيدة محترمة،سأسلمك مقادير قلبي وصندوقي وداري».

فمضيت في ابتسامي الهـازيء . وهمست : « أنا لن اتزوج من شاب يعتدي على شرف الخادمات » .

فأصابتـه الطعنة في الصميم وأنا أذكره بجريمته المنكرة السوداء .. ونهض ، نهض ليسير دون ان ينبس بحرف ..

ومنذ ذلك اليوم لم أعد أرى له وجهاً. الا انني علمت ان الفقر دهمه ، وأنه طرد من منصبه وأنه اصبح شريداً لا يملك من حطام هذه الدنيا شيئاً . هذه نهاية المجرم الفاسق الشرير . »

وراحت الراقصة ابتسام تنفث دخـان لفافتها الفاخرة في الفضاء في حين جلست وردة نصار قربها ، وغرقت الاثنتان ، ابتسام وخادمتها وردة في صمت عميق . وراحت كل منهما تفكر . كانت ابتسام تفكر بمـاضيها ووردة تفكر بمستقبلها الغامض المجهول ..

وعادت الراقصة الحسناء الى الكلام بعـــد صمت قصير لتقول : « هـــذه هي قصتي يا وردة . رويتها على مسامعك لتكون عبرة لك يا ابنتي .. والآن قولي لي يا وردة ألا تزالين تصرين على مغادرة هذه الدار ؟ » .

ومضت وردة الخادمة في صمتها . فهي لا تعلم بماذا تجيب . هـــل تمضي في اصرارها على التخلي عن العمل في دار السيدة ابتسام ، ام لم تنقض القرار الذي اتخذتـه وتظل في عملها ؟..

ليست تدري . ليست تدري ..

وطال صمتها ، وعـــادت ابتسام الى الكلام لتقول : « اسمعي يا وردة . اذا كنت تريدين المحافظة على شرفك وعلى سمعتك وعلى نقاوة جبينك فليس لك إلا هــذه الدار تقيمين فيها على الرحب والسعة وتنعمين في حناياها بالراحــة والسلام والاطمئنان . انا لم اعاملك ولن اعاملك معامـــلة السيدة للخادمة كما ترين يا ابنتي بل انني اعاملك معاملة الام لابنتها . انت عندي بمثابة ابنتي يا وردة » .

وعادت الدموع تترقرق في عيني وردة نصار .. وراحت الراقصة ابتسام تكفكف دموعها بمنديلها وهمست : « اطمئني يا وردة . اطمئني يا ابنتي انت ستعيشين في هـــذه الدار كما تعيشين في دارك » .

وعاشت وردة في تلك الدار كما تعيش في دارها ، ونعمت بحنان الراقصة ابتسام وبعطفها وبحبها . لم تكن وردة تعيش في تلك الدار كخادمة ، لا ، بل هي كانت تعيش كسيدة . كانت وردة نصار الامرة الناهية في تلـــك الدار ، وكانت الراقصة ابتسام تغدق عليها المال والعطف والحنان ..

وعرفت وردة نصار لذة العيش، ونعمة اليسر . فتــدفق المال بين يديها.ورفلت بالثياب الانيقة الغالية الثمينة ، وعرف وجهها المساحيق والعقاقير والعطور . وكان يخيل للكثيرين

ان وردة هي سيدة الدار وانها تتربع من الغنى والثراء في اعلى مقام .

وخيل للخادمة وردة نصار ، انهـا في مأمن من كل خطر وشر وهي تقيم في دار الراقصة ابتسام ، إلا انهـا كانت على خطأ ، وهل كان يوماً في مأمن من الاحتراق ذاك الذي تحيط به النار من كل جانب ؟..

وبـدأ اصدقاء الراقصة ابتسام يتوددون الى وردة نصار وهم يرونها ترتع في جمال واسع شاسع رحيب ، بـدأ اولئك الشبان الاثرياء يتقربون من وردة ويسكبون في اذنيها كلمات الحب والشوق والحنين .. ووردة ، وهي مثـل جميع بنات حواء ، يغرها الثناء وتطربها كلمات الغزل والغرام ، ارهفت اذنيها لتلك الكلمات وانتشت بنغماتها الشجية السمحاء ..

وشاءت وردة نصار ان تتشبه بسيدتهـا في كل شيء . في حديثها ، وفي سخائها وفي اناقتها ، حتى وفي مهنتها ..

وكانت الراقصة ابتسام تقوم بتمرينات الرقص في دارها ، فهي تدخل الى غرفتها مرة او مرتين في الاسبوع لتنزع عنها ثيابها وتنصرف الى التمرين ..

وتقف وردة تستعرض جسد سيدتهـا وهو يتلوى وينثني على فتنة وروعة وجمـال . وتؤخذ بتلك الرقصات الفاتنات

التي تقوم بها سيدتها . وما ان تخرج الراقصة ابتسام من الدار حتى تسرع وردة الى غرفتها فتنزع عنها ثيابها وتبدأ بالرقص عارية امام المرآة .

واصبحت وردة الخادمة تجيد جميع انواع الرقص الذي تجيده سيدتها ، بل هي كادت تتفوق على الست ابتسام في الرقص الشرقي . وكان شبابها الغض النضير يساعدها على القفز والانحناء والتثني والالتواء ..

وذات يوم ، فيما وردة نصار ترقص عارية امام المرآة دخلت عليها سيدتها .. وذعرت وردة وقد ادركت ان الست ابتسام دهمتها بالجرم المشهود . واسرعت الى ثيابها محاولة ارتداءها والهرب من تلك الغرفة . لقد خيل اليها ان سيدتها ستغضب شديد الغضب وستوبخها توبيخاً شديداً وتؤنبها تأنيباً عنيفاً. إلا أنها دهشت، وهي تشاهد الست ابتسام تقترب منها لتمسك بيدها قائلة : لا. لا ترتدي ثيابك يا وردة اكملي الرقص .

وخجلت الخادمة الحسناء شديد الخجل ، وهي تقف عارية امام سيدتها . إلا ان الراقصة ابتسام بددت خجلها وراحت تشجعها على استئناف الرقص.قالت : اكملي رقصك . يخيل اليّ انك موهوبة يا ابنتي .

وأكملت وردة رقصها الرائع الفاتن الجميل ..

ووقفت الراقصة ابتسام على دهشة ووجوم واستغراب .. كانت وردة تجيد الرقص كل الاجادة ..

وصفقت الراقصة ابتسام لخادمتها وهي تشاهدها في رقصها الرائع الجميل.وهمست : يا مقصوفة الاذن يا وردة . انت ستشكلين خطراً على سيدتك وستستطيعين يوماً مزاحمتها على المسارح .

وعاد الخجل يصبغ وجنتي وردة وهي تسمع الثناء من فم سيدتها الراقصة الشهيرة .. شهادة الست ابتسام بألف شهادة.

وهمست الراقصة ابتسام ، وهي تشمل لفافة فاخرة : ارتدي ثيابك واجلسي هنا قربي يا وردة .

ونفذت الخادمة الحسناء الامر السامي فوراً .. ارتدت ثيابها وجلست قربها .

ونفثت الراقصة ابتسام دخان لفافتها في الفضاء.وهمست: وردة ! لا أريدك ان ترقصي بعد اليوم .

وهمست وردة : لماذا يا ست ابتسام ؟

وتمتمت الراقصة : اني لأخشى ان تمتهني يوماً الرقص يا ابنتي ، وأنا لا اريد ان تصبحي راقصة .

قالت وردة : لماذا يا سيدتي؟ أليس الرقص مهنة شريفة ؟

ونفثت ابتسام دخان اللفافة في الفضاء .وتمتمت : ان

الرقص فن مثل جميع الفنون يا وردة ، وهو مهنـة شريفة ، إلا أن الجو الذي نعيش فيه نحن معشر الراقصات جو موبوء، اني لأخشى ، ان تضطري الى العيش في هذا الجو الموبوء اذا امتهنت الرقص يا ابنتي، لا اريدك راقصة يا وردة،لا يا ابنتي، انا اريدك سيدة دار محترمة، اريدك زوجة وأماً . انا سأتعهد امرك يا ابنتي ، سأجـد لك عريساً يستطيع ان يسعدك وأن يوفر لك الراحة والهنـاء والاطمئنان . انزعي فكرة الرقص هذه من رأسك يا ابنتي ، هذا اذا اردت ان تنقذي رأسك من الاوجاع والآلام والهموم ، أنا وحيدة في هذه الحياة ، ليس لي أب ولا أم ولا أخ . ليس لي احد في هـذه الحياة . انت ستكونين ابنتي واختي في آن واحد . سأهبك المال الوفير ، وسأفرح بك ، وستعيشين معي هنا في هذه الدار مع زوجك وأشاهد اولادك وافرح بهم. اسمعي مني يا وردة ولن تخسري يا ابنتي .

وصمتت وردة نصار ، لم تنبس بحرف ، قد تكون سيدتها على حق وعليها ان تمتثل لأوامرها .

وعادت الراقصة ابتسام الى الكلام بعد صمت قصير لتقول: ارجو ان تسمعي كلامي وتعملي به يا ابنتي ، ما لك وللرقص، انه مهنة العذاب والآلام والدموع .

وتمتمت وردة نصار : كما تريدين يا سيدتي كما تريدين .

وضمت الراقصة ابتسام خادمتهـا الى صدرهـا.وهمست :

اطمئني ، مستقبلك سيكون مضموناً يا وردة ، لا تخافي يا ابنتي ، الست ابتسام لن تتخلى عنك .

وتمتمت الخادمة وردة : الف شكر لك يا سيدتي على هذه العاطفة النبيلة السمحاء .

واطمأنت الخادمة وردة نصار ، وسيدتها تمدها بالمستقبل الزاهر الزاهي الجميل. وعزمت العزم الصادق الاكيد على الابتعاد عن الرقص .

سيدتها تقول: ان الرقص مهنة العذاب والآلام والدموع.. فلتبتعد وردة نصار عن الدموع والألم والعذاب .

٨
انتقام الذئب

دخان اللفافة الفاخرة يعقد أجنحة بيضاء تخفق في فضاء الغرفة الرحبة الفسيحة الأرجاء الفاخرة الرياش ، ومحاسن نصار لا تزال مستلقية على سريرها الوثير تراقب اجنحة الدخان وتفكر بذلك الماضي القريب المنطوى من حياتها المغمورة بالآهات وبالأنين وبالدموع .

وعادت الذكريات تنساب في رأسها على شوق ومرارة وحنين فتذكرت .. تذكرت كيف حاولت الابتعاد عن التفكير بالرقص يوم كانت خادمة في دار الراقصة ابتسام وكانت يومذاك تحمل اسمها الحقيقي ، الاسم الذي اطلقه عليها والداها يوم ولادتها : « وردة » ..

ومخرت الذكريات عباب رأسها فتذكرت .. تذكرت كيف أرادت ان تنزل عند رأي سيدتها ابتسام وتبتعد عن الرقص ، مهنة الآلام والدموع والعذاب ، الا ان الأقدار

وقفت بينها وبين ارادتها ، فقد ماتت سيدتها ابتسام فجأة . وفقدت بفقدها عطف الأم وحنان الأخت ..

وابتسام الراقصة لم تمت موتاً طبيعياً . لم تصب بالسكتة القلبية ، ولا هي ماتت تحت مبضع الجراح ، ولا أصيبت بداء خطر وبيل . ماتت الراقصة ابتسام مقتولة . فقد اطلق عليها ذلك الشاب الذي اعتدى عليها عندما كانت خادمة ، الرصاص. ذلك الذئب لم يكتنف بالاعتداء على شرفها وبسفح عفافها ، بل هو عمد الى سفح دمها . لم يكتنف السفاح بسفح سمعتها وكرامتها وشرفها ، بل هو سفح حياتها ...

كان ذلك الشاب قد أصبح شريداً . وجاء ذات ليلة الى الملهى الذي تعمل فيه ابتسام.ووثب اليها يقول : « انا أحق الجميع بك .. انا أنفقت عليك عشرة آلاف ليرة لبنانية » ، فضحكت ابتسام ونفثت دخان اللفافة في وجهه .وتمتمت : « تفضل واخرج من هذا الملهى قبل ان أدعو الخدم الى طردك» وصعق الشاب وصرخ بها : « انت ايتها الخادمة الحقيرة تطردينني ؟ ».

وخشيت ابتسام الفضيحة فدفعت اليه بورقة نقدية من فئة المئة ليرة.وقالت : « خذ هذه الورقة واذهب عني بسلام » ، وصفعها بالورقة النقدية صارخاً بها : « انا لست بحاجة الى مالك القذر . تعالي معي »..

قال هذا وأمسك بيدها محاولاً جرهـا معه .. وأخذت ابتسام تولول وتصرخ وتستنجد .. ووثب الخدم والزبائن الى نجدتها فما كان من الشاب الاثيم الا انه شهر مسدسه وراح يطلق الرصاص على ابتسام.وأصابها بخمس رصاصات كانت كل رصاصة منها كافية لقتلها .. ووقعت الراقصة ابتسام تتخبط بدمهـا وتلفظ أنفاسها الأخيرة . ووثب الجميع الى القاتل يحاولون اعتقاله الا ان الذئب صوب المسدس الى رأسه وأطلق رصاصة واحدة كانت كافية للقضاء عليه ..

ودب الذعر في قلوب الراقصات والفنانات اللواتي يعملن في الملهى ، وهرب الزبائن الكرام .. وأسرع رجـــال الشرطة ليقفوا امـــام جثتين مخضبتين بالدم .. ونقلوا الجثتين . جثة الراقصة القتيل وجثة القاتل الى المستشفى حيث شرحتا .

ونشرت الصحف نبـــأ الفاجعة ، ووصل النبأ الى اهل الراقصة ابتسام ، الى والدتها والى زوج والدتها والى اولادها فأسرعوا الى المطالبة بالميراث .. واستولوا على كل شيء . على اموال نسيبتهم الراقصة ، وهي تشكل ثروة كبرى . وعـلى حلاها ومجوهراتها وثيابها وأثاث دارها . وكادوا يستولون ايضاً على ثياب وحـلى الخادمة وردة . الا ان وردة ، وهي التي نكبت بموت سيدتها ، أبت ان تتخلى لهم عن ثيابهـــا وحلاها ...

ومرة ثانية رأت وردة الخادمة نفسها وحيدة في هذه الحياة. وجلست في تلـك الدار المقفرة ، المقفرة من كل شيء . من سيدتها ومن أثاثها، تبكي سيدتها ابتسام بدموع قانية الاحمرار. كانت وردة نصار الانسان الوحيد الذي بكى ابتسام بدموع صادقة مخلصة وفية..

وكانت وردة تملك ألف ليرة يوم توفيت سيدتها ابتسام . كان ذلك المبلغ من « خير » ابتسام ، وقـد كانت ابتسام وكان اصدقاؤها يجودون عليها بالمال بكل سخاء ، فاشترت بعض الاثاث المتواضع .. سريراً من حديد . ومقاعـد من خشب . نثرتهـا في تلك الدار ، وقد أبت ان تخرج من دار عاشت فيها ايامـاً رائعة السناء والجمال .. وكانت الراقصة ابتسام قد نقدت صاحب الدار اجرة دارها عن سنة كاملة . ولم يكن قد مضى من تلك السنة سوى شهرين. تستطيع اذن الخادمة وردة ان تقيم في تلك الدار عشرة اشهر بدون ان تخسر ليرة واحدة . ومن الآن حتى انقضاء الأشهر العشرة يخلق الله ما لا تعلمون ..

وأقامت الخادمة وردة في تلـك الدار على ألم وحزن ودموع . وكانت تجلس ابداً امام صورة سيدتها ابتسام ترثيها وتبكيها وتندبها وتندب معها حظها التعس المنكود ..

وكانت وردة تستقبل في تلك الدار بعض اصدقاء سيدتها

الراحلة ، وكانت قد اصبحت على صداقة وثيقـــة بهم بفضل سيدتها . وكان الكثير من اولئك الاصدقاء يطمع في الحصول على قلب الخادمة الجميلة وعلى جسدها الندي الشباب ، إلا ان وردة الحسناء لم تكن لتأبه لهم ولا لتعيرهم اقل اهتمام، الحزن على سيدتها أدمى فؤادها وشغلها عن التفكير بالحب والغرام . ثم ان وردة لم تكن قد خطت ، يومذاك ، ولا خطوة واحدة في طريق الحب والهيـــام ، فهي لا تعرف أصول الحب ولا تدرك خفايا الغرام وكنهه .

وبدأ اولئك المعجبون يلقون الشرك حول وردة نصـــار ، وكان في طليعة اولئـــك المعجبين الذين يحاولون الاستئثار بالخادمة الجميلة ، صاحب الملهى الذي كانت تعمل فيه الراقصة الراحلة ، كان صالح ابو العز، صاحب ذلك الملهى بين المعجبين بالخادمة وردة ، وقد حاول،يوم كانت سيدتها على قيد الحياة، ان يستأثر بها ويحيالها ، الا ان الراقصة ابتسام حالت بينـه وبين تحقيق الأمنية الغالية...

كانت ابتسام تحافظ على وردة كما تحافظ الأم على ابنتها ، وكانت تحول ، أبداً ، دون وقوع خادمتهـا الجميلة في الشرك المنصوب . اما الآن ، وقد ماتت الراقصة ابتسام فليس ثمة ما يحول بين صالح ابي العز وبين الوصول الى قلب وردة والى جسدها الندي الغض النضير ..

وبدأ صالح ابو العز ، صاحب الملهى العامر الفسيح القائم من العاصمة اللبنانية في الصميم ، يتردد الى دار وردة نصار حاملا لها الهدايا والعواطف والحب والشعور . وكانت وردة تتقبل هداياه وعواطفه وحبه وشعوره بالشكر والامتنان . وبالشكر تدوم النعم...

واستطاع صالح ابو العز ان يسير خطوات سريعة في طريق الوصول الى وردة، مخلفاً وراءه جميع المعجبين الطامعين في الوصول الى ذلك الجسد النضير الشباب .

وفي مدة وجيزة اصبح صالح ابو العز القريب الى وردة نصار وأصبح صاحب الكلمة النافذة عندها . وبسط صاحب الملهى الكريم سلطانه على دار وردة ، وتولى الانفاق عليها بكل كرم وسخاء ...

ووثقت وردة نصار بصاحب الملهى ، وامنت بطيبة قلبه وبصدق نواياه ، وأصبح ولي امرها ومرشدها وصديقها العزيز الكريم .

واطمأن صالح ابو العز شديد الاطمئنان ، وقد اصبح صاحب الكلمة الاولى والأخيرة في الخادمة الجميلة الحسناء ، وماذا يريد ابو العز غير هذا ؟ كل ما يريد صالح هو ان يصل الى قلب وردة والى جسدها ، وأن يصبح صاحب الكلمة النافذة عندها . وعندئذ ، عندئذ بعد ان يتم له كل هذا

سيعرف كيف يستثمر البقرة الحلوب وكيف يجني من وراءها الذهب والمال .

وتم لأبي العز ما أراد بسرعة لم يكن يتوقعها . واستطاع ان يجعل من وردة نصار عشيقة رسمية ، ووردة ، لم تكن قد تعرفت بعد الى الرجال ، ولم تكن تعرف شيئاً عن العلاقة القائمة بين المرأة والرجل ، لذلك فقد كان وقوعها في الشرك سهلاً ميسوراً . ولم يلق ابو العز العناء الكبير في وصوله الى الأمل الباسم المنشود ..

وبدأ صالح ابو العز يستعد للوثوب الى الخطوة الثانية من الخطة المرسومة. لقد وصل الآن الى قلب وردة والى جسدها. لم يعد أمامه الا ان يبدأ استثمار البقرة الحلوب ..

وراح ابو العز يفكر : كيف يستثمر جمال وردة نصار وشبابها ؟:. كيف ؟.. وهل يحتاج الأمر الى سؤال ؟.. ان ملهاه العامر مفتوح ، مشرع الابواب امام طالبي الملذات . ما عليه الا ان يدفع بوردة الى الملهى ووردة تتكفل باجتذاب الزبائن الكرام اليها . وردة ستعوض عليه خسارته الفادحة بوفاة سيدتها الراقصة ابتسام ..

واطمأن ابو العز شديد الاطمئنان وقد وصل بتفكيره الى هذا الحد .. ورأى ان يبدأ تنفيذ الخطة المرسومة فوراً. لماذا التأجيل وفي التأجيل والتسويف فشل كل مشروع ..

وبدأ التنفيذ ، فوثب ذات مساء الى وردة ليقول : وردة سأدعوك الليلة الى تناول العشاء عندي في الملهى . ستسهرين الليلة في الملهى يا وردة وستشاهدين البرامج الحافلة بكل فتنة وروعة وجمال ..

واعتذرت وردة نصار عن تلبية الدعوة السمحاء وتمتمت: لا يا صالح لا . انا لن اخرج من الدار . إن نفسي حزينة جداً ، وتراب قبر سيدتي لم يجف بعد .

فأمسك صالح ابو العز بيد وردة الحسناء هامساً : « كلنا سنموت يا وردة ولن يخلد احد على هذه الفانية . انا وأنت سنلحق يوماً بالست ابتسام وسيلحق الذين يأتون بعدنا بنا ايضاً . لماذا الحزن والأسى اذن ؟ لماذا نبكي ونذرف الدموع الغزيرة على امواتنا ما دمنا سنلحق يوماً ما بهم ؟ » وتمتمت وردة : « قد تكون على حق يا صالح ، الا ان الانسان عاجز عن السيطرة على عواطفه وعلى اشواقه وعلى دموعه : دموعنا متمردة عاصية ، ونحن عاجزون عن كبح جماحها وعن اخماد ثورتها » ..

فشدت يده يدها ليقول : « ان ابتسام لن تعود الينا ولو حبسنا انفسنا العمر كله داخل جدران منازلنا . تعالي معي ، ستقضين الليلة سهرة ممتعة في الملهى ، وسنتناول طعام العشاء معاً ، ونعود بعد منتصف الليل معاً الى هنا . .. وارغمها

على النزول عند ارادته .. وارتدت وردة نصار ثيابها الفخمة الانيقة ، الثياب التي كانت قـد اهدتها اليها سيدتها الراحلة ، وصبغت شفتيها بالاحمر وخديهـــا بالابيض. وسكبت المطور الفواحة الاريج على شعرها وعلى راحتيها وسارت برفقـــة الصديق العزيز الى الملهى العامر الرحيب ..

وهناك ، في ذلك الملهى جلست وردة نصار وراء طاولة صغيرة قرب ابي العز تشاهد البرامج الحافلة بكل روعة وفتنة وجمـال .. وشاهدت الراقصات يقفزن فوق المسرح ويتمايلن بقدودهن المياسة . فضحكت، والتفتت الى ابي العز لتقول : « هذا ليس رقصاً. انه مهزلة ».قال: « ابتسام كانت سيدتهن يا وردة. ولكن اين لي براقصة تسد الفراغ الذي خلفته ابتسام لهـــذا الملهى ؟ ».وتمتمت وردة : « انا استطيـع أن ارقص افضل منهن جميعاً » .

فجحظت عينا ابي العز ، وهو يحـدق بوردة . وهمس : « مستحيل » .

قالت : « انـــني اجيد كل الرقصات التي كانت ترقصها سيدتي يا ابا العز » . قال :«هل تمزحين ؟». قالت: انني اؤكد لك ذلك». قال: «ستصعدين اذن الى المسرح الآن وترقصين».

فوجمت . ماذا يقول ابو العز ؟ هل جن ؟

وعاد ابو العز الى الكلام ليقول : « اذا كنت صادقة في ما تدعين، فانا سأجعل منك راقصة عالمية، وستتدفق الاموال بين يديك يا وردة ، ستصبحين غنية، غنية جداً ». فهمست: «انا لن اعمل راقصة يا صالح» . قال:«لماذا ؟». قالت :«لأن الست ابتسام حذرتني من هـذه المهنة الصعبة الشاقة المغمورة بالآلام والعذاب والدموع » . فعادت يـده تشد يدها بحرارة ليقول :

« اسمعي يا وردة جميع المهن متعبة شاقـة . كل الاعمال التي يعملها الانسان على هذه الارض مغمورة بالعذاب والآلام والدموع . لقد كنت تعملين خادمة يا وردة . هل كان عملك مريحاً ؟ هل تريدين أن تعودي الى الخدمة في المنازل ؟..

فصمتت وردة نصار . واحتارت بمـــاذا تجيب . هي لا تريد العودة الى الخدمة ، بعد أن ذاقت لذة الحرية والانعتاق. هي تريـد أن تصبح سيدة ، وان تصبح صاحبة سيارة فخمة ودار انيقة ، وأن تأتي بخادمة تقوم على خدمتها تمامـاً مثل سيدتها الراحلة . ولكن ذلك غير مستطاع الآن ..

وعـــاد ابو العز الى الكلام ليقول : « اسمعي يا وردة ، انت الآن تقيمين في دار سيدتك الراحلة دون أن تكوني مضطرة لدفع بدل الايجار . بعد شهور قليلة ستنتهي مـــدة الايجار ، ويتحتم عليك إما أن تدفعي بدل الايجار ، وأما أن

تخلي الدار. ان بدل ايجار هذه الدار الفخمة التي تحتلينها الآن هو ثلاثة آلاف ليرة لبنانية كل عام . هل تستطيعين أن تؤدي مثل هذا البدل ؟..

فوجمت وردة نصار .. الجواب معروف : لا .. هي لن تستطيع أن تؤدي هذا البدل الضخم ، وهي لا تملك من المال سوى الف ليرة ، وليس لديها مورد يقيها شر الفاقة والعوز . ماذا ستفعل وردة نصار ؟ هل تعود الى الخدمة في دور الاغنياء ؟. لا والف لا.. كل شيء إلا هذا .. ماذا ستفعل اذن ؟ ليست تدري . ليست تدري .

وكانت وردة منصرفة الى التفكير باهتمام وقلق ووجوم ، في حين كان صالح ابو العز جالساً قربها يدخن ويراقب وجهها بطرف خفي .. وساد الصمت برهة بينهما. ولم يلبث ان قطع صالح ابو العز حبل الصمت.قال : ليس امامك إلا طريق العمل في الحقل الفني يا وردة . ما لك إلا الرقص تخوضين غماره فتصبحين راقصة شهيرة ، تماماً مثل ابتسام ، وتتدفق الاموال الطائلة بين يديك ، وتنعمين بالسعادة والراحة والاطمئنان ..

ومضت وردة نصار في صمتها البارد العميق . واستغرقت في تفكيرها . صالح على حق . طريق الفن هو طريق المال والغنى والسعادة والهناء .. ولكن .. ولكن سيدتها حذرتها

من المسير في هـذا الطريق قبل ان ترحل عن هـذه الفانية . هل كانت ابتسام مخطئة يوم حذرتها من المسير في هذا الطريق؟. لا . من المؤكد ان ابتسام لم تكن مخطئـة ، وهي التي سارت طويلا في هـذا الطريق . واختبرت جوانبـه وأخاديده ومنعطفاته .. ولكن ماذا عليها ان تفعل الآن وهي واقعـة في مأزق حرج ؟ ليس امامهـا غير حلين : امـا ان تعود الى الخدمة في المنازل، وإما أن توافق على اقتراح ابي العز وتصبح راقصة شهيرة غنية واسعة الثراء ؟

واحتارت وردة نصار في امرها . اي طريق ستختار ؟ ليست تدري ..

وعـاد صالح ابو العز الى الكلام : « اسمعي من صديقك ابي العز يا وردة ،ولن تخسري »

قالت : « أنا لا اريد أن أصبح راقصة » .

قال : « اذن ستعودين كما كنت . خادمة تغسلين الصحون وتكنسين الدور وتنظفين الثيـاب القذرة الوسخة وتعيشين العمر تحت رحمة اسيادك تعانين مرارة الفقر والجوع والحرمان.

فهالها بيانه، وهي تلمس في ذلك البيان الصراحة والصدق والاسهاب ، هي لن تعود الى حياتها السابقة .. لا ، لن تعود الى الاقامة في المطابخ . لن تقيم وردة نصار في سوى القاعات الفخمة الرائعة التحف والرياش ..

وعاد الصمت يلفها بوشاحه البارد الكئيب.. وبعد صمت قصير، التفت صالح الى وردة ليقول : « على ماذا عولت ؟ »

قالت : « اترك لي مجال التفكير يا صالح » .

قال : « كما تريدين يا وردة . فكري ملياً بالأمر . عندما تقررين ان تكوني راقصة ستجدين ابواب هذا الملهى مشرعة امامك . وستجدين حبيبك وصديقك المخلص الوفي صالحاً أبا العز قربك ليمسك بيدك ويصعد بك سلالم الشهرة والمجد والثراء » ...

وكانت الساعة قد اشرفت على الثانية بعد منتصف الليل. وكان البرنامج قد اشرف على الانتهاء ، والزبائن الكرام بدأوا يغادرون الملهى، وهم يرمقون تلك الفتاة الرائعة الحسن والجمال، الجالسة قرب صاحب الملهى ، الغريبة عنهم ، التي يرونها للمرة الأولى ، يرمقون ، تلك الحسناء بنظرات الدهشة والوله ، والاعجاب .

والتفتت وردة نصار الى صديقها صالح لتقول : « لقد بدأ النعاس يثقل اجفاني يجب ان اعود الى الدار » . وضحك ابو العز وتمتم: « غداً عندما تصبحين راقصة شهيرة ستتعودين على السهر ، وستسهرين حتى مطلع الفجر البعيد » .

وابتسمت وردة وتمتمت: « لن أتعود على السهر، لأنني لن اصبح راقصة » .

قال : « سيخلق الله ما لا تعلمين يا وردة »

ونهضت وردة . ونهض معها ابو العز، وخرجا من الملهى ، ليدلفا الى سيارة ابي العز الانيقة الفخمة ، الجاثمة امام الملهى بكل فخر واعتـــداد .. وجلس ابو العز الى مقود السيارة. وجلست وردة قربه، وانطلقت السيارة بهما في شوارع بيروت المقفرة الى محلة الروشة حيث تقع دار وردة . وأوقف ابو العز محرك السيارة أمـام تلك البناية الفخمـة الشاهقة وتمتم : « لن اقضي ما بقي من الليل عندك يا وردة . سأتركك الليلة وحدك كي تفكري بمصيرك وتقرري مـــا يوحيه اليك العقل والمنطق » .

وهمست وردة : « كما تريد يا صالح ». قالت وردة هذا ، وترجلت من السيارة هامسة : « تصبح على خير » .

قال : « وأنت من اهل الخير يا وردة » ..

وأدار محرك السيارة وأطلق لها العنان .. ودخلت وردة نصار الى البناية الشاهقة، واستقلت المصعد الى الطابق السادس، ودخلت الى دارها لتتجه تواً الى غرفتها فتنزع عنها ثيابهـــا وترتدي ثياب النوم وتستلقي في سريرها محاولة الرقـاد . إلا انها لم تستطع الى الرقاد سبيلاً ، فقد اجتاحت رأسها أطياف وصور ومشاهد رائعة فاتنـة . أطيـاف الغنى وصور الشهرة ومشاهد الثراء ..

وراحت وردة نصار تلك الليلة ، تستعيد كل مـا قال لها ابو العز : « انت ستصبحين راقصة شهيرة وتنعمين بالغنى وبالشهرة وبالمال » .

واطمأنت وهي تستعيد كلمـــات ابي العز .. وأغمضت اجفانهـا واستغرقت في نوم عميق شاسع سحيق ، وانسابت الاحلام الى رأسهـا من خلال الاحلام فشاهدت نفسها ترتدي ثوب الرقص الفاضح الفضفاض ، وترقص رقصة رائعة فاتنة . وسمعت في الحلم تصفيق الجماهير لها فطربت وانتشت وازدهت وتباهت وهي تلمس في تلك الجماهير التقدير والإعجاب ، الا ان التصفيق لم يلبث ان انقلب الى دوي هائل في اذنيها ، الى دوي كدوي الرعد وكقصف المدافع حتى كاد يمزق اذنيهـا . وشعرت بأنهـــا ترقص فوق ابر وشوك ، وشعرت بالألم ؛ وشاهدت الدماء الغزيرة تنزف من قدميها الحافيتين، فتأوهت؛ وأنـّت وبكت .

واستفاقت فجأة من النوم لتجد نفسها ملقـاة في سريرها والدموع قـد بللت وسادتها . وكان نور الشمس الذهبي يغمر الغرفة متسرباً عبر زجاج النافذة . فوثبت من السرير لتغسل وجهها وتنصرف الى عملها ، وذلك الحلم الرهيب لا يزال ماثلاً لعينيها .

ومضت الايام ووردة نصار لا تزال مترددة حيرى، لا تعلم ماذا عليها ان تفعل. هل تمتهن الرقص، وتصبح راقصة شهيرة

غنية ، ام تستمع الى نصائح ابلسام وتبتعد عن مهنة الآلام والعذاب والدموع ؟

وكان صديقها الحبيب صالح ابو العز يتردد عليها دائماً ويشجعها على العمل في ملهاه ، وكانت وردة تدعوه ابداً الى التريث والانتظار ..

وتريث ابو العز وانتظر . وهو لا يجهل ان العصفور سيقع يوماً ما في الشرك ، وأن القفص سيطبق عليه .

ووقع العصفور في الشرك ، وأطبق القفص عليه .. فقد رأت وردة نفسها بحاجة الى المال. وقد انقضت الشهور القليلة. وأقبل صاحب الدار يطالبها ببدل الايجار .. وعزمت وردة على ان تعمل في ملهى ابي العز لتحصل على المال وتسدّد ما لصاحب الدار بذمتها من ديون .. ووثبت الى ابي العز تقول: « لقد حان الوقت وآن الأوان يا أبا العز »

فابتسم ابو العز وهمس : « ماذا يا وردة ؟.. هل اقتنعت الآن ؟.. »

قالت : « اقتنعت. سأعمل راقصة في ملهاك يا أبا العز »..

فأمسك صالح ابو العز بيدها قائلا : « تعالي معي يا وردة . تعالي الى الملهى . ستتمرنين على الرقص على انغام الموسيقيين » .

وسارت وردة نصار معه الى الملهى ..

ووقفت امام الموسيقيين . وجلس ابوالعز يستعرض رقصها ليصدر حكمه العادل ..

وبدأت وردة الرقص على انغام الموسيقى. ودهش الجميع. ابو العز ، والموسيقيون وهم يشاهدون ذلك الرقص الرائع البديع ..

كانت وردة نصار تجيد الرقص كل الاجادة.. كانت وردة تجيد الرقص وتتقنه اكثر من جميع راقصات ذلك الملهى .

وأعجب بها ابو العز شديد الاعجاب . ووثب يعانقها على مرأى من الموسيقيين صارخاً بها :

« انت لست بحاجة الى تلقي الدروس في فن الرقص ، ولا انت بحاجة الى تمرين .. انت استاذة في الرقص ، انت سيدة الرقص الشرقي يا وردة . لو عادت الراقصة ابتسام الى الحياة لما استطاعت ان تنافسك في مضمار الرقص الجميل » .

ووثب الموسيقيون اليها يهنئونها وقد اعجبوا برقصها البديع . وتأبط ابو العز ذراعها قائلاً :

« تعالي معي يا وردة .. تعالي .. انا سأختار لك اسماً فنياً موسيقياً شجياً .. انت ستدعين منذ اليوم الراقصة .. الراقصة .. الراقصة محاسن .. محاسن نصار . انت الراقصة

العـــالمية محاسن نصار . ستثيرين الاعجـاب وتلهبين الأكف بالتصفيق وستهتز خشبات المسرح تحت قدميك الرشيقتين » .

وسار بها الى مكتبه . وأجلسها قربه وهو يكاد لا يصدق انه وقع على هذه « الراقصة » التي هبطت عليه من السماء .. وردة او بالاحرى محاسن نصار هبة السماء، فهي راقصة قديرة مجيدة مبدعة ، وجميلة وصبية .. الزبائن سيتدفقون على ملهاه ليشاهدوا وينعموا بمرأى رقصها وبمجالستها وبحسو الخمر معها، والمال سيتدفق على صندوقه العامر الرحيب..ابوالعز سيتمسك بهـا وسيمد سلطانه عليها وسيتخذها عشيقة رسمية له فينعم بجمالها وبشبابها . هو لن يدع احداً يغزو قلبهـا ، فهو قريب منها ، والأقربون أولى بالمعروف ...

ومنذ ذلك اليوم ، منـذ خمس سنوات اصبح اسم وردة نصار ، الراقصة محاسن نصار .

وأصبحت محاسن عشيقة صالح ابو العز. وأصبحت صاحبة شهرة ومال ومقام رفيع بين زميلاتها الراقصات ..

ولم يكتف ابو العز بأن يجعل من محاسن نصار عشيقته وراقصة ملهاه ، بل هو اتخذ منها مصيدة لزبائنه الكرام .. فكان يدفع بهـا الى الزبائن لتسلبهم اموالهم وتجـود عليهم بالكلام المعسول وبالنظرات .. وأحيانـاً بالقبلات ايضاً .. لكل هبة ثمن عند محاسن نصار .. وفي نهـاية السهرة تتقاسم

الراقصة مع عشيقها ابي العز « الغلة » له النصف ولها النصف. والعدل سيد الاحكام ...

وكثيراً ما كان صالح ابو العز يجود بمحاسن على زملائه اصحاب الملاهي في الدول العربية ، فيتولّى بنفسه ابرام العقد بين الراقصة محاسن وصاحب الملهى . ويتقاضى دائماً نصف مرتب الراقصة الحسناء ..

ويوم سافرت محاسن الى بغداد وادعت امام حبيبها حبيب مرزوق انها سافرت لزيارة احدى نسيباتها في عاصمة الرشيد ، يومذاك ، لم تسافر الا لتعمل على مسرح احد ملاهي بغداد .. وعملت هناك في عاصمة الرشيد مدة شهر ثم عادت الى بيروت بالسلامة ..

وتدفق المال بين يدي الراقصة محاسن نصار فاشترت بناية شاهقة في شارع الحمراء ، اقامت في احد مساكنها مع صديقتها الراقصة انعام توفيق ، وقد ادعت امام حبيبها حبيب مرزوق ان انعام ابنة خالها ، وابتاعت سيارة « بويك » حديثة الصنع لامعة الجوانب ، وكانت تقود سيارتها الفخمة الانيقة بنفسها .. وعرفت محاسن نصار لذة الحياة ، وقد نعمت بالشهرة والمجد والثراء .

٩

السعادة المفقودة

طافت هـــذه الذكريات الآفلة الواهية البيضاء في رأس محاسن نصار وهي مستلقية على سريرها الوثير في دارهـــا في شارع الحمراء ، فأدمعت عيناها . كانت تلك الذكريات تمر في رأسها كأنها شريط سينمائي يمر امام عينيها. وتذكرت محاسن كلمات سيدتها الراقصة ابتسام التي نفحتها بهـا قبل ان ترحل عن هذه الدنيا الفانية .. مـــاذا قالت ابتسام ؟.. قالت : « في الحيــاة خبز ودمع . وعلى البائسة من النساء ان تذرف الدمع لتأكل الخبز». لقد قال الله تعالى لآدم: « بعرق جبينك تأكل خبزك » . هذا مـــا قاله الله عز وجل لآدم يا وردة . ولكننا نحن معشر البائسات نأكل خبزنا بدموع عيوننا » ..

هذا ما قالته الراقصة ابتسام لخادمتها وردة قبل رحيلها عن هذه الفانية .. وكانت ابتسام على حق .. مـــاذا قالت ابتسام لها ايضاً : « الرقص مهنة الدموع والآلام والعذاب . اياك يا وردة ان تفكري بالسير في هذا الطريق المظلم الموحش الموحل الرهيب » .

ليتها سمعت كلام ابتسام وعملت به . اذن ، لكانت الآن بألف الف خير .. مهنتها هـــذه ستحول بينها وبين حبيبها حبيب مرزوق ، ستقف بينها وبين سعادتها .. من يأخذ منها مالها كله وشهرتها كلها ويبيعها بهـــا ذرة صغيرة من سعادة وهناء ..

محاسن نصار وقعت الآن في الشرك ، بعد ان اوقعت الكثيرين في شركها ..

كانت تهزأ بالحب وبالمحبين ، فانتقم الحب منها وأوقعها في ناره المحرقة ، المتقدة السعير

وتذكرت محاسن نصار، وهي مستلقية على سريرها تدخن وتفكر ، تذكرت ذلك الحلم المخيف الذي شاهدته منذ خمس سنوات ، يوم كان اسمها وردة .. لقد شاهدت نفسها في الحلم ترقص حافية القدمين وكأنها ترقص على شوك وإبر، وشاهدت الدماء تنزف من قدميها .. ثم ، ثم سمعت ، في الحلم ، تصفيق الجماهير اعجاباً بهـا ، واذا بذلك التصفيق ينقلب الى دوي كدوي الرعود والى قصف كقصف المدافع .

ووجمت محاسن وهي تتذكر الحلم الرهيب ، هذا الحلم بدأ يتحقق الآن .. الأبر تدمي قلبها لا قدميها . والشوك يثخن فؤادها بالجراح ، يا ويلها ، يا ويلها ..

وانهمرت الدموع غزيرة من مقلتيها . لقد بكت الراقصة

محاسن بدموع غزيرة حمراء دون ان تعلم لماذا تبكي ولماذا تذرف الدموع الغزيرة .

واذا بباب غرفتها يفتح وتدخل منه صديقتها وزميلتها الراقصة إنعام توفيق . وإنعام كانت تعيش معها في دارها . ووثبت الراقصة انعام الى صديقتها الحبيبة محاسن لتجلس قربها على السرير والفرحة تغمر قلبها وروحها وتقول :

« لقد تأخرت في العودة الى الدار يا محاسن . كنتُ معه ، مع حبيبي سمير . لقد تناولت طعام الغداء معه على شاطىء البحر ثم قمنا معاً بنزهة في جبال لبنان . انهضي . انهضي يا محاسن وارتدي ثيابك يا اختي . الساعة بدأت تميل الى الثامنة من الليل . يجب ان نشخص الى عملنا في الملهى ».

ولم تجب محاسن بحرف . ولم تتحرك . وحدقت انعام بعيني صديقتها محاسن لترتد على ذعر . وهمست : « محاسن ا. انت تبكين يا محاسن ؟ » ومسحت محاسن نصار دموعها بكفها.وهمست : « دعيني . دعيني وحدي يا انعام . أريد ان ابكي اريد ان أذرف كل ما في عيني من دموع لعل دموعي تطفىء النار المندلعة في فؤادي ، لعل هذه الدموع تخمد لهيب الحزن المتقد في قلبي » .

واستلقت انعام قرب صديقتها محاسن على السرير وطوقتها بذراعيها.وتمتمت « محاسن ! اخبريني ما بك يا حبيبتي . ماذا

يعذبك ماذا يشجيك ؟ ».ولم تجب محاسن ، بل هي راحت تبكي بصمت موجع بارد كئيب .

وعادت انعام الى الكلام لتقول ، وقــد أدركت بثاقب بصيرتها الحقيقة المؤلمــة : « محاسن ا.. هل وقعت في شرك الحب ؟ ».وفاضت الدموع غزيرة من عيني محاسن،وأيقنت انعام أنها اصابت الداء . صديقتها محاسن تحب . انها تحب حبــاً صادقاً . حباً صادراً عن القلب وعن الروح ، حباً أضرم النار في قلبها وغمر عينيها بالدموع ..

وانعام ليست غريبة عن أورشليم . فقد ذاقت الحب اكثر من مرة . ووقفت وقفة محاسن اكثر من مرة ، وبكت اكثر من مرة . وهي الآن تحب . انها لتحب نجل وجيه ثري غني. تحبه حباً هادئاً . هي لا تبكي لحبــــه ، ولا تتألم . اذا ظل حبيبها قربها كان خيراً ، وان رحل وجدت غيره مئة حبيب. اما هي فلن تتخلى عنه ما دام ينفق عليها بكرم وسخاء ...

وهمست الراقصة انعــام في اذن صديقتها : « محاسن . لا تبكي يا اختي . لا تذرفي هــذه الدموع الغزيرة الثمينة . ليس هناك شاب في العالم يستحق انتذرف من اجله دمعة واحدة . العالم مليء بالشبان . اذا فقدت أحداانا حبيبها استطاعت ان تجد غيره مئة حبيب . انت جميــلة رصبية وشهيرة وغنية كل شاب يتمنى ان يظفر بقلبك . المعجبون والمحبون والطامعون

بقلبك كثيرون .. مـــا لك الا ان تختاري واحداً منهم يا محاسن. هناك نجل الوزير وابن النائب.هناك التاجر والصناعي وصاحب المصرف ، ومدير الشركة .. كثيرون يـــا محاسن يتوددون اليك ويتمنون ان تكوني عندهم الحبيبة المصون » .

وعادت محاسن نصار تمسح دموعها بكفها لتهمس : « انا لا أرى احداً منهم . لا افكر بأحد منهم . لا اريد احـــداً منهم . اريده هو . هو وحده يا انعـــام ».فتمتمت الراقصة انعام : « أيكون غنياً ؟ » وهزت محاسن رأسهـا.وهمست : غني ؟.. انت لا تفكرين بسوى المال يا انعام . ليس المـــال كل شيء في الحياة . لا يا انعام . لا يا اختي . هو ليس غنياً. انه فقير ».فوجمت انعـــام توغين . وتمتمت بتساؤل ملحاح : « فقير ؟.. وتحبينه ؟.. وتذرفين الدموع من اجـله ؟.. مجنونة » . قالت محاسن : « هو عندي الدنيا بأمرهـا . قلامة من ظفره تساوي عندي كل ما في العالم من مال. نظرة من عينيه تساوي لدي كل ما في الدنيا من ذهب .. »

فضحكت انعام.وتمتمت : « أتكونين طفـلة يا محاسن ؟ أتكونين فتاة صغيرة مراهقة لم تجرب الحب ولم تعرف خفاياه وأسراره ؟ أي قلامة ظفر تساوي مال العـالم بأسره ؟. اي نظرة توازي الذهب يا محاسن ؟. اعقـلي يا اختي . لا تكوني مجنونة يا محاسن . لا تلقي بنفسك في النار . اسمعي مني ولن تخسري يا محاسن » وهمست محاسن: « ليتني قادرة على الابتعاد

عنه يا انعــام . ليتني قادرة على اقصاء طيفه عن وسادتي ، ليتني قادرة على انتزاع حبــه من قلبي ، ليتني استطيع ان أمزق هذا الصدر وانتزع منه قلبي وأحرقه وأخلص منه »..

فأمسكت الراقصة انعــام بيد صديقتها محاسن لتقول : « لماذا تمزقين صدرك وتحرقين قلبك ؟. مــا دمت غير قادرة على انتزاع حبه من صدرك تستطيعين ان تمضي في حبه، يمكنك ان تحبيه وان تهبيه ما تهبين غيره من حب وعطف وشوق وغرام » .

فهزت محاسن نصار رأسها بأسف وأسى لتقول : « لا يا انعام . لا انا لا اريد ان اعامله كما اعامل عشاقي الكثيرين ، لا اريد ان اجعل منه عشيقاً . اريده حبيباً لا عشيقاً . اريد ان اكون له وحده » .

فعادت انعام الى التمتمة : « مجنونــة » . قالت محاسن : « قد اكون مجنونة يا انعام الا انني راضية بجنوني » ..

ونهضت انعام لتقول : « قومي قومي يا محاسن . انهضي يا اختي وارتدي ثيابك ، لقــد تأخرنا عن موعد العمل . » .. ولم تنهض محاسن . بل هي التفتت الى صديقتها لتقول : « لا يا انعام . لا . انا لن اذهب الليلة الى الملهى . انا تعبة . انا حزينة القلب . لا استطيع ان اعمل الليلة، لا استطيع ان ارقص، لا استطيع ان أساير الزبائن لا استطيع ان أمازحهم

وأتودد اليهم وأحسو الخمر معهم . اذهبي وحـــدك الى الملهى الليلة يا انعام » .

وأمسكت انعام بيد محاسن لتقول : « انهضي يا محاسن . يجب ان تهتمي بعملك قبل كل شيء . ان ابا العز سيغضب اذا تخلفت عن الذهاب الى الملهى الليلة.. تعالي يا اختي».وأرغمتها على النهوض من السرير . ووثبت الى المذياع تديره قائلة :

سنستمع ونحن نرتدي ثيابنا الى الاغـاني والى الموسيقى . الموسيقى تفرح القلب يا محاسن وتنعش الروح » وسرى التيار الكهربائي في اسلاك المذياع . واستمعت محاسن .. استمعت الى المطربة رجـاء عبده تغني : « حبايبي كتير بيحبوني لكن انت اللي شاغلني .. »

وعادت الدموع تموج في عينيها وكلمات الاغنية تنساب الى اذنيها : « يا ريت الكل ينسوني وتبقى انتَ فاكرني » .

وتدحرجت الدموع على خديها وهي ترتدي ثيابها ...

وراحت انعـــام تواسيها وتشجعها وتطلب اليها الاسراع في ارتداء ثيابها ... وادركت انعام ان اغنية المطربة رجـــاء اثارت حنين صديقتها وشوقها وحنانها فوثبت الى المذياع تخمد انفاسه .. ثم عادت ترتدي ثيابها على عجل وتمسك بيد محاسن قائلة : « تعالي . تعالي » .

وخرجتا من الدار ، ودلفتا الى سيارة محاسن، الى سيارة البويك الفخمة الانيقــة الحديثة الصنع ، الى سيارة محاسن ، وجلست محاسن الى مقود السيارة ، وجلست انعام قربهـا . وطارت السيارة بهـــما الى الملهى القائم من ساحة الشهداء في الصميم ...

ودخلت محاسن مع زميلتها انعام الى ذلــك الملهى وكأنها تدخل الى السجن ، كأنها تدخل الى القبر .. ورحب الزبائن بهـــا ، على عادتهم ، وسكبوا في اذنيها كلمات الترحيب والاعجاب إلا أن تلك الكلمات كانت تقع في اذنيها كالحراب، كالحمم . كانت كلماتهم تلسع اذنيها وتحرق قلبها .

.. وجلست في آخر القاعة وحدهـــا تدخن وتفكر .. ولم يلبث ان اقبل ابو العز والابتسامة تشع على شفتيه . وجلس قربهـا يمازحها ويتودد اليها إلا أنهـا كانت بعيدة عنه بتفكيرها بعد الارض عن السماء . كانت قربه بجسدها فقط ، وكانت بروحها هناك ، عند حبيبها حبيب مرزوق ..

واقبــل الزبائن الكرام يجلسون قربها ويحيطونها باهتمامهم وبسخائهم وبعطفهم ويجودون عليها بالخمر وبالهدايا ، إلا أنهـا لم تكن لترتاح اليهم ولا لتغدق عليهم النظرات الحالمــة والابتسامات الوضاحة السناء كعادتها .

كانت محاسن شاردة الذهن تائهــة النظرات دامعة العين

كسيرة الجناح ... ولمس ابو العز فيهـا الاسى والألم والعذاب فقلق . وأمسك بيدها يقول : « مـــا بك يا محاسن ؟ » وسحبت يدها من يده لتقول : « لا شيء لا شيء يا صالح » قال : « انت على غــير عادتك الليلة يا محاسن » قالت : « الحقيقة هي انني اشعر بصداع بسيط » قال : « عودي الى الدار يا حبيبتي واستريحي » قالت : « سأعود بعـد أن اقوم بواجبي . سأرقص كعادتي واعود تواً الى الدار » .

ورقصت .. قامت بواجبها . رقصت وكأنهـا ترقص على ابر وحمم وشوك .. وعادت الى الذكريات فتذكرت الحلم .. كانت في الحلم ترقص على ابر وشوك .. الحلم يتحقق الآن .. ومـا ان انهت رقصها حتى حملت محفظتها ووثبت الى انعام لتقول : « سأعود وحدي الآن الى الدار . ستلحقين بي يا انعام عندما تنهين عملك » قالت هـذا واسرعت بالخروج من الملهى لتستقل سيارتها الى شارع الحمراء .

وطوت السيارة بهـا الشوارع الفسيحة الارجاء على سرعة هائلة . كانت محاسن تقود سيارتها بسرعة رهيبة . وكأنهـا تريــد أن تهرب من هواجسها وآلامها وعذابها .. ووصلت السيارة بهـا الى شارع الحمراء ، واوقفت محاسن السيارة امام بنايتها . وترجلت من السيارة لتصعد الى دارهـا فتنزع عنها ثيابهـا وتستلقي في سريرها والألم يحز في قلبها ويحرق فؤدها الهائم الموجع الولوع ..

وراحت تفكر : غـــداً موعدها مع حبيب على شاطىء المعاملتين .. هل توافيه الى الموعد المضروب ؟.. لا. لا. مـا لها وله . لماذا تعذبه وتعذب قلبها .. هي لن تستطيع أن تحبه كما يحبها ، لا تستطيـع أن تخلص له . لا تستطيع أن تهبه قلباً طاهراً مقدساً شريفاً ولا جسداً نقياً عفيفاً. فلتهرب منه . فلتنقذه وتنقذ قلبها من العذاب. محاسن نصار لن توافي حبيبها حبيب مرزوق الى الموعد المضروب . لن تراه ، لـن تنعم بمرأى ابتسامة ثغره ونظرة عينيه .. ستبتعد عنـه الى الابد . لن تراه بعـد اليوم لن تراه . يا ويلها ، يا ويلها .. وفاضت دموعها وبـدأت تلك الدموع تتدحرج على وجنتيها ومـن وجنتيها تنساب الى الوسادة البيضاء لتبللها.وحاولت محاسن نصار أن تحبس دمعها إلا أنهـا عجزت .. كان دمعها أقوى وأشد منها ، وكانت تجهش بالبكاء كالاطفال .

* * *

الراقصة محـــاسن نصار تقيم على قلق وحيرة ووجوم .. اليوم موعدها مع حبيب القلب والروح ، مع حبيب مرزوق على شاطىء المعاملتين.ترى هل توافيه الى الموعد المضروب؟.. هل تشخص الى الشاطىء الحالم الجميل الفسيح الارجاء ؟ هل تبر بوعدها الذي قطعته لحبيب ؟..

لا ، لا ، لا ، هي لن تجتمع بحبيب مرزوق ، لن توافيه الى الموعـــد المضروب ، لن تشخص الى شاطي المعاملتين . حبها هذا حب بلا امل فلماذا تعلل قلبهـا بمـا لا امل يرتجى

منه . حبيب مرزوق لن يكون لها ، ولا هي تستطيع ان تكون له .. الفراق سيكون نهاية المطاف بينهما .. فلماذا لا يفترقان اليوم ، والفراق اليوم أهون وأيسر منه غداً . ان هي ابتعدت عنه اليوم تعذبت ، وبكت الا انها ستتمكن اخيراً من السيطرة على عاطفتها ، ولكنها ان هي تورطت في غرامه وتوغلت في طريق حبه ، عجزت عن العودة الى الوراء وكان النسيان ضرباً من المحال . لماذا اذن تسير في طريق لا تستطيع الوصول فيه الى النهاية؟..لماذا تعذب قلبها وتعذب قلب هذا الشاب البائس المسكين ؟ لماذا تحمل الى عينيها والى عينيه الدموع ؟ لماذا تثخن قلبها وقلبه بالجراح؟.. مالها وله، فلتسر في طريقها المحفوف بالأشواك، ولتدعه يسير في طريقه، طريقها غير طريقه ، وطريقه غير طريقها . لا هي تستطيع ان تسير في طريقه ؛ ولا هو يستطيع ان يسير في طريقها ..

وعزمت محاسن نصار على الابتعاد عن حبيب مرزوق وهمست وهي تمسح دموعها : لا . لا . لن اوافيه الى الموعد المضروب ، لن اوافيه ..

ومضت الساعات بطيئة ثقيلة حيرى على قلب محاسن وهي جالسة على سريرها الوثير في غرفتها الفخمة الأنيقة ، وراحت محاسن تفكر وتبكي . الابتعاد عن حبيب مرزوق ليس بالأمر السهل اليسير . لقد استطاع حبيب مرزوق ان يملك عليها عاطفتها وشعورها ، استطاع ان يغمر قلبها بنور

الحب الساطع الجميل . استطاع ان يحتل من القلب حبته ومن الروح الصميم ، كيف ستبتعد عنه ؟.. كيف تستطيع ان ان تبتعد عنه وأن تقصي خياله عن رأسها وتبعد طيفه عن وسادتها طيلة الليل ؟ هو حياتها ، وهل يستطيع المرء ان يبتعد عن حياته ، انه روحها وهل يستطيع الانسان ان يحيا بدون روحه. وهو نور عينيها ، وكيف يستطيع الانسان ان يحيا بدون نور عينيه ؟..

وفاضت دموع محاسن نصار غزيرة من عينيها وقد عزمت على الابتعاد عن حبيب مرزوق . ونهضت وراحت ترتدي ثيابها على مهل وهي تبكي .. لماذا ترتدي ثيابها ؟.. ليست تدري .

ومضت محاسن في ارتداء ثيابها وهي تبكي .. وراحت ترمق الساعة الذهبية المشدودة الى معصمها بنظرات سريعة كأنها على موعد مهم خطير .. وانتهت من ارتداء ثيابها وعادت تجلس على سريرها لتدخن بقلق وحيرة واضطراب . وانصرفت الى التفكير .. وتساءلت : لماذا ارتديت ثيابي؟.. الى أين سأسير ؟.. الى اين سأشخص ؟.. ولم تستطع ان تجيب نفسها على سؤال واحد من هذه الاسئلة ..

واستغرقت في تفكيرها .. كانت تفكر بحبيبها ، بحبيب مرزوق . هي لن تراه بعد اليوم ، لن تقع منها العين عليه .

ستهرب منه . ستبتعد عنه لتنقذه من النار المحدقة به . انها وباء فلتبتعد عنه قبل ان ينتقل الوباء اليه .

ولكن هل تبتعد عنه فجأة دون وداع ، ودون كلمة ، ودون نظرة ، ودون ابتسامة ؟.. لا . لا . هي ستقابله ، ستقابله للمرة الاخيرة . ستقابله مرة واحدة . واحدة فقط . هي ستوافيه الآن الى الموعد المضروب ، وتجلس قربه ، وتنعم بحديثه العذب الشجي ، ثم تودعه وتعود ادراجها . وسيكون هذا اللقاء ، اللقاء الاخير بينهما ...

وراقتها الفكرة الموفقة فمسحت دموعها ، ووقفت امام المرآة تسرح شعرها وتصبغ وجنتيها بالابيض وشفتيها بالاحمر وتسكب العطور على راحتيها وعلى شعرها وتهم بالخروج من الغرفة ..

واذا بصديقتها وزميلتها انعام تطل عليها .. وهمست إنعام وهي تشاهد محاسن في ثيابها الانيقة : ما بك يا محاسن؟ لقد ابكرت في النهوض من النوم اليوم ؟ أتكونين على موعد مع أحد الزبائن الاثرياء ؟

وهمست محاسن : لا يا انعام .. لا ، انا لست على موعد مع ثري كبير انني على موعد مع شاب بائس فقير .

فارتسمت الابتسامة على شفتي انعام ، وهمست : مجنونة .

هل ترتدين هـذه الثياب الانيقة وتحلـّين جيـدك وأصابعك ومعصميك بهـذه الحلى الثمينـة ، وتسكبين على شعرك وعلى راحتيك هذا العطر الفواح الشذا من اجل شاب بائس فقير؟ »

قالت محـاسن : « هذا الشاب البائس الفقير هو عنـدي افضل من جميع اثرياء العالم يا انعام » .

فقهقهت انعام توفيق .وتمتمت : « لقد بدأت اشك بسلامة عقلك يا محاسن . بماذا يستطيع ان يجود عليك حبيبك هذا ؟ ماذا يستطيع ان يقدم لك من الحلى والجواهر والثياب ؟ ماذا يستطيع ان يقدم لك من الخدمات ؟ اتجودين عليـه بالعاطفة والحب والقبلات اكراماً لوجه الله الكريم ؟ »

فهمست الراقصة محاسن: «لقد وهبني كل شيء يا انعام» .

وتمتمت انعام : « ماذا وهبك ؟ هل تستطيعين ان تقولي ماذا وهبك ؟ »

قالت محاسن: «لقد وهبني الحب . الحب المقدس الشريف حب الروح للروح ، لا حب الجسد للجسد » .

قالت انعام بهزء وسخرية : «والحب المقدس الشريف هذا هل يبتاع لك ثوبـاً جديداً ام يشتري لك حلية او جوهرة ثمينة ؟ ماذا يفيدك هذا الحب يا محاسن ؟ »

قالت محاسن : « الحب يا انعـام هو كل شيء . يهب كل

شيء دون ان يطلب شيئاً . هو اتحاد روحين يا انعـام . هو السعادة ، كل السعادة والهناء ، كل الهناء » .

فضحكت انعام الراقصة وتمتمت : « ولذلك فقـد كنت تبكين وتتألمين ليلة امس ، أليس كذلك ؟ »

قـالت محاسن : « لذة الحب الحقيقي هي في الألم ، في الدموع . كلما تألم المحب ازداد سعادة وكلما بكى ازداد هناء يا انعام ».

فعادت انعام الى القهقهة. وهمست : « اذا كان هـذا هو الحب يا محاسن فانني لأصلي اليه تعالى ان يبعده عني فأنا لست مستعدة لأن أبكي وأن أتألم وأتعذب » .

قالت محاسن : « انني لأطلب اليه تعالى انا ايضاً ان يبعد الحب عنك يا انعام ، لأنك لن تستطيعي ان تصمدي حيـال عاصفته الهوجاء ولا أن تحترقي بناره اللاهبة المتقدة السعير» .

فأمسكت انعام بيـد صديقتها لتقول : « محاسن !.. لا تهيمي في عالم الخيال يا اختي . كوني واقعية في الحياة يا محاسن. نحن لم نخلق لنحب ونعشق ونبكي ونتألم .. ما لنـا وللحب يا محاسن ، ما لنا وللهوى، يكفينا همنا . تكفينا مصيبتنا . لقد اوجدنا الله في هـذه البيئة لنساير ونسامر ونضحك على ذقون الشبان ونسلبهم اموالهم. علينا ان نهتم بعملنا يا محاسن.

علينا ان نجمع المـــال لنحتفظ بالقرش الابيض لليوم الاسود وذلك اليوم ، اليوم الاسود ، سيطل علينا قريبـاً يا اختي . غداً ، عندما تتقدم بنا السن وتدهمنا الشيخوخة ، لن نجـد من يجود علينا بليرة واحدة . علينا ان ننظر الى المستقبل الآتي القريب يا محاسن ، علينا ان نتخذ الحيطة منـذ اليوم . اذا لم نوفر اليوم المال سنضطر يوماً الى التسول ، ولن نجد من يجود علينا بقرش . المعجبون بنا سيبتعدون عنـــا بعد ان تدهمنا الشيخوخة . المحبون سيتفرقون ليبحثوا عن راقصات جميلات غيرنا . لا تضيعي الوقت في موافاة حبيبك هـذا الى مواعيده ، كل دقيقة تمر علينا يجب ان تتقاضي ثمنهـا . اذا لم يكن حبيبك هـذا غنياً ، واذا لم يكن قادراً على الانفـاق فاديري له ظهرك وسيري في سبيلك. عشرات المعجبين يتمنون الآن ان تسايريهم وان تجودي عليهم بالقبلات وبالعناق لقـاء المال الوفير. اجمعي المال الآن . لا تهتمي إلا بالمال يا محاسن . افعلي كما تفعل اختك انعام ولن تكوني الخاسرة » ..

فهمست محاسن نصار : « لا يا انعـام ، لا يا اختي . لن أسعى بعد اليوم في أثر المال وعندي منـه الكثير . لدي من المال ما يكفيني العمر كله . انت تعلمين انني أملك هـــذه البناية ، وأن لدي مبلغاً كبيراً من المال في المصارف اللبنانية. انا لست بحاجة الى المال، انني بحاجة الى الراحة، الى السعادة. والمال ما كان يوماً ليوفر للانسان الراحة والسعادة والهناء» .

فهزت انعـام توفيق رأسها بهزء وتمتمت : « السعادة كلها في المـــال يا محاسن فلا تحاولي ان تخرجي عن الحقيقة ، ولا تحاولي البحث عن السعادة في غير المال والذهب » .

وقابلت محـــاسن هزء زميلتها بالهزء ايضاً فارتسمت على شفتيها ابتسامة هازئة وهمست : « كل منـا في العالم من مال لا يستطيع ان يوفر لـك ذرة صغيرة من السعادة . قـولي لي يا انعام، هل يستطيع كل ما في العالم من مال ان يشفي مريضاً من دائه ؟ او ان يعيد اليك حبيبـاً من وراء القبر ؟ قولي لي هل تستطيعين ان تشتري بكل ما في العالم من مال صفو القلب وراحـة الضمير ؟ هل تستطيعين ان تبتاعي حفنة صغيرة من حب طاهر مقدس شريف ؟ »

قالت انعام ، وهي تريد اختصار الحديث : « رأيك هو غير رأيي ، يا محـاسن ، وتفكيرك هو غير تفكيري . انا لا أؤمن بسوى الحقائق ولا اريد ان أهيم في عالم الخيال. نصيحتي اليك ان تبتعدي عن هذا الشاب الفقير الذي اوقعك في شرك حبه وهواه .

فحملت محاسن محفظتهـــا وسارت وهي تتمتم : « انا شاخصة الآن اليه يا انعـام . إلا أن هذا اللقاء بيننا سيكون اللقاء الاخير » .

قالت انعام : « لقد بدأت اذن تستمعي الى نصائحي » .

قالت : « لا . انا لن ابتعد عنه لأنه فقير يا انعام ، بل لأنني احبه ولا أريد أن ألوث اسمه بأسمي ، لا أريد أن اخدعه، لا أريد أن اعذبه وأعذب قلبي . سأبتعد عنه . لن أراه بعد اليوم ، هذه المرة الاخيرة التي أراه فيها » .. وأدمعت عيناها .. وسارت .. وخرجت من الدار لتستقل سيارتها الفخمة الانيقة وتطير بها الى شاطىء المعاملتين الهادىء الساجي الرحيب .

ووصلت الى الشاطىء الحالم الفسيح الارجاء ، وترجلت من السيارة ووثبت الى « الكابين » تنزع عنها ثيابها وترتدي ثوب البحر القاني الاحمرار .. وخرجت تبحث بين السابحين عن حبيب مرزوق ، عن حبيب القلب والروح . إلا أن حبيباً لم يكن بين السابحين. لم يكن حبيب في ذلك الشاطىء. وهمست محاسن في سرها : « يبدو انه تأخر في الوصول الى الشاطىء . هو سيحضر بعد قليل . سأنتظره. من المؤكد انه سيحضر . فهو في اشتياق اليّ كما انني في اشتياق اليه » .

وتمددت محاسن نصار فوق الرمال تحت المظلة الخضراء وراحت تفكر : ماذا ستقول لحبيب عندما يحضر ؟ هل تعلن له عزمها على الابتعاد عنه ؟ هل تقول له : « انا سأبتعد عنك الى الأبد ؟» هل تعلن له الحقيقة المؤلمة الرهيبة ؟ هل تعترف له بأنها راقصة وانها تعرض جسدها العاري كل ليلة على

المسارح امـــام العيون النهمة الجشمة الجائعة العطشى؟ لا لا وألف لا...

ان الموت اهون لديها من الاعتراف بهذه الحقيقة المؤلمة الجارحة ماذا ستقول له اذن ؟ ستقول : « انا مضطرة للسفر الى بغداد غداً يا حبيب . سأترك بيروت صباح غد الى العاصمة العراقية الخضراء ولا اعلم متى سأعود الى لبنان . ان نسيبتي في بغداد مريضة ، وهي تدعوني اليها . ارجو أن اراك يا حبيبي بعـد عودتي » .. تقول له هـذا وتودعه بقبلة فيها كل معاني الحب والعطف والحنان وتسرع بالهرب .. وهكذا ينتهي كل شيء، ويتلاشى ذلك الحلم الجميل الذي عاشت فيه الايام القليلة الافلة.

وراحت محاسن نصار تستعرض السابحين المنتشرين فـوق الرمال باحثة بينهم عن حبيب، إلا أنها لم توفق في العثور عليه. حبيب ليس هناك . وهو ليس بين المستحمين . ولو انـه كان هناك لأسرع اليها . سيبحث عنها قبـل أن تبحث هي نفسها عنه . اين هو اذن ؟ لـماذا تخلف عن الحضور الى الشاطىء ؟ لماذا اخلف موعده معها ؟ هل هو سيحضر ؟ .. اجل . من المؤكد انه سيحضر . بعد قليل سيكون قربها .

واحست بالجوع، وشاءت أن تتناول طعام الغداء على ذلك الشاطىء ، إلا أنهـــا رأت أن تنتظر حضور حبيب. هي لن تتناول الطعام وحدها ، ستتناوله مع حبيب . وتجلس قربه

وتتناول الطعام معه أمـام الامواج الساجية الزرقـاء ، فوق الرمال الباسمة في الهواء الطلق. هذه هي المرة الاولى و الاخيرة التي تتناول فيها محاسن نصار طعام الغداء مع حبيبها حبيب مرزوق ..

وأقامت تنتظر حضور الحبيب الولوع.إلا أن انتظارها طال وما بان للحبيب أثر . وبدأت الهواجس تقلق خاطرها. وبدأت الأفكار القاتمة السواد تعذبها . وشعرت بحاجة ملحاح الى البكاء .فتمنت لو أنهـا تستطيع أن تسكب كل ما في عينيها من دموع . تمنت لو أنهـا تستطيع البكاء لعل الدموع تطفىء ذلك اللهيب المتقد في صدرها . إلا أنها ابت ان تسمح لدموعها بالانهيار ، وهي هنـاك ، على الشاطىء والسابحون والسابحات يحيطون بها من كل جانب وصوب ..

ومضت الدقائق على سرعة واندفـاع ، ومحاسن نصار تتمنى أن تبطىء تلك الدقائق في سيرهـا . وكانت محاسن تراقب الساعة الذهبية المشدودة الى معصمها من حين الى آخر ثم تعود الى البحث بين السابحين عن حبيب .

. وأشرفت الساعة على الثانية بعد الظهر وحبيب لم يطل . ثم وثب العقربان الى الثانية والنصف وحبيب لم يبن له اثر .. ومضت الساعة في مسيرها السريع .. الساعة الثالثة ، الساعة الثالثة والنصف ، الساعة الرابعة ، الساعة الخامسة .. الساعة

الخامسة والنصف .. السادسة .. السادسة والنصف وحبيب مرزوق لم يبن ..

ولم تعـد محاسن تشعر بالجوع .. القلق والحزن والألم والاضطراب ، كل هذه الاشياء خنقت فيها كل شهية للطعام . وبدأت الشمس تتأهب للأفول . بـدأت تتأهب للانحدار الى ما وراء الامواج الساجية الزرقاء . وكانت الامواج ، وقـد بدت مخضبة بنور الشمس الاحمر الواهي ، تندفع الى الشاطىء مرسلة همساً اشبه بهمس العاشقين المتيمين، إلا أن ذلك الهمس كان يقع في أذن محـاسن نصار كدوي المدافع وكقصف الرعود .

وبدا الشاطىء الحالم رائعاً فاتنـاً جميلاً والغروب يلفه بأجنحته الواهيـة الحمراء . إلا أن محاسن لم تكن ترى ذلك الجمال . كانت نفسها حزينة وكان كل مـا في نظرها مدلهمـاً قاتم السواد . وتدحرجت الشمس وراء الأفق البعيد الفسيح الارجاء تاركة ورائهـا خيوطاً حمراء ساهمة وأجمة فوق الامواج . وبدأت جحافل الظلام تتأهب للوثوب الى جبـال لبنان والى وهاده وسفوحه وسهوله وشواطئه .

ونهضت محاسن نصار ، وقد أيقنت ان حبيباً لن يحضر . لقد اخلف حبيب موعده معها.. لماذا ؟ ليست تدري لماذا..

وسارت محاسن ، سارت تجر رجليها جراً فوق الرمال .

وشخصت الى « كابينها » لترتدي ثيابها على عياء وعناء ، ثم تتجه الى سيارتها فلستقلها وتطلق لها العنان .

وشعرت محاسن بألم شديد يعصف برأسها والسيارة تبتعد بها عن ذلك الشاطىء ، شعرت بأنفاسها تضيق في صدرها ، وتمنت لو ان السيارة تطير بهـا الى شارع الحمراء لتـدخل الى غرفتها وتوصد وراءها الباب وتفرغ كل مـا في عينيها من دموع ..

وضاعفت محاسن سرعة السيارة .. وانطلقت السيارة بها تطوي الطريق الطويل الفسيح الأرجاء طياً ويخيل اليها ، الى محاسن ، ان السيارة متوقفة عن المسير .

وأخيراً وصلت بهـا السيارة الى شارع الحمراء وأوقفت محاسن محرك السيارة امام بنايتهـا ، وترجلت لتدخل الى البناية وتستقل المصعد الى دارها..ودخلت الى الدار.. وكانت انعـام جالسة في البهو ترشف القهوة وتدخن ، وتطالع مجـلة فنية ..

ووثبت انعام الى صديقتها محاسن لتقول: « لقد تأخرت في العودة يا محاسن . ماذا ؟ هل شاهدته ؟ هل قضيت طيلة النهار معه ؟ »

ولم تجب محاسن نصـار بحرف ، بل هي اسرعت الى غرفتها لتلقي بمحفظتها من يدها وترمي على السرير بثيابها

وتجهش بالبكاء. لقد انفجرت دموع محاسن المحبوسة، انفجرت فجأة على هطول وانهار .

ولحقت انعام بها، ففتحت الباب ودخلت عليها لتشاهدها على تلك الحال .. ووجمت انعام وهي تشاهد صديقتها الحبيبة محاسن في بكائها ونحيبها. وجلست قربها على السرير تداعب شعرها الحريري بأصابعها : « محاسن ؟.. ما بك يا اختي؟.. ما بك يا حبيبتي ؟.. لماذا تبكين محاسن ؟ »

ولم تجب محاسن نصار، لم تنبس بكلمة، لم تستطع ان تهمس بحرف .. كانت الدموع تخنق الكلمات على شفتيها .. وراحت انعام تكفكف دموع صديقتها وتهمس : « محاسن. اخبريني يا محاسن ما بك. بوحي لي بهذا السر الذي يعذبك. انت لم تكوني لتخفي عني سراً . لماذا تبكين محاسن ؟ »

ونظرت محاسن نصار الى صديقتها انعام من خلال دموعها دون أن تنطق بحرف .. وضمتها انعام الى صدرها وراحت تستدرجها للكلام .. قالت : « هل تخاصمت واياه ؟ »

ولم تجب ..

— « هل قطعت كل علاقة به ؟ »

ولم تنبس محاسن بحرف .

— « هل أهانك ؟ هل شتمك ؟ قولي لي ماذا جرى ؟ ما بك يا محاسن ؟ »

ولم تستطع محاسن ان تجيب .. كانت الدموع تنهمر غزيرة من عينيها والعبرات تخنقها .

ونهضت انعام لتقول : « سأهيىء لك فنجان قهوة . وكأس ليموناضة .. انت لن تستطيعي ان تنطقي بحرف الآن » ...

قالت انعام هذا وأسرعت بالدخول الى المطبخ لتهيء كأس ليموناضة ثم تحمل الكأس وتعود بها الى محاسن قائلة: «خذي اشربي هذه الكأس يا محاسن ، ريثما اهيء لك القهوة » .

وبيد مرتجفة تناولت محاسن الكأس وراحت ترشفها على مهل ..

وعادت انعام الى المطبخ.. وبعد دقائق قليلة عادت تحمل لصديقتها الحبيبة القهوة . وتناولت محاسن فنجان القهوة من يد انعام ، واستطاعت ان تهمس : « شكراً يا انعام. شكراً لك يا اختي » .

وتناولت انعام منديلها وراحت تجفف الدموع عن خدي محاسن .. وقدمت لها لفافة وأشعلتها .. ثم أشعلت هي لفافة ..

وراحت محاسن تدخن وترشف القهوة على مهل .. وأمسكت انعام بيدها لتقول : « والآن ، اخبريني يا محاسن ماذا جرى ؟ ».ونفثت محاسن نصار دخان اللفافة في الفضاء

دون أن تجيب .. وسألت انعام : « هـل تخاصمته واياه ؟ »
وأشارت محاسن برأسها مشيرة بالنفي ..

وتشاءلت انعام : « هــل اتضح لك انـه خائن خادع خبيث ؟ » وتمتمت انعام : « لا .. » هل شتمك ؟. هــل اهانك ؟ » — : « لا. لا يا انعام ».قالت الراقصة انعـام : « وماذا جرى اذن ؟. لماذا تبكين ؟ ».قالت : « هو لم يحضر الى الموعد المضروب يا اختي لم يوافني الى شاطىء المعاملتين ».

فوجمت انعـام.وتمتمت : « لم يحضر ؟. واين قضيت طيلة النهار اذن ؟ » .

قالت : « لقد قضيت النهـار بكامله على الشاطىء انتظر حضوره»فهمست إنعام : « مجنونة .. هل تقضين طيلة النهار جالسة على الشاطىء تنتظرين حضور شاب بائس معدم فقير؟. كان الاحرى به ينتظر هو حضورك . كان عليك ان تعودي أدراجك يا محاسن . لم يكن يحسن أن تـذلي نفسك وأن تنتظريه الساعات الطوال » .

فهزت محاسن نصار رأسهـا بأسف .وهمست : « انت لا تعرفين شعور المحبين يا إنعام . وإنني لأعذرك لأنك لم تذوقي لذة الحب وآلامه وعذابه » .

قالت إنعام : « فليبعده الله عني وعنك يا محاسن » .

ومضت الصديقتان في رشف القهوة وفي التدخين . وساد الصمت انحاء القاعة .

وانصرفت محاسن الى التفكير : لماذا لم يوافها حبيب الى الموعد المضروب ؟ ما هو السبب ؟. هل هو مريض ؟. هل أصابه مكروه ؟. هل حلّت به مصيبة ؟. هل نزلتِ به كارثة ؟. وأخيراً .. أتراه وقف على حقيقتها ؟. هل علم انها راقصة ؟. وانها خدعته بأدعائها أنها إبنة تاجر كبير وانها ورثت ثروة طائلة عن والدها وأنها تعيش مع أبنة خالها في دارها ؟..

وارتعشت الراقصة محاسن ، واضطربت ، وقلقت وقد وصلت بتفكيرها الى هذا الحد . وارتجفت يداها وكاد فنجان القهوة يسقط من يدها .. وإذا بالراقصة إنعام تقطع حبل الصمت بينها لتقول : « محاسن. كوني عاقلة يا اختي وفكري بمستقبلك ، واهتمي بعملك . ما لك ولهذا الشاب . ما لك وللحب وللهوى وللغرام . لماذا تريدين إكمال الطريق وقد لاح لك العذاب في أوله . نصف الطريق ولا كله يا اختي . خير لك ان ترجعي من أول الطريق لئلا يصعب عليك الرجوع بعد أن تتوغلي فيه . إمسحي دمعك يا محاسن . وانهضي لنتناول طعام العشاء ونرتدي ثيابنا ونشخص الى عملنا » .

فهمست محاسن : « لا يا إنعام . لا يا أختي. أنا لن أتناول

طعـــام العشاء ، ولن أشخص الليلة الى الملهى . أنا متعبة يا إنعام . أنا مرهقة . دعيني دعيني وحــدي يا أختي ».فعادت الراقصة إنعام تمسك بيد صديقتها محاسن لتقول : « لماذا لا تريدين تناول الطعام؟هل تناولته قبل أن تحضري الىالدار؟» فهمست محاسن : « لا يا إنعــام . أنا لم أذق طعاماً منـــذ الصباح ».فوجمت إنعام . وتمتمت وهي تشدهــا بيدها : « يا مجنونة . أتريدين أن تموتي من الجوع؟. أتريدين أن تنتحري؟ ولماذا ؟. لأن هناك شاباً فقيراً معدمـــاً ، لا يملك شيئاً من حطام هذه الدنيا ضرب لك موعداً وأخلف موعده؟. انهضي. انهضي يا محاسن . تعالي ، تعالي . أنا لن اذوق الطعام اذا لم تشاركيني إياه » .

وحاولت محاسن المضي في عنادها،حاولت رفض دعوة صديقتها لتناول الطعام إلا أن محاولتها ذهبت أدراج الرياح. فقد استطاعت انعام إرغامها على النهوض وعلى الدخول معها الى غرفة الطعام ... وأعــدت انعــام الطعام وجلست قرب محاسن ، وراحت تقدم لها الطعام بيدها وترغمها على تناوله. وانتهتا من تناول الطعام . ونهضتا.وعادت محاسن الى غرفتها لتنزع عنها ثيابها وترتدي ثياب النوم .. وأقبلت انعام بعــد قليل وقد ارتدت ثياب السهرة.ودهشت وهي تشاهد زميلتها محاسن في سريرهــا وهيمتعبة.وقالت:أنا لن استطيع العمل الليلة. اذهبي وحدك يا انعام واعتذري لي من أبي العز ».

وجلست إنعـام على السرير . وهمست : « لا بأس . سأذهب وحدي الليلة . وسأعتذر لك من أبي العز . اطمئني يا محاسن . ولكن بشرط ». فعرفت الابتسامة الواهية شفتي محاسن وتمتمت : « ما شرطك يا إنعام ؟ ». وغمغمت الراقصة إنعام : « شرطي ألاّ تفكري بالشاب البـائس الفقير ، وأن ترتاحي . ويجب أن تخلدي الى الراحة والسكينة والهـدوء يا محاسن ، كي تستطيعي ان تنهضي من السرير غـداً وأن تشخصي الى عملك ليل غد » .

قالت محاسن : « سأجرب أن أنزل عنـد شرطك وأن أعمل بنصيحتك يا أختي » .

ووثبت إنعام الى محاسن تقبلها هامسة : « الى اللقـاء يا محاسن . أتمنى لك ليلة سعيدة يا اختي » .

وهمست محاسن « مع السلامة يا إنعـام أتمنى لك التوفيق والنجاح يا حبيبتي » ..

وسارت إنعام . وخرجت من الدار شاخصة الى الملهى .. وحاولت محاسن النزول عند شرط انعام . حاولت أن تنزل عند نصيحتها ، وأن تبتعـد عن التفكير بحبيب مرزوق إلا أنها عجزت وباءت محاولتها بالفشل . لقد كان طيف حبيب جاثماً فوق الوسادة البيضاء ، وكان ظله يغمر كل تفكيرها .

وراحت محاسن تفكر بحبيب القلب والروح . وطـال

تفكيرها. وشعرت بالعياء وبالعناء فأطفأت النور محاولة الرقاد.. وانغمست أرجـــاء الغرفة بالظلام . الا ان الظلام الدامس لم يكن ليقصي طيف الحبيب عن رأسها فقد شاهدت محاسن طيف حبيبها الوسيم .. لم يستطع الظلام ان يبعد حبيباً عنها .

كان ذلك الشاب القروي يلوح لعينيها الدامعتين في كبد الظلام .. وكانت كلماته وهمساته ووشوشاته الشجية تنزل في أذنيها كحفيف اوراق الأزهار والورود . فكأنه قربها ..

كانت الراقصة محـاسن تشاهد حبيبها بين طيـات الظلام . وأغمضت عينيها لئلا ترى ذلك الطيف في الظلام . الا ان الطيف الجميـل كان في حبـة عينها . كان في اغماضة تلك العين ..

وأدركت محاسن نصار انها عاجزة عن اقصاء ذلك الطيف وانها لن تستطيع الابتعاد بتفكيرها عن حبيب .. وأخذت تتقلب في سريرهـا الوثير وكأنهـا تتقلب على شوك وابر .. وعجبت من نفسها كيف تتألم وتتعذب من اجل هذا الشاب القروي الوسيم ، وهي التي عذبت الكثيرين والتي ضحكت على الكثيرين من الاثرياء والوجهاء وأصحاب الجاه والنفوذ ..

واستوت في سريرها لتعود الى اشعال النور والى التفكير. وتساءلت الراقصة محاسن مجـدداً : « لماذا لم يحضر حبيب الى الشاطىء الرحيب ؟.. لماذا ؟.. ليست تدري. ولكن ..

ولكن يجب ان تقف على الحقيقة يجب ان تعلم السبب في تخلفه .. ماذا ستفعل الآن ؟. هل تعود غداً الى شاطىء المعاملتين ؟. تعود ؟. لا . لقد عزمت على ان تبتعد عنه . كانت تريد ان تقابله للمرة الاخيرة وتودعه وداعاً ابدياً وتسير في طريقها .

كانت تريد ان تبتعد عنه الى الابد . وهي ستبتعد عنه . لن تعود الى المعاملتين ، قدمها لن تطأ بعد اليوم رمال الشاطىء الباسم الجميل .. ولكن هل يجوز ان تبتعد عنه دون ان تتودع منه بنظرة . لا . لا . هذا ما لا يجوز .

اذن . اذن ماذا ؟. اذن يجب انتعود غداً الى الشاطىء. وهي ستجده هناك. وستتحدث اليه للمرة الاخيرة، وتشاهده للمرة الاخيرة ، وتودعه للمرة الاخيرة وداعاً لا لقاء بعده .. ولكن ..

وعادت كلمة « ولكن » تتمايل في خاطرها .. ولكن هل هي ستجده على الشاطىء هل سيحضرحبيب الى الشاطىء غداً ؟. واذا لم يحضر ماذا ستفعل ؟. ماذا سيكون موقفها؟. اذا لم يحضر ستعود أدراجها وتعمل جاهدة على نسيانه .. سلتنتظر اذن الى الغد . والغد مجهول قد يأتي بما لا ينتظر ..

وفيما محاسن منصرفة الى التفكير بحبيبها رن جرس الباب .. ووجمت محاسن ورمقت الساعة بنظرة سريعة لتزداد

وجوماً . الساعة تشير الى منتصف الليل . من تراه القادم اليها في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟. واحتارت في امرها. ماذا تفعل ؟.. هل تفتح الباب ؟.. لا . هي لن تفتح الباب. قد يكون الطارق لصاً ، قد يكون مجرماً شريراً ، وهي وحدها في الدار . ماذا سيفعل بها هذا الطارق اذا كان مجرماً او اذا كان لصاً ؟.. لا . لا . لا . لن تفتح الباب .

وعاد جرس الباب يقرع بشدة .. ورأت نفسها تثب من السرير وترتدي «الروب دي شامبر» وتسير الى البهو وتشعل النور ثم تشخص الى الباب فتفتحه ويدها على قلبها والخوف يعصف بها ..

واذا بها امام صالح ابي العز ، امام صاحب الملهى .. ودهشت محاسن نصار وهي تشاهد أبا العز امامها . وهمست: « أبا العز ؟.. ماذا جاء بك الي في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ وكيف استطعت ان تترك العمل في الملهى ؟ »

وأمسك ابو العز بيدها ودخل بها الى الدار قائلاً : « لقد أقلقت خاطري يا محاسن . قالت لي انعام انك منحرفة الصحة ، فأسرعت اليك محمولاً على جناح الخوف والقلق والاشتياق . ما بك يا حبيبتي ؟.. ماذا اصابك ؟ »

وجلست محاسن على المقعد الرجراج الوثير في البهو ،

وجلس قربهـا ابو العز . وعاد ابو العز الى الكلام ليقول : « لقد أثرت قلقي ومخاوفي يا محاسن . ما بك يا حبيبتي ؟.. ما بك ؟ »

قالت : « صداع بسيط . لم يكن لـك ان تزعج نفسك بالحضور الى هنا .. كان باستطاعتك ان تتصل بي هاتفيـاً يا أبا العز » قال صاحب الملهى الكريم : « لقد أردت ان اتصل بك بنفسي لأطمئن الى سلامتك وأروي غليـل اشتياقي اليك يا حبيبتي ».

هذا ما قال ابو العز .. ولم يكن صادقاً في ادعائه . هو لم يحضر الى دارها الا ليقف على حقيقتها . هو يريد ان يعلم لماذا تغيرت محاسن . ولماذا اصبحت ساهمة واجمة شاردة الذهن؟. يريد ان يعرف لماذا تخلفت عن الذهاب الى عملها في الملهى .. ولم تكن لتتخلف ليلة عن الذهاب الى الملهى .. يريد ان يعلم هل هناك حبيب جديد في قلب محاسن . يريد ان يعلم مع من تسهر محاسن في دارها ؟.. يريد ان يتأكد بنفسه الحقيقـة الناصعة . اذا كانت محاسن خائنة ، اذا كانت تدعي المرض لتهرب منه فالويل ثم الويل لها ..

وراح ابو العز يستعرض غرف الدار المفتوحـة الابواب وهو جالس في البهو قرب محاسن . وأرهف أذنيه لعله يسمع همسة او قحة او صوت . الا انه لم يسمع شيئاً ولم ير شيئاً .

اذن .. اذن ماذا ؟.. اذن محاسن مخلصة وفيـة . فليس ثمة اي شاب في دارها . هي مريضة . مسكينة . لقد ظلمتها ظنون ابي العز وهواجسه .

وراح ابو العز يساير حبيبته الوفية محاسن ، وراح يتودد اليها ويمازحها ويطارحها الهوى والغرام.وتبرمت محاسن به. كانت تريد ان يرحل عنها لتعود الى التفكير بحبيبها . كانت تريد ان تتخلص منه ..

وتثاءبت وقطبت حاجبيهـا وزمّت شفتيهـا وتراخت في جلستها على المقعد الرجراج الوثير ..

وسألها ابو العز : ما بك يا محاسن ؟ » قالت محاسن : « الصداع يؤلمني يا أبا العز ».فنهض ابو العز ليقول:« سأتركك الآن وحدك لترتاحي . قولي يا محاسن هـل تريدين ان اقدم لك اي خدمة ؟.. هل أدعو لك طبيباً ؟.. هل ابتـاع لك دواء ؟..»

فهمست : « لا . لا . يا أبا العز . شكراً شكراً يـا حبيـبي . انا سأنام . اذا نمت استطعت ان اتخلص من هذا الصداع الأليم ».

وسارت الى غرفتها . وسار ابو العز وراءهـا وهو يفتش بعينيه كل زاوية من زوايا الغرفـة . واطمأن ابو العز كل الاطمئنان: الحمد لله ، ليس ثمة احد في دار محاسن . انهـا

وحدها في الدار .

واندست محاسن في السرير . ووثب ابو العز اليها ليطبع قبلة ملتهبة قانية الاحمرار على وجنتها . وأحست الراقصة الحسناء بوخزة القبلة فتأففت .. وخرج ابو العز من دار عشيقته الحسناء وهو مطمئن البال مرتاح الفؤاد . لقد تبددت جميع هواجسه ، ومخاوفه وأفكاره السوداء . الحمد لله . ثم الحمد لله ..

وعادت محاسن الى التفكير بالحبيب الولوع . وعادت الى رسم خطة الغد ..

غداً ستشخص الى شاطىء المعاملتين ، وستشاهد حبيبها القروي .. وسيكون بينهما لقاء .. ولكل حدث حديث ..

ولم تستطع محاسن ان تجذب الكرى الى عينيها. لم تستطع ان تنام ، فظلت تتقلب في سريرها على جوى ونار حتى مطلع الفجر البعيد .. وعندما عادت انعام من عملها ، مع مطلع الفجر كانت محاسن لا تزال ساهرة ، إلا أنها تظاهرت بالرقاد فهي لا تريد أن تتحدث الى احد ، ولا تريد ان تشاهد احداً ولا تريد أن تسمع صوت احد ..

ولم تستطع محاسن أن تنام إلا والفجر بدأ ينشر انواره الوردية اللون على العاصمة اللبنانية الحسناء .

واستفاقت محاسن في الساعة العاشرة من الصباح ووثبت

من السرير لتغسل وجهها وترتدي ثيابها على عجل . فهي تريد أن تطير الى شاطىء المعاملتين لتشاهد حبيبها.. واذا بزميلتها انعام تستفيق من رقادها لتثب اليها قائلة : كيف الحال اليوم يا محاسن ؟ ارجو أن تكوني بخير يا حبيبتي ؟

واستطاعت محاسن ان تخدع انعام بابتسامة واهية صفراء طفت على شفتيها،وهمست: « الحمد لله . انا بألف خير اليوم » قالت انعام : « اراك ترتــدين ثيابك ؟ الى اين ستشخصين الآن ؟ ».فأمسكت محاسن بيد صديقتها انعام لتقول : انا شاخصة اليه يا انعام . الى شاطىء المعاملتين . سأراه اليوم . سأراه المرة الاخيرة وأودعه ، وينتهي بيننا كل شيء ..

فابتسمت انعام وهمست : « خير لك يا اختي أن تبتعدي عنه . اعملي بنصيحتي ولن تخسري يا اختي ».قالت محاسن : « سأعمل بنصيحتك يا انعــام » . قالت انعام : مهلاً يا محاسن سنتناول القهوة معاً ثم نتناول طعام الصباح وتذهبين .

وحاولت محاسن الاعتراض،فهي لا تريد أن تضيع الوقت. إلا أن انعام استطاعت أن ترغمها على النزول عند ارادتها .. وتناولت الراقصتان الصديقتان القهوة . ثم تناولتــا الطعام . وودعت محاسن صديقتها انعــام،واسرعت محاسن بالخروج من الدار...

ودلفت الى سيارتها تستقلها وتطير بها الى شاطىء المعاملتين والآمال الباسمة تغمر قلبها وتعصف بفؤادها الهائم الولوع ..

وانصرفت محاسن الى التفكير وهي تقود سيارتها الفخمة الانيقـــة في الطريق البعيد المنساب على الشاطىء الفسيح الارجـــاء من بيروت الى المامملتين .. وطافت الافكار على رجرجة واضطراب في رأسها: هي شاخصة الآن الى المامملتين لتشاهد حبيبها حبيب مرزوق . ولكن ، هـل هي ستجده هناك ؟ هل سيكون حبيب بين السابحين على الشاطىء الجميل؟ واذا كان هناك ؟ اذا شاهدته ؟ مـــاذا ستقول له ؟ واذا لم تشاهده ، اذا لم يكن حبيب هنـــاك ، اذا تخلف اليوم عن الحضور كما تخلف امس، ماذا ستفعل ؟ ليست تدري ، ليست تدري ..

وكانت السيارة الانيقة تندفع بهـــا في الطريق الجميل الفسيح ، وافكارها تسابق السيارة في اندفاعهـــا السريع المجنون .

١٠
البحث عن الحبيب

محاسن نصار على شاطىء المعاملتين تبحث بين السابحين ، المنتشرين على طول الشاطىء الفسيح الأرجاء عن حبيبها حبيب مرزوق .

وعصف القلق الشديد بقلب محاسن وقد أدركت ان حبيباً ليس بين اولئك الشبان المنتشرين على الشاطىء الحالم الجميل ، ورمقت الساعة الذهبية المشدودة الى معصمها فاذا بالساعة تشير الى العاشرة من الصباح . ما زال الوقت فسيحاً امامها . اذا لم يحضر حبيب في العاشرة فهوسيحضر فيالعاشرة والنصف .. الا ان الساعة بدأت تميل الى العاشرة والنصف ، وحبيب لم يحضر الى الشاطىء .. لا بأس ، هو سيحضر في الساعة الحادية عشرة ..

وأعلنت الساعة الحادية عشرة وحبيب لم يطل .. سيحضر اذن في الحادية عشرة والنصف.. ومضى العقربان في سرعتها ، وأشرفت الساعة الى الحادية عشرة والنصف وحبيب لم يبن له أثر..

ترى هل يحضر حبيب الى الشاطىء في الساعة الثانية عشرة؟. سيحضر. من المؤكد انه سيحضر .. وجلست محاسن نصار فوق الرمال تحت المظلة الخضراء تستعرض الأمواج المندفعة الى الشاطىء الفسيح لتتكسر فوق رماله السمراء .

وكانت محاسن على قلق، واضطراب ووجوم . كانت تخشى أن يتخلف حبيب عن الحضور الى الشاطىء اليوم كما تخلف بالأمس .. هل سيتخلف حبيب عن الحضور اليوم ؟ لا ، لا ، لن يتخلف عن الحضور اليوم . من المؤكد انه سيحضر وستشاهده وتجلس قربه وتتحدث اليه .. وستتناول طعام الغداء وإياه ايضاً ..

وبلغت الساعة الثانية عشرة دون أن تشاهد حبيباً قربها .. وتساءلت : « ماذا.ألا يحضر اليوم حبيب ؟ وأبت محاسن ان تجيب بلا..» وأصرت على الهمس:« هو سيحضر.. سيحضر بعد الظهر . سيتناول طعام الغداء في داره ويحضر الى الشاطىء » .

ستنتظره.هي لن تعود الى دارها الا وقد حضر حبيب ، وشاهدته وجلست قربه ..

واذا لم يحضر ؟ لا . هو سيحضر من المؤكد انه سيحضر. ستنتظره .. ستنتظره حتى المساء . هي لن تغادر الشاطىء الا بعد ان تشاهد حبيباً

وانتظرت محاسن ، وطال انتظارها . ومضت الساعات على سرعة واندفاع ، ومحاسن تتمنى ان تبطىء تلك الساعات في مسيرها . فهي تريد ان يحضر حبيبها قبـــل ان تشرف الشمس على الأفول ..

وخيب حبيب مرزوق الآمـــال ، فأشرفت الشمس على المغيب وما بان له أثر على شاطىء المعاملتين .. وتحول القلق في قلب محاسن نصار الى ألم شديد عنيف . وأبت ان تغـادر الشاطىء الجميل الرحيب فمضت فيجلستها فوق الرمال تستعرض الشمس في انحدارها الى اليم والدموع تموج في عينيها ..

وانسابت الذكريات في رأسهـــا على لوعـة وشوق وألم وحنين .. وتذكرت ، تذكرت محاسن جلستها منذ ايام قليلة مع حبيب على الشاطىء في مثل تلك الساعة .. كانا جالسين فوق الرمال . لم تكن محاسن وحدها ، مثلها الآن ، بل هي كانت مع حبيب ، وكانت الشمس تقف ، كما تقف على شرفة الأفق البعيد . وكان نورها الشاحب الواهي الضئيل يخضب امواج البحر بلونه القرمزي القاني الاحمرار ..

لم يتغير شيء . الشاطىء هو هو .. والرمـال هي هي ، والأمواج ، والشمس والنور الواهي الضئيل ، والفضاء الأحمر الفاتن .. كل شيء باق على حاله ..

لم يتغير شيء . لم يتبدل شيء إلا نفسها ، إلا روحهـــا .

الا قلبها ، الا تفكيرها .. يومذاك كانت تجلس قرب حبيب وكانت فرحة القلب مرتاحة البال ، طلقة الروح . أمـا الآن فهي دامعة العين كسيرة الخاطر مهيضة الجناح . انهـا لتجلس وحدها تودع الشمس قبل رحيلهـا والدمعة في عينيها والغصة في قلبها والأنة في روحهـا ، انها لتنتظر حضور حبيب . ويخيل اليها ان كل ما هناك ينتظر معها عودة حبيب . الرمال والامواج والشمس والفضاء ..

وطال جلوس محاسن نصار على الشاطىء المترامي الاطراف، وطال انتظارها وطال تفكيرها.. وبدا الظلام يلف الشاطىء الفسيح بأجنحته السوداء ومحاسن نصار جالسة على الرمـال غرقى في تفكيرها وأشواقها وحنينها ..

واقفر الشاطىء من السابحين ومن السابحـات . وتلفتت حولها ، فاذا بهـا وحيدة على الشاطىء . ما هناك سوى الرمال والمظلات والامواج .. وكان هدير الامواج يمزق آذان الليـل البهيم ويبعث في نفس محاسن نصار اللوعـة والشوق والحنين ..

ونهضت .. يجب ان تعود أدراجها الى بيروت . لمـاذا تنتظر وحبيب لن يحضر الى الشاطىء ، بعد ان غرق ذلـك الشاطىء في حضن الظلام البهيم ؟.

وسارت محاسن الى الكابين تنزع عنها ثياب البحر وترتدي

ثيابها ثم تشخص الى سيارتها فلستقلها وتطلق لها العنان في طريق بيروت .. ولم تنقطع محاسن عن التفكير بحبيب حتى وهي تقود سيارتهـا الأنيقة الفخمة.فراحت تمعن في التفكير متسائلة : « لماذا لم يحضر حبيب مرزوق الى الشاطىء ؟ لماذا انقطع عن الحضور يومين متتاليين؟ ماذا حدث ؟ ماذا جرى؟ هل هو مريض ؟ اذا كان مريضاً وجب عليها ان تودعه ؟ هل وقع في معضلة صعبة الحل ؟ اذا كان واقعاً في معضلة عليهـا مساعدته ..

وأخيراً ، هل غدر بها وكفر بحبها ، وأحب فتاة غيرها؟

وشعرت محاسن نصار بالنار تحرق قلبهـا ، وقد وصلت بتفكيرها الى هذا الحد ؟ وحاولت ابعاد تلك الفكرة،فكرة الخيانة عن رأسها : لا . حبيب ليس خائناً . هو لا يخون انه محب مخلص وفي .. ولكن .. ولكن هو لم يتعرف اليهـا الا منذ مدة قصيرة . ولم يبح لها بحبه ولا هي باحت له بحبهـا الا منذ ثلاثـــة ايام ، ألا يجوز ان يكون لحبيب حبيبة او خطيبة او عشيقة ؟ لـماذا لا يجوز ، كل شيء يجوز . ان حبيباً في مقتبل العمر وهو وسيم جميل قوي انيق ، هل يمكن ان يبتعد شاب مثل حبيب عن بنـات حواء ؟.. لا . وألف لا .. من المؤكد ان حبيباً عرف الحب قبـل ان يعرفهـا وهو على علاقة باحدى بنات حواء. وهذا هو السبب في تخلفه عن الحضور الى الشاطىء يومين متتالين . لقد أبى حبيب ان

يلتقي بها على الشاطىء ، بعد ان باحت لهبحبها، اكراماً لعيني حبيبته الحسناء .

واشتدت نار الغيرة اندلاعاً في صدرها وقد وصلت بتفكيرها الى هذا الحد .. ومضت في تفكيرها والسيارة بها في الطريق البعيد الفسيح الارجاء ..

وهمست في سرها ، وهي تقود سيارتها : « ولكن حبيباً صرح لي بأنه لا يعرف الحب قلبـــه قبل ان يتعرف الي" .. اتراه يكذب علي" ؟. اتراه يخدعني ؟. لا . لا مستحيل . حبيب لا يكذب ولا ينطق بسوى الحقيقة الناصعة البياض .. لماذا لم يوافيها الى الشاطىء ؟.. لماذا ؟ ليست تدري ، ليست تدري ..

ووصلت السيارة بهـا الى شارع الحمراء . وترجلت منهـا امام بنايتها ، ودخلت الى دارهـا تسرع بالدخول الى غرفتها وتستأنف التفكير بألم وحسرة ودموع ..

ولم تشخص محاسن الى عملهـا في الملهى تلك الليلة بالرغم من محاولة صديقتها انعام .. فقد ابت محاسن نصار ان تغادر دارهـا ، بل هي أبت أن تغادر غرفتها . وللمرة الثانيـــة تشخص الراقصة انعـام توفيق وحدهـا الى ملهى ابي العز ، وتظل محاسن نصار وحدهـــا في دارها مستلقية في سريرها تفكر وتبكي ....

وشعرت محاسن نصار بعاصفـة شديدة من الحب الطاغي الطامي العنيف تجتاح قلبها وتغمر روحها .. وأدركت انهـا تحب هذا الشاب القروي حبـاً هائلاً مروعاً مخيفاً.وخافت محاسن . لقد خافت هذا الحب العاصف الشديد . هي لم تحب مثل هذا الحب من قبل ، لم تشعر بمثل هذه العاطفة اللاهبـة المتقدة السعير . لم تعرف عيناهـا الدموع ولم تعرف روحهـا الألم ولم يعرف قلبها القلق والاضطراب . أهذا هو الحب الذي يتحدث به الشعراء ويكتب عنـه الكتاب والادباء ؟ أهـذا هو؟.اذا كان هذا هو اول الطريق فكيف سيكون آخره؟..

وشعرت محـاسن بشوق رحيب الى حبيب.وتمنت لو انـه قربها الآن . اذن لضمته الى صدرهـا وأبت أن تنسلخ عنـه مدى العمر .. واستبد بهـا الحب والوجد فراحت تناجي حبيباً بأرق الالفاظ وأعذبها وهي تبكي .. ولم يغمض لهـا جفن طيلة ذلك الليل. لم تعرف محاسن طعم الرقاد الا والفجر قد بسط وشاحه الوردي الجميل على لبنان ..

ونامت محاسن . نامت ثلاث ساعات. ثلاث ساعات فقط. منـذ الساعة الخامسة حتى الثامنـة .. نامت لتحلم بحبيبها ولتشاهده في الحلم يبكي . كان يبكي مثلها وكانت الدموع تغمر عينيه ، واللوعة والأسى والشجون تلوح على وجهه ..

ووثبت الراقصة محاسن نصار من السرير لتغسل وجههـا وترتدي ثيابهـا على عجل وتسرع بالخروج من الدار قبل أن

تستفيق صديقتها انعام ..

واستقلت محاسن السيارة وأدارت محركها فطارت بهـــا تسابق الريح في طريق المعاملتين ..ووصلت بها الى الشاطىء الرحيب الهـادىء الساجي الامواج .. وترجلت من السيارة واتجهت الى الشاطىء .. وكان عدد السابحين والسابحات قليلاً. فالوقت مبكر، لم يحن بعد موعد اقبال السابحين الى الشاطىء .. ولم تبحث محاسن عن حبيبها بين السابحين القلائل ... هي لن تتعب نفسها في البحث. من المؤكد ان حبيبها لم يغش الشاطىء اليوم . وهو لن يغشاه . فلماذا البحث والتفتيش والانتظار ؟

واتجهت محاسن الى النـادي الصغير . ووثبت الى صاحب المسبح تسأله :

« حبيب مرزوق .. هو احد زبائنكم . كان يرتاد هـــذا الشاطىء الحـالم الجميل كل يوم ثم انقطع عن الحضور الى هنا منذ ثلاثة ايام .. هل تعرفه يا سيدي ؟ » .

وابتسم صاحب المسبح ، وهو نفسه صاحب النادي الصغير الجاثم على كتف الشاطىء الرحيب .. ودعاها للجلوس.قال : « تفضلي يا آنستي اللطيفة اجلسي . استريحي وسأجيبك على سؤالك » .

قالت : « لا يا سيدي . لا . لا اريد ان استريح لا اريد ان اجلس..ليس لدى متسع من الوقت للجلوس وللاستراحة . ارجوك ان تجيبني على سؤالي . قل لي : هل تعرفه ام لا ؟ ».

واتسعت الابتسامة على شفتي صاحب النادي الصغير .
وهمس :
« اعرفه حق المعرفة . فهو من قريتي . انا وحبيب مرزوق من قرية واحدة » ...
فارتاحت محاسن نصار بعض الارتياح وصاحب الملهى يعلن لها انه يعرف حبيباً حق المعرفة وانه من قريته . الحمد لله . الاتصال بحبيب اصبح ميسوراً .. وتمتمت محاسن:
« ارجوك ان ترشدني الى قريتكما.اريد ان ارى حبيباً »:
فأدرك صاحب النادي انه حيال عاشقة متيمة ولهى ، وعاد يدعوها للجلوس وللاستراحة ، الا أن محاسن أبت ان تجلس وترتاح .
قالت : « لا . ارجوك ان ترشدني الى القرية ، أين تقع هذه القرية ؟ هل تبعد مسافة طويلة من هنا ؟ »
قال : « لا . هي لا تبعد إلا القليل .. عشر دقائق فقط في السيارة وتكونين في القرية » .
قالت : « اين تقع هذه القرية ؟ ومن اين السبيل اليها ؟ »
ولم يجب صاحب النادي على سؤال محاسن ، بل نادى اليه خادمه الخاص : « عبود ! تعال يا عبود » .
وجاء عبود : « بماذا يأمر سيدي ؟ »
قال : « رافق الآنسة اللطيفة الى القرية ، وارشدها الى دار حبيب مرزوق » .

وشكرت محاسن لصاحب النادي لطفه وجميله . وسارت مع الخادم الى سيارتها لتستقلها . وجلس الخـــادم في المقعد الخلفي . وأطلقت محاسن للسيارة العنان .

وراح الخـــادم عبود يرشد الراقصة الحسناء الى الطريق : « من هنا يا سيدتي .. اصعدي من هنا » ..

وصعـــدت محاسن في الطريق الضيق المنساب وسط غـــابة صنوبر خضراء انسياب الافعى الرقطاء : «من هنا يا سيدتي». وتدير محاسن محرك السيارة وتسير في سفح الجبل، في الطريق الضيق المليء بالحفر والأخاديد .

وراحت تفكر وهي تقود سيارتها الفخمة: «هي شاخصة الآن الى حبيب ، فهل يجوز ان تلحق بـــه وهو الذي هرب منها وتخلف عن موافاتها الى الموعد المضروب؟ وأين كرامتها؟ وأين كبرياؤها ، وأين إباء نفسها ؟ صحيح ؟ لا يجوز للفتـــاة ان تعدو وراء الشاب . ماذا سيقول فيها حبيب مرزوق وهو يشاهدها تلحق به وتعدو وراءه ؟ يجب ان تعود . يجب ان تعود. ما لها وله، بالأمس كانت تنوي الابتعاد عنه الى الابد، وقد اتخذت قرارها الحازم بالهرب منه فمـــا بالها اليوم تنقض قرارهـــا وتركض وراء حبيب مرزوق ؟ يجب ان تعود . كرامتها قبل كل شيء . لو ان حبيباً يحبها لمـــا ابتعد عنها ، لمـــا تخلف عن موعده معها ، لما انقطع عن ارتياد الشاطىء الرحيب وهو الذي يشخص الى ذلـــك الشاطىء كل يوم ..

تعود ؟ تعود بعد ان اصبحت على مقربة من القرية؟ على مقربة من القرية ؟ على مقربة من حبيب . لا . لا . هي لن تعود ، لن تعود قبل ان تقف على سبب ابتعاده عنها . ككرامتها ؟ لا كانت كرامتها . ليس في الحب كرامة ، قلبها ، قبل كرامتها وقبل إباء نفسها وقبل كبريائها .. ستتابع طريقها وتصل الى القرية ، وتشاهد حبيباً وتقف على سبب تخلفه عن الحضور الى الشاطيء .. ثم .. ثم ماذا ؟ ثم تودعه وتعود ادراجها ، وتنفذ القرار الذي اتخذته ، وتبتعد عن حبيب الى الابد ..

وسارت السيارة بها وهي تتهادى بين الحفر وبين الصخور. وأطلت فجأة على القرية.. كانت تلك القرية الصغيرة تقع وراء جبل شامخ دائم الاخضرار ، ترتفع حولها اشجار الصنوبر الباسقة الخضراء كأنها جنود تقوم على حراستها . وكانت الصخور الناتئة الصغيرة تجثم في السفوح والتلال كأنها اصنام وتماثيل نحتتها يد نحات ماهر قدير . وكانت منازل القرية ، وبينها منازل يتوج هامها القرميد الاحمر ، مبعثرة في حنايا القرية بين البساتين والجنائن والحدائق الغناء . وكان كل شيء هادئاً ساكناً في تلك القرية الباسمة الخضراء ، ما هناك سوى تغاريد العصافير وترانيم الجداول وحفيف اوراق الاشجار وهي تتهادى بين ايدي النسيم العليل .

واشار عبود عليها بايقاف السيارة الى جانب الطريق ،

وقد توغلت في القرية الحالمة الهادئة الباسمة الشماء .. واوقفت محاسن السيارة حيث اشار عبود . وترجلت منها ، وترجل عبود، ووقفت تستعرض منازل القرية، واشجارها وصخورها وحدائقها وبساتينها بدهشة واعجاب. هذه القرية فاتنة رائعة انها لتتربع على قمة الفتنة والروعة والجمال . ليتها تستطيع أن تقضي العمر كله في هذه القرية بين هذه الاشجار وهذه الصخور وفي حضن هذه الطبيعة الفاتنة الباسمة الهادئة السمحاء ..

وسار الخادم عبود امامها وهو يقول : من هنا يا سيدتي علينا .ان نسير على اقدامنا زهاء مئتي متر لنصل الى دار حبيب .. وسارت محاسن ، سارت بين اشجار التفاح والاجاص والتين والزيتون في طريق ضيق لا يتسع المسير فيه الى اثنين.. والى جانب ذلك الطريق جدول صغير ينساب في قناة مرسلاً انغاماً شجية تشنف الاذان .

ومضت محاسن في مسيرها بين اغصان الاشجار المثمرة وراء عبود .. ووصلت الى امام دار قروية صغيرة ، سقفها من الطراز القديم وقد امتد امامها سطح قبو فسيح ، وفوق ذلك السطح امتدت خيمة نصبت من اغصان الاشجار وامام الدار احواض مغروسة بالازهار المتعددة العبير والالوان ، وحول الدار انتصبت الاشجار الوارفة الظلال ، وتحت الدار بستان فسيح غرست فيه اشجار التفاح والاجاص والكرز والخوخ ..

والتفت عبود الى الراقصة ليقول : « هذه هي دار حبيب مرزوق ».قـال عبود الخادم هـذا واسرع بالدخول الى تلك الدار . ودخلت محاسن الى الدار وراءه فسمعته يقول : « يا ام حبيب . هنـا فتاة بيروتية جميلة تسأل عن حبيب . اين هو ؟ هل هو هنا ؟ » وتمتمت الام العجوز باستفهام : « فتاة بيروتية ؟ ماذا تريد ؟ ».فهز عبود كتفيه وقلب شفتيه وتمتم: « لست ادري » .

وحانت من العجوز التفاتـة الى الباب فشاهدت محاسن واقفة في الباب.وسارت اليها تصافحها هامسة : « اهلاً اهلاً . لقد شرفت دارنا يا ابنتي . تفضلي تفضلي بالدخول ».وتفضلت محاسن نصار بالدخول والخجل يسحقها .

لقد جالست محاسن الاثرياء والوجهاء والاغنياء ، وتحدثت الى ذوي الامر والنهي والسلطان فـلم تشعر بأي خجل ، ولم يصبغ الحياء جبينها بلونه الوردي مثلها وهي تدخل الى دار حبيب وتتحدث الى امه القروية العجوز ..

ودعتها ام حبيب الى صحن الدار.وقدمت لهـا مقعداً وثيراً إلا أنـه قديم العهد هامسة : « تفضلي يا ابنتي واجلسي على هذا المقعد المريح»..وهمست محاسن وهي تجلس على ذلك المقعد: « شكراً لك يا سيدتي على حفاوتك بي ».. واسرعت الام العجوز الى المرطبات تقدمها للضيفة الكريمة والى مرافقها الخـادم عبود .. زهمست محاسن وهي ترشف المرطبات :

« أيكون السيد حبيب هنا يا سيدتي ؟ » ولمع الالم في عيني الام العجوز والفتاة البيروتية تسألها عن ابنها. وهمست : « اجل يا ابنتي انه هنا » .

وتمتمت الراقصة محاسن نصار : « أين هو ؟ هل استطيع ان اراه ؟ » .

قالت الام : « حبيب مريض يا ابنتي. لقد اصيب بوعكة صحية بسيطة في اول الامر . اصيب بهذه الوعكة منذ اربعة ايام فلم يأبه لها إلا أن الوعكة انقلبت فجأة الى حمى ناهشة فاستدعيت له الطبيب ليلاً بعد ان ارتفعت حرارته ارتفاعاً شديداً. . ومده الطبيب بالعقاقير والمصول واشار عليه بملازمة السرير . لقد كاد حبيب يضيع مني . كدت افقده يا ابنتي . إلا ان الله رأف بقلبي ورحم شيخوختي . صحيح ان الخطر بدأ يبتعد عن سريره ، إلا انه ما زال بحاجة الى معالجة طويلة والى عناية واهتمام » .

واضطربت محاسن نصار ، وارتجفت يداها حتى كادت كأس المرطبات تسقط من يدها ، وهي تسمع كلمات ام حبيب . وتمتمت بقلق وارتعاش : « حبيب مريض اين هو ؟ هل استطيع أن اراه يا سيدتي ؟ » قالت الام : « انه هنا . في غرفته يا ابنتي . تعالي . تعالي معي » .

ونهضت محاسن لتسير وراء العجوز البائسة . ودخلت ام حبيب الى غرفة ابنها . والغرفة تلك قسم من الدار القروي .

كانت تلك الدار مقسومة الى ثلاث غرف . كل غرفة منفصلة عن الاخرى بحاجز خشبي متين . غرفة لحبيب وغرفة لأم حبيب وغرفة لاستقبال الضيوف . اما المطبخ وغرفة الطعام الصغيرة فهما خارج الدار . وهناك السطح . سطح القبو ، او بالاحرى « السطيحة » وهي تمتد امام الغرف الثلاث .

وهناك في تلك الغرفة الفسيحة الارجاء كان حبيب مرزوق ممدداً فوق سرير حديدي متواضع .. ودهش حبيب وهو يشاهد حبيبته محاسن تدخل عليه. والتفت اليها ليهمس: « محاسن ؟. أأكون في يقظة ام تراني في حلم » .

وبخطوات متئدة واهية تقدمت محاسن من سرير حبيبها هامسة : « حبيب ! ما بك ؟.. ماذا اصابك يا حبيبي ؟. ماذا دهاك يا روح محاسن » وامسكت بيده المحمومة تشدها والدمعة تترقرق في عينيها . وهمس حبيب : لولا رحمة الله لكان حبيبك حبيب في عالم الارواح الآن » فشدت يدها يده وهمست : « لا سمح الله يا حبيب روحي فداك يا حبيبي » .

وخرجت ام حبيب من غرفة ابنها تاركة البيروتية الحسناء جالسة قرب سرير ابنها، وشخصت الى المطبخ لتهيء القهوة. وهمست محاسن : « اخبرني يا حبيب ماذا دهاك ؟ ماذا اصابك ؟ » فهمس حبيب مرزوق : بعد ان تركتك ذاك اليوم عدت الى هنا والآمال والاحلام تغمر روحي وقلبي . وانصرفت الى العمل في البستان ومضيت في العمل حتى

المغيب . وانهكني التعب ، وتصبب العرق من جسدي . كنت اريد ان انهي العمل كي استطيع ان اوافيك الى الشاطىء الجميل في اليوم التالي . وانهيت العمل . وعدت الى الدار لاجلس على المقعد « على السطيحة » وكان الهواء البارد العليل يهب عليّ من كل صوب . وكان العرق ما زال يتصبب من جسدي فتركت للهواء البارد العليل اليد ليعبث بي ، وفجأة شعرت بألم في خاصرتي وبضيق في صدري . فلم أبه للأمر .

ودخلت الى الدار لأنزع عني ثيابي وأرتدي ثياب النوم . ولم استطع ان اتناول العشاء فلجأت الى سريري . وأخذ الألم يشتد بي . وأخذت انفاسي تضيق . وما ان انتصف الليل حتى كانت الحمى تنهش جسدي ، وكنت قد اصبحت على شفير القبر . وذعرت امي. وأسرعت الى الجيران تستنجد بهم وتطلب اليهم استدعاء الطبيب . وأسرع الجيران الى استدعاء الدكتور جوزف كرم .. وأقبل الدكتور كرم مع مطلع الفجر ليمدني بالمصول والعقاقير ويعلن انني مصاب بلفحة هواء وان رئتي مصابتان بالتهاب شديد وان حالي خطرة .. ومنذ تلك الليلة وأنا طريح الفراش . كنت وأنا أتألم افكر بك يا محاسن. كنت اخشى ان اموت قبل ان اراك يا محاسن. كنت اخشى ان تتهميني بالغدر والخيانة وقد تخلفت عن موافاتك الى الشاطىء في الموعد المضروب » .

وهمست محاسن والدمعة في عينيها : « فليغيبني القبر قبل

ان تصاب بأذى يا حبيبي » .

قال : « اخبريني كيف استطعت ان تصلي الى هذه القرية يا محاسن ؟ ومن ارشدك الى داري ؟ » .

قالت: « صاحب النادي أوفد معي الخادم عبود الىهنا . انه هنا في الغرفة المجاورة » .

وأقبلت الأم العجوز حاملة للضيفة الكريمـــة القهوة . وتناولت محاسن القهوة وراحت ترشفها على مهل . وجلست الأم العجوز قربها وراحت تسايرها وتتودد اليهـــا دون أن تسألها من هي ؟ ولا كيف تعرفت الى ابنهـا ... كان كل ما يهم تلك الأم ان ترى ابنها سعيداً ، وهي قـد رأت السعادة تموج في عيني حبيب وهو يتحدث الى البيروتية الحسناء .

وطال جلوس محاسن نصار قرب سرير حبيبها . وعندما حان موعـــد تجرع الدواء ابت محاسن الا ان تجرع حبيباً الدواء بيدها .. ودعت محاسن الخـادم عبوداً لتنفحه بورقـة نقدية من فئة عشر ليرات لبنانية قائلة :

« خذ يا عبود هذا المبلغ الزهيد استقل سيارة تاكسي وعد الى عملك . وألف شكر لك » ..

وشكر عبود الخادم البيروتية الحسناء على سخائها عـائداً أدراجه الى المسبح في المعاملتين .

وأقامت محاسن قرب سرير حبيب مرزوق طيلة النهار . تجرعه الدواء بيدها وتمده بالمصول بيدها وتشرف على معالجته ورعايته بنفسها ..

وتناولت طعام الغـــداء مع ام حبيب ، زعتراً وزيتوناً وجبناً وبيضاً ولبناً ودبساً وعسلاً . وتنـاولت محاسن ذلك الطعام القروي بشهية لم تعهدها بنفسها . لقد أكلت الراقصة الحسناء كمية من الخبز والطعام لم تتناولها مرة في حياتها .

وانقضى النهار على سرعة واندفاع.وبدأت الشمس تتوارى وراء تلك الجبال والقمم والتلال ، وبدأ الظلام يتأهب ليغمر القرية الوادعة الهانئة المطمئنة بوشاحــه الاسود البارد الكئيب فنهضت محاسن لتودع حبيباً وأمه ..

وهمست في اذنه وهي تودعه : « سأكون عندك يا حبيبي في ساعة مبكرة من صباح غد . ارجو ان تستسلم للرقاد وان تقضي ليلة هانئة سعيدة » .

وابتسم حبيب.وهمس: « شكراً لك يا حبيبتي علىعنايتك واهتمامك بي . سأحمل جميلك في عنقي مدى الحياة يا محاسن» وشدت يد محاسن يــد حبيبها . وتمنت لو ان امــه تخرج من الغرفة لتضمه الى صدرها وتقبله ، إلا ان الامنيــة لم تتحقق ولم تخرج الأم من الغرفة . واكتفت محــاسن من حبيب بشد اليد.ثم صافحت ام حبيب بحرارة وخرجت من الدار القروية للسير الى سيارتهــا فتستقلها وتعود الى بيروت على امل باسم وحلم هانىء عاطر جميل .

١١

الصديقة انعام

الراقصة الفاتنة محاسن نصار جالسة في غرفتها في دارها تدخن وتفكر . انهـا لتفكر بحبيب القلب والروح ، بحبيب مرزوق . ان حبيبها مريض ، فهل يجوز لها ان تنفذ القرار الذي اتخذته وتبتعد عنه الى الابـد ؟ لا ، الوقت الآن ليس وقت تنفيذ المقررات ، عليهـا ان تمتني بحبيب ريثما يشفى وينهض من السرير ، وعندئذ يبقى لكل حدث حديث ..

وارتاحت محاسن كل الارتياح وقد وصلت الى هـذا الحل للمعضلة .. مسكين حبيب .. هو مريض . لقد اخطأت الظن به ، خيل اليها انه غدر بها وكفر بحبها فاذا به طريح الفراش ..

وفيما محاسن منصرفة الى التفكير والتدخين اقبلت صديقتها الحميمة انعام ، ووثبت انعام الى محاسن لتقول :

« اين قضيت نهـارك اليوم يا محـاسن ؟ لقد خرجت من الدار في ساعـة مبكرة من الصباح . استفقت فلم اجـدك . قولي لي يا « عفريتة » اين قضيت نهارك ؟ »

ونفثت محاسن اللفافـة في الفضاء وهمست : « كنت

عنده . لقد قضيت طيلة النهار قربه يا انعام ؟ »
وتساءلت انعام : « القروي الفقير ؟ » .
قالت : « اجل هو يا انعام . الشاب الوسيم الجميل » .
وتقدمت انعام من صديقتها محاسن تجلس قربها لتقول :
« ولذلك فأنا اراك باسمة الثغر ، طلقة المحيا ، مرتاحة الفؤاد . لقد وجدته اخيراً » .
قالت محاسن : « انني اتربع على قمة السعادة يا انعام لقد قضيت طيلة النهار قربه . قرب سريره » .
فأجفلت انعام. وتمتمت : « قرب سريره ؟. أيكون مريضاً ؟ » .
قالت محاسن : « اجل . هو مريض يا انعام » .
فلمعت الخشية في عيني الراقصة انعام وهمست : « مريض وتجلسين قرب سريره ؟ ألا تخشين ان تنتقل العدوى اليك يا محاسن ؟ »
فابتسمت محاسن وهمست : « الحب لا يعترف بمثل هذه التوافه يا انعام . هل تصدقين يا انعام انني اتمنى ان تنتقل العدوى اليّ . اتمنى ان امرض انا ويشفى حبيب » .
فارتسمت على شفتي الراقصة انعام ابتسامة هزء وسخرية وتمتمت : « انت مجنونة يا محاسن . لم يعد عندي شك بجنونك . ماذا سيفعل لك حبيبك هذا ؟ وما سيفيدك الحب اذا وقعت فريسة داء وبيل ؟ نصيحتي اليك يا محاسن ان تبتعدي عن هذا الشاب المريض ريثما يشفى . قد يكون داؤه

وبيلا يا اختي » .

قالت محاسن : « لا .. اطمئني . اذا كنت تخافين ان انقل الداء اليك فانني لأطمئنك بأن داءه غير وبيل » .

قالت انعام ، وهي تنفث دخان لفافتها في الفضاء : « ما هو داؤه ؟ ما هو مرضه يا محاسن ؟ »

قالت محاسن : « هو مصاب بلفحة هواء . كان العرق يتصبب من جسده وتعرض للهواء ، فأصيب بالتهاب شديد وارتفعت حرارته ارتفاعاً كبيراً واستدعي له الطبيب ليلا فأعلن ان حالته خطرة . وهو منذ اربعة ايام طريح الفراش إلا أن الخطر ابتعد عنه والحمد لله » .

فوجمت انعام وتمتمت: «داء حبيبك خطر مخيف يا محاسن. هكذا يبدأ داء السل الوبيل . اني لأخشى ان يكون حبيبك مصدوراً . إن ابن عمي مات مصدوراً . وقد اصيب بما اصيب به حبيبك .

وابتسمت محاسن.وهمست : أتكون نهاية حبيب مثل نهاية ابن عم انعام ؟.لا . لا . مستحيل لماذا تريد انعام ان تشغل بالها وان تقلق افكارها ؟

وساد الصمت برهة بين الراقصتين الجميلتين . وعادت انعام الى الكلام بعد صمت قصير لتقول : « انهضي الآن يا محاسن وارتدي ثيابك . سأدخل انا الى غرفتي وارتدي ثيابي .. الساعة بدأت تشير الى التاسعة ويجب ان نشخص الى عملنا في الملهى يا اختي » .

قالت انعام هذا ونهضت لتدخل الى غرفتها لترتدي ثياب

السهرة .. ونهضت محاسن ايضاً لترتدي ثيابها والقلق يعصف بها والهواجس تقلق خاطرها وتثير خوفها واضطرابها .

وانتهت الراقصتان من ارتداء ثيابهما. ودلفتا الى السيارة، الى سيارة محاسن،وجلست محاسن الى مقود السيارة، وجلست انعـــام قربهـــا ، وانطلقت السيارة بهما الى الملهى الصاخب الرحيب ..

وراحت محاسن تفكر بحبيب وتردد في خاطرهـــا كلمات صديقتها انعام : « ابن عمي مات مصدوراً . وقد اصيب بمـــا اصيب به حبيب». ترى هل ينتزع الموت منهـــا حبيبها ؟ هل يموت حبيب ؟

وذعرت الراقصة محاسن وقد وصلت بتفكيرها الى هـــذا الحد : هل يموت ؟ هل تفقده ؟ هل يزاحمها الموت عليـــه ؟ لا . لا . لا وألف لا .

والتف الزبائن الكرام حولهـــا يسايرونها ويلاطفونهـــا ويغدقون عليها الهدايا وينفحونها بالخمر ، إلا أن محاسن كانت في شغل عنهم .. كانت منصرفـــة الى التفكير بحبيب القلب والروح ..

وحان موعد رقصها،والليل قد قارب الانتصاف فصعدت الى المسرح لترقص وهي تفكر بحبيب .. وعندما أنهت عملها ارتدت ثيابها على عجل ووثبت الى صديقتها انعـــام قائلة : « انعام . انا سأعود فوراً الى الدار » .

فدهشت انعام الراقصة،وتمتمت: «الآن؟ الساعة لم تتجاوز

منتصف الليل يا محاسن. والزبائن الكرام والمعجبون والاصدقاء ينتظرونك في القاعة يجب ان تجالسيهم وتسايريهم وتشاركيهم احتساء الخمر . يجب ان تكملي مهمتك يا محاسن » .

قالت محاسن : « انا متعبة . ويجب ان ارتاح يا انعام سأنتظرك في الدار » .

قالت محاسن هـذا وهمت بالانصراف .. واذا بصاحب الملهى الكريم يطل عليها .. وشاهدها تتأهب للخروج فوثب اليها يمسك بيدها ليقول : « الى اين يا محاسن ؟ »

قالت : « سأعود الى الدار يا ابا العز » .

فظهرت الدهشة في عيني ابي العز وقـال : « الآن ؟ الآن تريدين ان تعودي الى الدار؟ في مثل هذه الساعة المبكرة ؟ »

قالت : « انا متعبة يا ابا العز . الصداع يؤلمني . وأنفاسي تضيق في صدري والألم يعصف بكل عضو من اعضاء جسدي» .

فشدت يد ابي العز يد الراقصة محاسن وتمتم: « محاسن! صحتك عندي قبل كل شيء . إلا أن المصلحة تقتضي وجودك في الملهى . انت تعلمين يا محاسن ان المعجبين بك كثيرون ، وأصدقاءك كثيرون ، والذين يؤمون هذا الملهى من اجلك ، كي يشاهدوك وينعموا بالجلوس قربك والتحدث اليك كثيرون. اذا انت انصرفت الآن انصرفوا وراءك .. ليلة امس لم تحضري الى العمل ، اتعلمين ماذا حدث ؟ مـا ان علموا بتغيبك حتى انصرفوا دون ان يحتسوا كأس خمر .. غيابك عن هذا الملهى يخرب بيتي يا محاسن .

فارتسمت على شفتي الراقصة محاسن ابتسامة واهية صفراء وهمست : « انا متعبة يا ابا العز . هل ترتاح الى تعبي ؟ سأقع فريسة الداء اذا لم اخلد الى الراحة . ان غيابي عن ملهـاك لساعات قليلة يخرب بيتك .. ترى ماذا يفعل ببيتك مرضي الطويل ، الذي ينتهي بي الى القبر ؟ أليس من الافضل ان أتغيب عن العمل ساعات من ان انقطع عنه انقطاعاً تاماً ؟

فأفحمته .. قـال : « قلت لك وأعيد القول ان صحتك قبل كل شيء عندي يا محاسن. اذا رأيت نفسك متعبة فعودي الى الدار » .

قالت وهي تهم بالمسير : « تصبح على خير يا ابا العز » .. فلم تفلت يده يدها . وقال: « سأرافقك الى الدار يا محاسن. سأقضي ما بقي من الليل قربك .. منذ أمد بعيد لم نقض ليلة معاً . انني في اشتياق رحيب اليك » .

قالت : « لا يا ابا العز . انا متعبة الليـلة كما قلت لك ، اريد ان ارتاح . اريد ان انام . لو انني استطيـع العمل لأقمت هنا في الملهى أساير الزبائن وأسامرهم وأشاطرهم الخمر والطعام» . قال ابو العز : « متى سأخلو بك يا محـاسن ؟ متى استطيـع أن استعيد معك ليالينا الحلوة الهانئة العذبة » ؟

قالت وهي تسحب يدها من يده: « الايام بيننا يا ابوالعز. لا تستعجل الامور وقد كانت الندامة ابداً في العجلة » .

قال : « انني لأكاد اذوب شوقاً اليك » .

وردت عليه بابتسامة واهية صفراء.. وانسلت من الملهى،

لتسرع الى سيارتها فتستقلها وتطير الى دارها القائمة في شارع الحمراء الارستقراطي في الصميم..ووصلت الى دارها فأسرعت الى غرفتها تنزع عنها ثيابها وترتدي ثياب النوم وتستلقي في سريرها لتشعل لفافة وتنصرف الى التدخين والى التفكير .

ومرت حياتها في مخيلتها. فتذكرت ، تذكرت تلك الايام المظلمة الرهيبة المرّة المذاق التي عاشتها.. كيف مات والداها وهي طفلة .. وكيف بسط خالهـا عليها سلطانه .. وكيف عملت خادمة تغسل الصحون وتكنس الدور وتغسل الثياب وتعـــاني مرارة الفقر والعوز والجوع والحرمان .. وكيف اصبحت راقصة .. وكيف حرمت من نعمـة الحب المقدس طيلة هذه السنوات .

والآن .. الآن بعد ان وجدت الحب المقدس الشريف ، تتدخل الاقدار في مصيرها لتحرمها من حبيبها .. فكأن الله كتب لها الشقاء والتعاسة.والعذاب في صفحة القدر . كأنها ولدت والنحس في يوم واحد.ترى هل تفقد حبيبـاً ؟.. اذا فقدته ، لا سمح الله ، فهي لن تعيش يومـاً واحداً بعده،اذا مات حبيب ، لا سمح الله ألف مرة ، فستلحق به . ستنتحر وتدفن وإياه في قبر واحد ..

وأدمعت عينا محاسن وشريط حياتها يمر امـام عينيها .. وأغمضت عينيها على دموعهـا.وهمست : « ارحمني يا رب . يكفيني ما ذقت من العذاب والالم والشقاء في حياتي . رفقـاً بقلبي يا إلهي واشف لي حبيباً » .

ونامت .. نامت محاسن على دموعها .. وعندما استفاقت كانت الشمس قد بدأت تتسلل عبر النافذة الى غرفتها لتغمر سريرها بوشاحها الذهبي الجميل .. ورمقت محاسن الساعة بنظرة سريعة فاذا بهـا تشير الى السابعة من الصباح .. ووثبت من السرير. وغسلت وجهها ثم بدأت ترتدي ثيابها على عجل . لقد وعدت حبيباً بأن تكون عنده في ساعة مبكرة من الصباح . يجب ان تسرع في الوصول اليه . وانتهت من ارتداء ثيابها . وحملت محفظتها ، وتسللت من الدار وهي تخشى ان تستفيق انعام وتحاول ردعها عن الذهاب اليه .. واستقلت سيارتهـا وأطلقت لها العنان في طريق المعاملتين ..

وعادت محاسن الى التفكير ، وهي تقود السيارة الفخمة الانيقة . وعادت الافكار تقلق خاطرهـا . وعادت كلمات انعام ترن في اذنيها «وابن عمي مات مصدوراً بعد ان أصيب بلفحة هواء . تماماً مثل حبيبك ..» وأرسلت محاسن أنـــة موجعة وهي تقود سيارتها . وهمست في سرها : لقـد أثارت انعام القلق والخوف والذعر في قلبي من يطمئن قلـبي وينتزع منه هذه الهواجس والافكار السوداء ويريحني منها؟.. من؟.. ليس ثمة الا الطبيب . يجب ان تستشير طبيباً .. ولكن .. من هو هذا الطبيب الذي ستستشيره ؟.. من هو ؟.. يجب ان تستشير الطبيب الذي عالج حبيبـاً والذي مده بالمصول ووصف له الادوية والعقاقير .. هذا الطبيب ، من هو ؟ انه الدكتور جوزف كرم .. هكذا قال لها حبيب .. لقد قـ ال

لها : الجيران استدعوا لي الدكتور جوزف كرم ليلا ..

الدكتور جوزف كرم ؟.. اجـــل .. وعيادة الدكتور جوزف كرم في المعاملتين . لا تبعد عن الشاطىء الفسيح الارجاء سوى خطوات قليلة . ورواد الشاطىء كلهم يعرفون تلك العيادة . وأكثرهم يمر بها في ذهابه وإيابه .. ستمر اذن، وهي في طريقها الى القرية الصغيرة الوادعة ، ستمر بعيـــادة الدكتور كرم وتسأله عن حالة حبيب وتقف منه على الحقيقة الناصعة البياض ..

وضغطت رجلهـا على ضاغط البانزين فاندفعت سيارة البويك السوداء بأقصى سرعتها .. كانت محاسن تريد الوصول الى عيادة الدكتور جوزف كرم لتقف منه على الحقيقة الراهنة البيضاء .. ووصلت السيارة بها الى المعاملتين ، واتجهت بهـا الى عيادة الدكتور جوزف كرم ، ودخلت الى العيادة لتطلب من الممرضة مقابلة الطبيب . وكانت العيـادة تزدحم بالمرضى الذين جاؤوا للمعالجة فدعتها الممرضة الى الانتظار.. وانتظرت. انتظرت زهاء ساعة قبل ان تسمح لها الممرضة العبوس بمقابلة الطبيب .. وأخيراً ، وبعد انتظار طويل سمحت لها الممرضة بالدخول على الطبيب .. ورحب الدكتور كرم بالغادة الحسناء وسألها : أمر ؟.. بماذا تحسين ؟.. ماذا يؤلمك ؟

وابتسمت محاسن نصـار . وهمست : « انا لا أشكو داء ولا أحس بمرض يا سيدي الطبيب » وضحك الدكتور كرم ، وهمس : « هل يخيل اليك انني بائع عطورات ؟ هـل جئت

تبتاعين علبة بودرة او قلم احمر شفاه ؟ » والدكتور كرم خفيف الروح سريع النكتة دائم الابتسام . هذا اذا كان هادىء الاعصاب . أما اذا كان غاضباً ، فان ثورة الغضب تبلغ ذروتها في نفس الدكتور كرم .. ومن حسن حظ الراقصة محاسن نصار ان الدكتور كرم كان هادىء الاعصاب تلك الساعة .. فارتاحت محاسن للطف الدكتور كرم ولخفة روحه وهمست : « انا اعلم يا سيدي الطبيب انك لا تتاجر بسوى المعرفة والطب والادوية والعقاقير ولذلك فقد جئت اليك جئت لاطلب منك أداء خدمة . جئت لاستشيرك في مسألة طبية » فجلس الدكتور كرم على مقعده وهمس: « سلي ما تريدين ايتها الحسناء » . وتمتمت محاسن : « منذ خمسة ايام ذهبت فجراً لمعالجة شاب في القرية الخضراء القريبة من المعاملتين . هل تذكر يا سيدي ؟ » قال الطبيب : « من اين لي ان اذكر وقد عالجت مئات المرضى خلال هذه الايام الخمسة. قولي لي ما هو اسم هذا الشاب ؟ » قالت : « اسمه حبيب مرزوق » قال : « أجل . اذكر . حبيب مرزوق شاب وسيم قوي . كان مصاب بالتهاب في الصدر وفي الرئتين » . قالت محاسن : « جئت اسألك يا سيدي واستحلفك بشبابك ان تقول لي بكل صراحة ، هل هناك خطر على حياته ؟ ».

وادرك الدكتور كرم ، وهو ليس بغريب عن اورشليم ، ادرك انه حيال عاشقة متيمة ولهى فقال : « ماذا يهمك من امر حبيب مرزوق ؟.. » هل انت نسيبته ؟.. قالت :

« لا .. انا صديقته يا سيدي » فضحك الطبيب وهمس : « اطمئني . ليس ثمة اي خطر على حياته سيكون باستطاعته الزواج بعد ايام قليلة » .

فصبغ الخجل وجنتي محاسن إلا أنها اطمأنت بعض الاطمئنان.. وأبت إلا أن تزداد إطمئناناً فقالت : « ولكنني اعلم ان لفحة الهواء تصل بالملفوح الى داء السل الوبيل » فقهقه الدكتور كرم وقال : « ما دامت معلوماتك الطبية واسعة الى هذا الحد ، فلماذا لا تفتحين عيادة وتعالجين المرضى ؟ » .

ومرة ثانية صبغ الخجل جبين محاسن نصار . وتمتمت : « اعرف شاباً اصيب بما اصيب به حبيب مرزوق يا سيدي ولم يلبث ان اصبح مصدوراً ، وانتهى به الداء الوبيل الى القبر » قال الدكتور كرم : « اسمعي يا انستي اللطيفة . ان ما اصاب صديقك او حبيبك او خطيبك حبيب مرزوق امر خطير . ان لفحة الهواء قد تؤدي الى داء السل وقد تؤدي الى الموت اذا لم تعالج فوراً وبسرعة . ومن المعلوم ان داء الصدر يجد ارضاً خصبة في صدور الشبان الاقوياء . كان من الممكن ان يصاب حبيب مرزوق بداء الصدر لو لم اسرع لمعالجته بأحدث الوسائل الطبية . اما وقد عولج فهو سيكون قادراً على النهوض من السرير خلال اسبوع على ابعد تعديل .. ثم انا لا اعلم لماذا يخاف الناس داء الصدر او داء السل كما يسمونه ، بالرغم من ان الادوية والعقاقير

والمصول الحديثة اصبحت قادرة على قهر هذا الداء وعلى خنق جرثومته في مهدها . ان داء السل لم يعد اليوم داء خطيراً مميتاً يا آنستي . ثم انني اقسم لك ان داء الصدر بعيد عن حبيب مرزوق بعد الارض عن السماء » .

وارتاحت محاسن نصار كل الارتياح.. وشكرت الطبيب على جميله ، وودعته لتسرع الى سيارتها فتستقلها وتطير بها الى حبيب القلب والروح والاحلام الهانئة والآمال الباسمة الخضراء تداعب فؤادها الهائم الولوع .

١٢
نور وظلام

أقامت محاسن نصار قرب سرير حبيبها مرزوق لا تفارقه طيلة النهار، فكانت تشخص الى القرية الوادعة الهانئة الخضراء في ساعة مبكرة من الصباح حاملة لحبيب القلب والروح الحلوى والاثمار والهدايا، وتجلس قرب سريره تسايره وتسامره وتشرف بنفسها على معالجته، وتجرعه الدواء بيدها. وكانت محاسن تجد لذة كبيرة في معالجة حبيب وفي خدمته. وازدادت تعلقاً به وقد لمست به الأدب والفضيلة والصلاح. وكان حبيب قد ازداد أيضاً تعلقاً بحبيبته محاسن بعد ان لمس فيها العطف والحب والتفاني في خدمته.

وكانت محاسن تعود الى دارها في بيروت في المساء. فما أن تتوارى الشمس وراء تلك الجبال الشماء حتى تثب محاسن الى حبيب تودعه وتودع أمه العجوز وتعود ادراجها الى بيروت على بسمة طلقة وأحلام وارفة عذاب..

وتدخل محاسن الى غرفتها لتنزع عنها ثيابها، ثياب النهار، ثياب الحشمة والفضيلة، وترتدي ثياب الليل، ثياب السهرة

الصاخبة المجنونة الحمراء ...

وتعمل محاسن طيلة الليل في الملهى ، تجالس الزبائن ، وتسايرهم وتشاطرهم الشراب، وتسطو على اموالهم ، ثم تصعد على المسرح لترقص رقصها الشرقي الصاخب.. وتعود مع مطلع الفجر البعيد مع صديقتها انعام الى الدار لتنام .. وتنهض في ساعة مبكرة فترتدي ثيابها وتستقل سيارتها وتطير بها الى حبيب .. واطمأنت محاسن كل الاطمئنان لبرنامجها هذا . الليل لعملها ، لرقصها ، للقمة الخبز. والنهار لقلبها ، لحبيبها، لحبها ..

وسار حبيب مرزوق خطوات سريعة في طريق الصحة والعافية .. وصحت نبوءة الدكتور جوزف كرم .. ما ان انقضى الاسبوع حتى وثب حبيب من السرير ، والصحة تغمر بردتيه بوشاحها الفضفاض الرحيب .. وبدأ حبيب يخرج مع محاسن الى الاحراج والغابات والكروم والبساتين. فكان يمسك بيدها ويسير وإياها ليجلسا معاً في ظل شجرة خضراء او تحت حنايا صخر ناءٍ . وتجلس محاسن قرب حبيب ، يدها بيده ورأسها الى صدره، وتنتشي الراقصة محاسن نصار في جلستها الهانئة قرب حبيبها وقد غمرتها الطبيعة بوشاحها الاخضر الفضفاض وسكبت العصافير في آذانها اناشيدها الشجية وأرسلت الجداول حولها ترانيمها العذبة الرخيمة .

وينصرف العاشقان المتيمان الى المناجاة والى رسم خطوط المستقبل الباسم الجميل..ويفرش حبيب مرزوق طريق حبيبته

محاسن بالورود وبالعطور وبالرياحين : « غداً يا محاسن ، بعد ان نتزوج ، سنقضي العمر كله معاً ، هنا في هـذه الربوع .. سنقضي العمر كله يا محاسن.. هكذا سنقضي العمر يا حبيبتي. يدي بيدك ورأسك على صدري ونسير في طريق الحياة معـاً حتى النهاية » ..

وتغمض الراقصة محاسن عينيها على دموعها لتشاهد بعين الخيال من خلال دموعهـا ذلك المستقبل الجميل الذي يرسمه حبيب لها.. وتهمس في سرها :«حبيب على يقين من انني فتاة شريفة ، ابنة تاجر كبير ، تعيش مع ابنة خالها في دارها في بيروت عيش فضيلة وطهارة وشرف وعفاف . ترى مـــاذا سيقول ؟ وماذا سيفعل اذا علم انني راقصـة اعرض جسدي العاري كل ليلة على ابناء الليل وبناته ؟»

وتنصرف محاسن الى التفكير فيما حبيب يسكب في أذنيها كلمات الحب والهوى والحنين .. ولتستغرق الراقصـة الحسناء في تفكيرها .. ماذا عليها أن تفعل ؟ هل تطلع حبيبـاً على الحقيقة الناصعة البياض؟ هل تقول له :«انا خدعتك يا حبيب، أنا كذبت عليك .. انا لست ابنة تاجر كبير . انا راقصة .. راقصة أكسب خبزي بدموع عيني ؟»

هل تقول له هذا ؟.. لا لا وألف لا .. الموت أهون لديها من هذا . هي لن تطلع حبيباً على هـذه الحقيقة . لن تعترف له بجريمتها. لن تقول له:«أنا خدعتك.» وتقف امامه مطأطأة الرأس ذليلة خجلة .. مـاذا ستفعل اذن ؟.. هل تنفذ الخطة

المرسومة فتبتعد عنه الى الابد ؟.. لا .. هذا ما لا تقوى عليه .. هي لا تستطيع ان تحيا بعيدة عنه ، لا تستطيع ان تعيش وقد ابتعد هو عنها .. الموت اهون عليها من الابتعاد عنه .. ماذا ستفعل اذن محاسن نصار ؟.. هي لا تستطيع البقاء قرب حبيب مرزوق ، ولا هي تستطيع الابتعاد عنه . ماذا ستفعل ؟. ليست تدري ماذا ستفعل .

وتضيع محاسن في تفكيرها ، وهي جالسة قرب حبيب مرزوق .. وتطفر الدموع من عيني محاسن ، وتبدأ تلك الدموع بالانهار على وجنتيها النديتين .. ويلتفت حبيب اليها ليقول : محاسن !.. لماذا تبكين ألا تروق لك الحياة ؟ قرب حبيب ؟. ألا تريدين ان تقضي العمر قربي يا محاسن ؟. وتطوق محاسن نصار عنق حبيبها بيديها . وتهمس : هذه هي دموع الفرح يا حبيبي.. انها دموع السعادة . أنا سعيدة قربك يا حبيب ، سعيدة بحبك ، سعيدة بك . والسعادة عندما تبلغ ذروتها تدفع الدمع الى الانهار ، والسعادة الكبيرة مثل الحزن الكبير يا حبيب .

ويتعانقان على جوى ونار .. وتنسلخ محاسن عن حبيب لتسرع الى دارها فتدخل الى غرفتها وتستغرق في البكاء ..

كانت محاسن نصار في حبها كالتائه في يم شاسع واسع رحيب تحيط به الأمواج المتلاطمة والعواصف الهوجاء . لم تكن محاسن تعلم ماذا عليها ان تفعل .. هل تبتعد عن حبيب أم تظل قربه ؟. هل تطلعه على حقيقتها ، أم تخفي

تلك الحقيقة عنه ؟. ليست تدري ، ليست تدري.. عشرات الاسئلة كانت تدور في خاطر محاسن نصار دون ان تستطيع الاجابة على سؤال واحد منهـا .. فهي تعلم يقيناً انهـا لن تستطيع العيش قرب حبيب، اذا وقف حبيب على حقيقتها. اذا علم انها راقصة فهو سيبتعد عنها كما يبتعد عن الوباء . فهو لن يرضى بالزواج من راقصة ، واذا رضي فان أمه لن ترضى، وهذه الأم ، سترغم ولدها على الابتعاد عنها .. وحبيب يحب أمه ويحترمها ولا يخالف لها أمراً.. من المؤكد أن تلك الأم، وهي القروية التي لا تزال تعتبر الكشف عن عنق المرأة وعن معصميها جريمة خلقية لا تغتفر .

من المؤكد ان تلك الأم ستمسك بيد ابنها وتبتعد به عن الراقصة التي تعرض جسدها العاري على العيون النهمة الجـائعة العطشى .. وتعلم محاسن انها لن تستطيع الابتعاد عن حبيب. ان الموت افضل لديها من الابتعاد عن حبيب مرزوق.. الويل لها اذا ابتعدت عن حبيبها ، وألف ويل لها اذا لم تبتعد .

وتضيع الراقصة الحسناء في تفكيرها ، وتتيه في دموعها كما يتيه الضائع في صحراء واسعة الحنايا بعيـدة المدى مجهولة الحدود ..

ولم تستطع محاسن ان تتخـذ اي قرار . لم تستطع ان ترسم مصيرها مع حبيب فتركت للايام تدبير امرهـا وتقرير ذلك المصير ...

ومضت الراقصة الجميلة في علاقتها العاطفية المتينة بحبيب

مرزوق . كما مضت في عملها في ملهى صالح ابي العز .. في النهار تشخص الى القرية الباسمة الخضراء وتخلو بحبيبها ، وفي الليل ترقص وتساير الزبائن وتحسو الخمر معهم وتستولي على ما في جيوبهم من مال وذهب ..

إلا ان محاسن نصار لم تكن مرتاحة الى حالهـا . فهي لا تريد ان تمضي في خداع حبيبها . هي تريد ان تخلص له على الاقل ، ما دامت لا تستطيع ان تصارحه بالحقيقة .. تريد ان تكفر عن ماضيها بحاضرها . الماضي مضى . لقد رقصت وشربت الخمر ، وسكرت ، وكان لها علاقات غرامية ، مع اكثر من رجل ، وأغدقت على عشيقها الرسمي صالح ابي العز الكثير من جسدها ومن عاطفتها فهل يجوز لها ان تمضي في المسير ؟.. هل يجوز لها ان تستمر في حياة الظلام بعد ان أحبت حبيباً وتدلهت بحبه وتفانت في هواه ؟.. لا . لا ، هذا ما لا يجوز .. يجب ان تنسى الماضي وأن تدفنه وتخلص منه . ثم ، ثم تعيش بحاضرها حياة نظيفة سعيدة ناصعة البياض.وهكذا تخلص لحبيبها وتصون شرفها وكرامتها وسمعتها ونصاعة جبينها ..

واستلقت محاسن نصار ذات ليلة على سريرها الوثير تدخن وتفكر . كانت تفكر بالتخلص من ماضيها .. ولكن كيف ؟.. كيف تستطيع التخلص من هذا الماضي الاسود الموبوء ؟.. هل تستطيع ان تتخلص من عشيقها صالح ابي العز ؟.. هل تستطيع ان تتخلص من مسايرة الزبائن في الملهى

الليلي العامر ، ومن حسو الخمر معهم ؟..

هل تستطيع أن تتخلص من السهر حتى مطلع الفجر البعيد ؟.. لا .. هي لن تستطيع التخلص من كل هذا ، إلا اذا تخلصت من عملها . يجب أن تتخلص من العمل في الملهى . يجب أن تتوقف عن الرقص . هذا اذا ارادت أن تتخلص من ماضيها ..

ولكن . ولكن هل تستطيع أن تتوقف عن العمل ؟.. هل تستطيع أن تنقطع عن الرقص؟..ان توقفها عن العمل يعني انقطاع المورد العذب عنها . يعني ان الذهب والحلى والجواهر لن تتدفق بين يديها .. أتكفر بالنعمة ؟.. أتعرض عن الذهب المتدفق عليها في حين يعدو البشر وراءه ؟.. هل تستطيع ذلك ؟.. لا : لا وألف لا .

وانغمست محاسن نصار في تفكيرها : لماذا لا تنقطع عن العمل ؟ ألا يكفيها ما جمعت من مال ومن حلى ومن جواهر خلال الأعوام التي عملت فيها فيملاهي لبنان وسوريا والعراق والاردن وتونس ومراكش وسائر المدن والعواصم العربية ؟.. لقد جمعت ثروة طائلة يعجز عنجمعها كبار التجار والصناعيين والمزارعين خلال تلك الاعوام .

هذه البناية الشاهقة ذات الاجنحة العالية هي ملكها الخاص ، وهي تدر عليها ثلاثين ألف ليرة في العام . ولديها في مصارف لبنان مبالغ محترمة من المال،وحلاها وجواهرها تقدر بألوف الليرات . هي لن تموت من الجوع اذا انقطعت

عن العمل ، بل هي تستطيع ان تعيش كما تعيش اي سيدة محترمة غنية .. يجب اذن أن تنقطع عن العمل وتصون كرامتها وشرفها وسمعتها وحبها.. ستتخلى عن عملها لتحتفظ بحبيبها . حبيب يساوي لديها مال الدنيا بأسره ..

وعزمت محاسن على التوقف عن الرقص . لقد اتخذت قراراً بالتخلي عن عملها ، إلا انها لم تضرب موعداً لتنفيذ القرار . هي ستترك للايام تحديد الموعد المضروب ..

وارتاحت محاسن بعض الإرتياح وقد توصلت الى اتخاذ هذا القرار . وأقامت ترقب الفرصة السانحة لوضعه موضع التنفيذ .

ومضت الايام على سرعة واندفاع ، وتوارى الصيف بلهيبه وحره وحرارته . واقفر الشاطىء الحالم الجميل في المعاملتين ونزح عنه السابحون والسابحات تاركين للامواج الصاخبة المتمردة الهوجاء اليد في الرمال الباسمة السمراء ، تعبث بها وتغمرها بزبدها وذراتها .. وأطل الخريف بوجهه الاصفر السائم الواجم ، فبدأت الحقول تقفر من المزارعين ، وعادت المواشي الى حظائرها ، وجمعت الحنطة عن البيادر وراح الفلاحون والمزارعون يستعدون لأستقبال الشتاء البارد الممطر الكئيب ..

وبزغ الشتاء بعواصفه وثلوجه وامطاره وتعرت الاغصان من ثوبها الأخضر الريان.ورحلت الطيور عن أعالي الجبال . وانقلبت أناشيد الجداول الى عربدة وولولة وهدير ... وقبع

الفلاحون في دورهم حول المواقد يدفعون بنارها البرد القارس عن أجسادهم الممتلئة صحة وعافية ، ويحيون الليالي الساهرة الغنّاء بلعب الورق ورقص الدبكة ، والمباراة الزجلية الحامية الوطيس ..

ولم تنقطع محاسن نصار عن زيارة حبيبها القروي الوسيم . إلا أن جلسات الحبيبين المتيمين وخلواتها انتقلت من الاحراج والغابات والبساتين الى الدار القروية الوادعة ، الى دار حبيب مرزوق ، فكان حبيب ومحاسن يجلسان في تلك الدار حول الموقد الملتهب السعير يصطليان بناره ، ويتبادلان أحاديث الحب والوجد والشوق والهيام ..

وكانت أم حبيب مرتاحة كل الارتياح لعلاقة « المحروس » حبيب بالبيروتية الحسناء ، لا سيا وهي تأمل أن تفرح من المحروس وأن تشاهد أحفادها يدرجون في دارها العامرة الواسعة الأرجاء .. وحبيب كان يرفض الزواج كلما عرضت عليه أمه مشروع الزواج واختارت له عروساً من بنات القرية ، كان يرفض المشروع ويأبى أن يوافق على اختيار أمه العجوز . واللواتي اختارتهن أم حبيب لابنها كثيرات .. ابنة المختار رفض حبيب الزواج منها ، وإبنة الناطور أبى حبيب الزواج بها،وإبنة المعلم جبور كان نصيبها الرفض .. وإبنة الشيخ عباس لم يكن حظها من حبيب بأفضل من حظ اللواتي سبقنها . وتبرمت ام حبيب وتأففت وابنها يكفر بالزواج ويأبى أن ينزل عند طلبها . وضربت العجوز كفاً بكف

وتمتمت: يا ويلي يا ويلي. كم انت بائسة يا ام حبيب، ستموتين وفي قلبك حسرة. ستدخلين القبر قبل أن « يحط هذا الولد عقله برأسه » ويتزوج.

وبدت أم حبيب ساهمة واجمة كسيرة الخاطر. فهي تريد أن تفرح من المحروس، والمحروس يأبى إلا أن يحرمها من فرحته..

وأقامت أم حبيب تنتظر من المحروس أن « يحط عقله برأسه ». ولم يطل انتظارها. شهور قليلة وجاءت البيروتية الحسناء. فخيل لام حبيب ان معضلتها حلت... يبدو أن الانسجام سائد بين محاسن وحبيب. والانسجام يقود الى الحب والحب يقود الى الزواج. وماذا تنتظر ام حبيب غير هذا ؟

وكانت ام حبيب ترتاح كل الارتياح للبيروتية الحسناء التي تزورهم كل يوم تقريباً حاملة لها ولابنها الهدايا العديدة، فما أن تطل محاسن، حتى تثب ام حبيب اليها فاتحة لها ذراعيها لتضمها الى صدرها وتعانقها كما تعانق الام ابنتها...

ومحاسن نفسها كانت ترتاح كل الارتياح لأم حبيب وكانت ترى فيها الأم الفاضلة الحنون. ولم تكن تناديها إلا بـ « يا امي » وتناديها ام حبيب: « يا ابنتي. » وتموج الدموع في عيني محاسن نصار كلما نادت ام حبيب: « يا امي » وكلما نادتها ام حبيب: « يا ابنتي » وهي التي حرمت من حنان امها ومن عطف أبيها..

وأصبحت محاسن من الاسرة. فهي عند ام حبيب الابنة

العزيزة . وعند حبيب الحبيبة المالكة القلب والروح .. وكانت محاسن نصار تجد لذة كبرى في الجلوس قرب حبيب أمام الموقد الملتهب السعير . كانت تلك الدقائق التي تخلو فيها محاسن بحبيبها رائعة فاتنة سمحاء ..

ومرت الايام .. واقترب العام من الانتهاء .. وبدأت محاسن تفكر جدياً بتنفيذ القرار المتخذ ، قرار الانقطاع عن العمل والاخلاص لحبيب القلب والروح .. وكان يوم الرابع والعشرين من شهر كانون الاول .. والعام ذاك عام ١٩٦٠ فشخصت محاسن كعادتها الى القرية الباسمة الهانئة . لقد شخصت محاسن الى القرية في الساعة العاشرة من الصباح .. وكالعادة ، وثبت اليها أم حبيب تعانقها وتضمها الى صدرها هامسة : اهلا يا ابنتي ، اهلا لقد كنت انتظر حضورك يا محاسن . انت لن تعودي الليلة الى بيروت . ستسهرين عندنا الليلة وتنامين عندنا .

فحاولت محاسن نصار الاعتذار قالت : «لا يا امي . لا . انا لا استطيع أن اسهر هنا وأنام هنا لأن ابنة خالي انعام التي تقيم معي في الدار ستقلق عليّ . يجب أن اعود الى بيروت قبل المغيب » . وأمسكت ام حبيب بيدها لتقول : « الليلة ليلة عيد الميلاد . في مثل هذه الليلة ولد مخلص العالم ، ستسهرين معنا حتى منتصف الليل ثم تشخصين معنا الى الكنيسة حيث نحضر معاً القداس الالهي » .

فوجمت محاسن نصار .. القداس الالهي ؟ هي لم تحضر

القداس الالهي ، ولم تدخل الى الكنيسة منذ أمد بعيد . منذ ان كانت طفلة صغيرة .. ترى هل يحق لها الدخول الى الكنيسة بعد أن انقطعت عنها زهاء عشرين سنة ؟ لماذا لا يحق لها ذلك وابواب المعابد والمساجد مشرعة امام الجميع ؟. هل تقبل محاسن دعوة ام حبيب ؟ هل تسهر عندها ؟.. والعمل في الملهى ؟ هل تتخلى عن عملها ؟ وماذا سيفعل ابو العز ان هي تخلفت عن الحضور الى الملهى ؟ ماذا سيفعل؟ فليفعل ما يطيب له.. هي ستدعي انها مصابة بوعكة صحية. ستدعي بأنها تريد زيارة اهلها ، ستدعي بأنها مشغولة. ستجد ألف عذر .. اجل ، اجل هي ستلبي دعوة ام حبيب فلتسهر مع حبيب حتى منتصف الليل. ثم تذهب برفقته الى الكنيسة.

وأقبل حبيب يرحب بها . والتفتت امه اليه لتقول : «محاسن ستسهر معنا الليلة وستحضر القداس معنا يا حبيب »

وهمس حبيب مرزوق بفرح بعيد : « صحيح صحيح يا محاسن ؟ » وهمست محاسن : « اجل يا حبيب ، اجل سأظل قربك هنا حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ثم اعود الى بيروت لاطمئن ابنة خالي وأخبرها بأنني سأسهر هنا . وأعود في الساعة السادسة او في الساعة السابعة اليكم » .

قالت ام حبيب: « فلتحضر ابنة خالك معك يا محاسن. لماذا تظل وحدها في بيروت ؟ » قالت محاسن : « سأدعوها للحضور معي إلا انني لا أعلم اذا كانت تستطيع الحضور ام لا » .

وأقامت محاسن قرب حبيب حتى الساعة الثالثة. ونهضت وقــد اشرفت الساعة على الثالثة لتقول : « انا شاخصة الى بيروت وسأعود في الساعة السادسة ». وعادت ام حبيب تلح عليها باحضار ابنة خالها معها .. وتمتمت محاسن : « سأجرب أن احضرها معي » .. واستقلت سيارتها وطارت بهـــا الى بيروت .. ودخلت محاسن الى الدار . واتجهت الى غرفـــة انعام . وكانت انعام نائمـة . كان من عادة انعام أن تنام بعد الظهر كي تستطيع السهر.. وجلست محاسن على السرير قرب انعام توقظها : انعام ا.. انهضي . انهضي يا حبيبتي .. انهضي يا انعام ..

واستفاقت انعـــام تفرك عينيها . وهمست :«كم الساعة الآن ؟.. هـل حان موعد ذهابنـا الى الملهى ؟ » وضحكت محاسن وهمست : « لا لم يحن موعد العمل بعد . الساعة لم تبلغ الرابعة » . وتمتمت انعام : « كيف عدت اليوم بالسلامة قبـل الساعة الثامنة ؟ » قالت : « اسمعي يا انعـام . انا لن اشخص الليلة الى العمل » .

فوجمت انعام توفيق وتمتمت : « خير ان شاء الله .. لماذا لا تريدين الذهاب الى العمل ؟ » قالت محاسن : « انا مدعوة الى السهرة وانت ايضاً مدعوة معي » . قالت انعام : « من هو الداعي ؟ أيكون غنياً ؟ هـل هو شاب ؟ هـل هو امير عربي ؟ » .

فابتسمت محاسن وهمست : « لا. لا هو غـني . ولا هو

امير عربي ». قالت انعام : « اذهبي وحدك إذن . انا لن ارافقك ». قالت: « اسمعي يا انعام . الليلة ليلة عيد الميلاد . لقد دعتني ام حبيب ودعتك معي للسهرة في دارها » .

قالت محاسن : « من هي ام حبيب هذه ؟ » فأمسكت محاسن بيد صديقتها انعام لتقول: « ام حبيب هي ام حبيبي يا انعام » .

فتمتمت الراقصة انعام باستفهام: « ام الشاب القروي ؟ » قالت : « اجل هي بنفسها . نحن سنسهر الليلة في القرية مع القرويين ». فضحكت انعام وتمتمت :« هل تتخلين عن عملك للسهر مع القرويين ؟ » قالت : « اجل . وستسهرين معي ايضاً » .

قالت انعام : « لا يا محاسن . لا. العمل قبل كل شيء . يجب أن نشخص الى عملنا » . فشدت يد محاسن يد صديقتها انعام وهمست : « نحن نستطيع ان نعمل كل ليلة ، ولكننا لن نستطيع ان نسهر مع القرويين كل ليلة .

انهضي . انهضي فارتدي ثيابك وتعالي معي ... قالت انعام : « ماذا سيفعل ابوالعز وقد تخلفنا عن عملنا يا محاسن؟» قالت محاسن : « فليفعل ما يطيب له . تعالي ، تعالي »

وصمتت انعام . ونهضت من السرير ، وراحت ترتدي ثيابها .. ووثبت محاسن اليها لتقول : « لا . لا ترتدي هذا الثوب . يجب ان ترتدي ثوباً محتشما » . وضحكت انعام وهمست: « فليحرسك الله ياصاحبة الحشمة والطهر والعفاف».

وتمتمت محاسن : « اسمعي يا انعام . انا أوهمت حبيبـاً وأمه انني ابنة تاجر كبير ، مـــات والدي تاركاً لي ثروة طائلة ، وأنني اعيش مع ابنــة خالي في داري في بيروت . أنت الآن ابنة خالي . اياك ان تدعيهم يشعرون بأنك راقصة » .

نهضت انعام في ضحكها وهمست : « هل يخيل اليك انني سأرقص أمامهم ؟ اطمئني . هم لن يعرفوا شيئاً »..

وارتدت انعام ثياباً محتشمة ودلفت مـــع محاسن الى السيارة الفخمة . وطارت السيارة بهما الى القرية الهانئة الباسمة الخضراء .

١٣
حفلة زجل

السهرة الصاخبة عامرة في دار حبيب مرزوق . والنـــار متقدة السعير في الموقد ، ومحاسن جالسة قرب حبيبها حبيب مرزوق ، وقربهـــا تجلس زميلتها وصديقتها الحبيبة انعام . والقرويون يلتفون حول الموقد ليحيوا ليلة العيد على طريقتهم الخاصة .. وبـــدأ الزجالون يتبارون في الازجال فيشنّون الهجمات العنيفة تارة ليثبوا الى الغزل طوراً . وراح الزجالون يتغنون بجمال الفتاتين البيروتيتين وبحسنها وبعيونها وبقامتها ورشاقتها .. والتفت احد الشبان الزجالين الى محاسن نصار لينفحها بـ « ردة » غزل قال :

يا ام القامة الطويله   لوين بـــدي روح
عملت ءعا قلبي حيله   وسرقت الروح

وردد الرادادون الردة العامرة: « يا ام القامة الطويلة .. » والتفت احـــد الزجالين الى انعام لينفحها بـ « رنة » عامرة قـــال :

صارت روحي مشتبكي في معركتين
وقلبي عميرقص دبكي ومدبوح بالعين
علقتيني بالشبكه بلحظ الجفنين
وتركت روحي تلبكي وقلبي مجروح

وردد الردادون :

يا ام القامة الطويله لوين بدي روح
عملت عا قلبي حيله وسرقت الروح

وتبادلت محاسن وانعام النظرات والابتسامات وقد اعجبتا باولئك الزجالين السريعي الخاطر الحاضري الذهن الذين ينظمون الزجل ويرتجلونه ارتجالاً،وبعضهم يكاد لا يحسن القراءة والكتابة .

وهذه الميزة ، ميزة ارتجال الزجل يتفرد بها لبنان بين جميع الدول ، فكأن الموهبة والنبوغ فطرة في اللبناني .

وانتشت محاسن وانعام بأبيات الزجل المنثورة في اذانهما. وفيها الكثير من المديح لهما والثناء عليهما والاعجاب بهما . وهمست انعام في اذن محاسن : « يا لها من سهرة رائعة يا محاسن » وهمست محاسن: «الم اقل لك ان سهرة القرويين رائعة يا انعام ؟.. هل انت مرتاحة يا حبيبتي ؟ » وتمتمت انعام : « مرتاحة كل الارتياح يا محاسن . انا لم اكن لأحلم بمثل هذه السهرة » ..

ونهضت ام حبيب لتقدم للضيوف الساهرين الاثمار المجففة

والجوز واللوز والعسل والحلوى .. وامتدت السهرة حتى منتصف الليل .. واذا بجرس المعبد يقرع .. فهو يعلن لابناء القرية الصغيرة موعد ابتداء القداس الالهي .. ووجمت محاسن نصار وهي تسمع صدى قرع الجرس يتجاوب في تلك الوديان والوهاد والتلال ممزقاً اذان الليل البهيم ، مرسلاً الرهبة والخشوع في القلوب والنفوس والارواح ..

وكانت الجبال والوديان تردد صدى الناقوس الحاناً شجية عذبة صافية الاديم .. وهب الساهرون في دار حبيب مرزوق شاكرين لصاحب الدار ولوالدته ضيافتها واخذوا يخرجون من تلك الدار ليشخصوا الى الكنيسة .. ووقفت محاسن ووقفت انعام .. واقتربت انعام من محاسن لتقول : يجب أن نعود الى بيروت يا محاسن .

وهمست محاسن نصار : « لا يا انعام لا يا اختي . نحن لن نعود الى بيروت الآن . سنشخص مع القرويين الى المعبد لحضور القداس الإلهي » قالت انعام : « الساعة أشرفت الآن على منتصف الليل يجب ان نعود الى دارنا لنرتاح يا محاسن » . قالت محاسن باصرار : « سنسمع القداس الالهي ثم نعود الى دارنا . تعالي ، تعالي معي الى الكنيسة يا انعام » .

قالت محاسن هذا وسارت مع حبيب ومع أمه الى المعبد. وسارت معهم انعام.وكان البدر يتبختر في السماء ساكباً على الارض ثوبه الفضي الجميل . والبرد قارس شديد ، والهواء البارد يلفح الاجسام بسوطه. وكل ما في القرية الصغيرة هادىء

صامت هاجع . ما هناك سوى صدى قرع الناقوس المتجاوب في الربى والوهاد والجبال والوديان ..

ووصلوا الى المعبد .. كان هناك جمهور غفير من ابناء القرية يحتشدون في ساحة الكنيسة تحت اغصان السنديانة الهرمة العجوز . وكان الشبان يتبارون في قرع الجرس. وكانت ابواب المعبد مشرعة وقد أنيرت الشموع ونثرت في جوانبه الزهور والورود والرياحين. ودخل حبيب الى المعبد. ودخلت امه ومحاسن وانعام..لم يكن القداس الالهي قد بدأ بعد . الا أن الشموع كانت قد أنيرت على المذبح ، وكانت انوار الشموع تتهادى بين أيدي نسيم الليل العليل فتتهادى معها ظلال الرسوم والصور والتماثيل على الجدران وكأنها أطياف ، او أجنحة ملائكة تخفق في الفضاء ...

وشعرت محاسن نصار برهبة وبخشوع وقد دخلت الى تلك الكنيسة الصغيرة ، شعرت بتيار كهربائي يسري في دمها ، شعرت بقشعريرة لم تشعر بمثلها في حياتها . وعادت بها الذاكرة الى الوراء . الى زهاء عشرين سنة عندما كانت امها الراحلة تمسك بيدها وتسير بها الى الكنيسة . يومذاك كانت صغيرة . صغيرة جداً . كانت طفلة . إلا ان تلك الذكريات كانت تتمايل في خاطرها كالأشباح الواهية الصفراء .

لم تكن محاسن تذكر كل شيء بل هي كانت تذكر بعض الشيء . كانت تذكر ان امها كانت تجثو في الكنيسة أمام المصلوب وتتمتم بعض كلمات .. وكانت تذكر ان امها كانت

ترسم إشارة الصليب وهي تدخل الى المعبد .. وكانت تذكر أن المحتشدين في الكنيسة كانوا ينشدون بعض الأناشيد ويترنمون ببعض الترانيم .. هذا كل ما كانت محاسن تذكره .. وكانت تلك الذكريات تنتصب امامها وهي جالسة على المقعد الخشبي في الكنيسة قرب انعام وقرب ام حبيب .

ومر خاطر سريع في رأسها : أمها كانت تجثو امام المصلوب في الكنيسة وتصلي .. وفجأة رأت نفسها تجثو على ركبتيها وتغمض عينيها وتهمس في سرها : « يا يسوع بحق ميلادك العجيب خذ بيدي وأنر امامي السبيل .. ربي وإلهي اغفر لي خطاياي . أنا خاطئة يا رب . أنا مجرمة، أنا شريرة، ارحمني يا رب ارحمني يا إلهي انك لغفور رحيم .. »

وبدأت الدموع تنهمر بغزارة من عينيها المغمضتين .. وضاعت الراقصة محاسن نصار عن حقيقتها ، وهي جاثية تصلي وتبكي في ذلك المعبد الصغير . هي لم تهمس بكلمة صلاة في حياتها . هي لم تركع مرة في حياتها . فما بالها تجثو الآن وتبكي وتصلي ؟.. وشعرت محاسن نصار بقوة هائلة تعصف بها ، شعرت بعاصفة هوجاء تجتاح كيانها وهي راكعة تصلي .. ما هي تلك القوة ؟ ما هي تلك العاصفة ؟. ليست تدري ..

وابتدأ القداس الالهي . واحتشد أبناء القرية في الكنيسة. وبدأ الكاهن بالذبيحة الالهية وتعالت الترانيم والتراتيل ، ومحاسن نصار ضائعة تائهة مستغرقة في صلاتها وفي بكائها وفي طلب الرحمة والغفران من إله السماوات والارض .. وعندما

انتهى القداس الالهي بدأ ابناء القرية يخرجون من الكنيسة . وظلت محاسن جاثيـة تبكي .. واقتربت منها صديقتها انعـام لتهز كتفها وتهمس في أذنها : محاسن .. تعالي ..

واستفاقت محاسن من ذهولها .. وتلفتت حولهـا فاذا بالمقـاعد تكاد تقفر من المتعبدين .. ونهضت .. وخرجت من المعبد مع انعام لتجدا حبيباً وأمه بانتظارهما امـام المعبد .. ومسحت محاسن نصار دموعهـا . وسارت قرب حبيب في الطريق الضيق الطويل . وسارت انعـام قرب ام حبيب .. وهمست محاسن في اذن حبيب وهي تسير قربه : « حبيب . فليكن هذا العيد السعيد مباركاً عليـك يا حبيبي » . وهمس حبيب : « وعليك ايضـاً يا محاسن ». وهمست محاسن : « ما اجمل الصلاة في معبدكم يا حبيب ». وتمتم حبيب :« غداً بعد ان نتزوج ، وتصبح هذه القرية قريتك ، ستصلين دائماً في هـذا المعبد يا محاسن » . وأمسكت محاسن بيد حبيب تشدها وتهمس : « ان شاء الله . ان شاء الله يا حبيب ».

ووصلوا الى الدار ، وانصرفت ام حبيب لتهيئة القهوة .. وكانت انوار الفجر البعيدقد بدأت تغمر القرية الهانئة الوادعة بوشاحها الواهي الضئيل فجلسوا يشربون القهوة فيصحن الدار.

وما ان انتهوا من حسو القهوة حتى وقفت انعام تقول : « يجب ان نعود الى بيروت . ان النعاس يثقـل اجفاني » ووثبت ام حبيب اليها لتقول : « أتعودان الى بيروت في مثل هذه الساعة ؟.. لا . انتما ستنامان هنا ، عندنا . ماذا سيقول

الناس فيكما وهم يشاهدونكما تعودان الى داركما في مثل هذه الساعة من الفجر ؟.

وابتسمت انعام: هذه العجوز تخاف على سمعتها« الناصعة » البياض . هي تخاف على سمعتها من الألسن الناهشة . يخيل اليها انهما لا تخرجان من دارهما ليلاً . ترى ماذا ستفعل ؟ وماذا ستقول هذه العجوز لو علمت انهما راقصتان وانهما لا تعودان الى دارهما كل ليلة الا مع مطلع الفجر البعيد ؟..

وصمتت محاسن. وقالت انعام:« الليلة ليلة عيد» والخروج من الدور في مثل هذه الساعة مسموح يا خالتي . نحن سنعود بسيارتنا ولن يستطيع احد ان يخدش سمعتنا ولا انينظر الينا نظرة شك وارتياب » .

قالت ام حبيب: « ولكن لماذا تعودان الى داركما في مثل هذه الساعة يا ابنتي ؟.. تستطيعان ان تناما عندنا ثم نقضي نهار العيد معاً » . قالت انعام: « لا يا خالتي. انا لا استطيع ان انام في سوى سريري . اننا لنشكركم على حفاوتكم وضيافتكم . ونرجو ان تشرفونا بزيارتكم في دارنا » .

فهمست ام حبيب : « شكراً يا ابنتي ».قالت انعام، تلح في الدعوة : « يجب أن تردوا لنا الزيارة ».قالت هذا ، والتفتت الى حبيب الذي كان يتهامس مع محاسن لتقول : « متى ستزورنا يا حبيب ؟ » قال حبيب : « عندما تسمح لنا الظروف ايتها الآنسة انعام ».قالت : « لقد احيينا ليلة عيد الميلاد عندكم فنرجو أن تحيوا ليلة عيد رأس السنة عندنا » .

ووجمت محاسن . ماذا تقول انعام ؟.. انها لتدعو حبيباً وامه لزيارتها في دارها في بيروت ؟ هـــل تريد انعام أن تفضحها ؟.. وتابعت الراقصة انعام كلامها لتقول : « لقـــد اعجبت شديد الاعجاب بالمباراة الزجلية . انـني لادعوك يا حبيب وادعو السيدة والدتك وادعو رفاقك الزجالين لقضاء سهرة رأس السنة في دارنا في بيروت». وابتسم حبيب. وهمس : « على الرأس والعين يا انعام . سنحيي ليلة عيد رأس السنة في داركما في بيروت . وسيكون جميع زجالي القرية معنـــا وستسمعين من الازجال ما يسر خاطرك ويثير اعجابك » .

وتحول الوجوم في عيني محاسن الى ذعر وهي تسمع كلام حبيب . لقـــد وافق حبيب على قضاء سهرة رأس السنة في دارهما . ترى هـــل يكتشف امرها ؟ وهـــل يقف على حقيقتها ؟.. ورمقت محاسن صديقتها انعـام بنظرة عتاب قاسية ، إلا أن انعام لم تأبه لهـــا ، وتابعت كلامها لتقول : « انت لا تعـلم اين تقع دارنا في بيروت يا حبيب . ستحضر محاسن اليك ليلة عيد رأس السنة لتنقلكم في سيارتها ». قال حبيب : « ليس مـــن الضروري ازعـاج خاطر محاسن . سنشخص اليكم في سيارتي الخاصة » .

قالت : « لا.. يجب أن تحضر محاسن لتقلكم . ان سيارتك لا تتسع للجميع. ستنتقلون الى بيروت في السيارتين. في سيارتك وفي سيارة محاسن » .

والتفت حبيب الى محاسن ليقول : « كما تريد محاسن .

لها أن تأمر وعليّ أن اطيع » وطفت على شفتي محاسن نصار ابتسامة واهية صفراء.وهمست : « كما تريـد انت يا حبيب » قال حبيب : « إذن كما تريد انعام ».قالت الراقصة : « هذا ما اريده. تحضر محاسن وتنقلكم بسيارتها الى بيروت ونقضي ليلة عيد رأس السنة معاً » .

ومدت يدها تصافح ام حبيب متمتمة : « الى اللقاء يا ام حبيب وألف شكر لـــك على حسن ضيافتك ».وهمست ام حبيب : « مع السلامة يا ابنتي فلترافقكما السلامة » .

وودعت محاسن حبيبها وامـــه وسارت مع انعام الى السيارة والغضب يهزها هزاً .. وما أن صعدت الراقصتان الى السيارة حـــتى انفجر غضب محاسن فالتفتت الى صديقتها لتقول : « ماذا فعلت يا انعام. لماذا دعوت حبيباً الى دارنا ؟ هـــل تريدين أن تفضحيني ؟ هل تريدين أن « تخربي بيتي » ؟ هـــل تريدين أن يقف حبيب على حقيقتي ؟ لـمـاذا اوقعتني في هذا المأزق يا انعام ؟ لماذا ألقيت بي في هذه المعضلة ؟ » .

فابتسمت انعام على ارتياح.وهمست : « اطمئني. لن يقف حبيب على شيء سنسهر في دارنا كـمـا سهرنا في دارهم ونشنف أذاننـــا بالازجال . وسأدعو الصديقات والاصدقاء الى هـــذه السهرة ايضاً » .. وزأرت محاسن ، وهي تـديـر محرك السيارة « لا ، لا ، لا اريـد أن استقبل احـداً في داري ، اريـد أن اظل وحدي ، اريد أن اخلو بنفسي لا اريـد أن اشاهد احداً، لا اريد أن اري احداً، لا اريد لا اريد ».

وأطلقت للسيارة العنان ، والغضب الشديد يستبد بها ويعصف بحنايا قلبها وروحها .. وراحت انعام تمازحها وتسايرها وتحاول استرضاءها طيلة الطريق الممتد بين القرية وبيروت إلا أن محاسن لم تكن لتهدأ ولا لتجيب بحرف . كانت على ثورة جامحة عاصفة هوجاء ..

ووصلت بها السيارة الى بيروت .. وفي شارع الحمراء . امام الدار اوقفت محاسن السيارة وترجلت منها . وترجلت انعام .. واستقلتا المصعد الى دارهما .. وكانت انوار الصباح قد بدأت تغمر بيروت فدخلت انعام الى غرفتها لتستغرق في نوم هادىء عميق . امـا محاسن فقد استلقت في سريرها لتنصرف الى التفكير ..

وراحت محاسن تستعيد في مخيلتها كل ما جرى وكل ما حدث .. ولاحت في خاطرها الكنيسة ، كنيسة القرية الصغيرة المضاءة بالشموع .. وترددت في مسمعها تراتيل ابناء القرية وأناشيدهم الروحية .. وشاهدت نفسها بعين الخيال تركع وتبكي وتصلي ..

كانت تلك الصور تمر امام عينيها كما يمر الشريط السينمائي. وابتعدت بتفكيرها .. ابتعدت الى الماضي القريب فشاهدت نفسها ترقص شبه عارية.. وشاهدت نفسها بين ذراعي عشيقها ابي العز .. وشاهدت نفسها تحسو الخمر مع الزبائن الكرام في الملهى ، وتسايرهم وتسامرهم وتتودد اليهم . فارتعدت ..

واستوت في سريرها على غضب.وهمست في سرها : « لن

ارقص بعد اليوم .. لا. لن أعود الى الملهى . سأتوب .. سأصلي وأضرع الى الله كي يغفر لي خطاياي. سأخلص لحبيب ، وسأعيش ما بقي من عمري في رحاب الفضيلة والتقوى والبر والصلاح » .

وارتاحت محاسن نصار بعض الارتياح وقد وصلت بتفكيرها الى هذا الحد .. وتمددت في سريرها لتستغرق في نوم هادىء ساكن عميق .

١٤
المأزق الحرج

نفذت محاسن نصار القرار المتخذ ، وانقطعت عن العمل..

ولم تشخص الراقصة محاسن الى عملها في الملهى ثلاث ليال متوالية ، فقلق صاحب الملهى ، صالح أبو العز عليها شديد القلق . وكان كلما سأل أبو العز الراقصة انعام عن صديقتها محاسن ، أجابت : « هي مصابة بوعكة صحية. قد تستطيع الحضور ليلة غد » .

ويصدق ابو العز ادعاء انعام ويهمس: « سلامة عينيها » ..

وينتظر صاحب الملهى الكريم حضور محاسن "ليلة غد" الا أن محاسن تخيّب الامل وتتخلف عن الحضور .. ورأى ابو العز ان يشخص بنفسه الى دار محاسن ليطمئن الى سلامتها .. وما ان اطل صباح اليوم الثالث لتغيّب محاسن حتى كان ابو العز يشخص الى دار الراقصة الحسناء القائمة في شارع الحمراء في الصميم .

وعرج ابو العز على السوق ليشتري بعض الهدايا والاغراض لعشيقته الحسناء ، ثم حمل ما اشتراه واتجه الى دار محاسن ..

وكانت الساعة قد اشرفت على العاشرة من الصباح عندما طرق ابو العز باب دار الراقصة الجميلة وفي يديه الهدايا . ولم يفتح الباب ، فأعاد ابو العز الطرق ووقف ينتظر.. وطال انتظاره دون ان يلقى اي رد .. وأعاد الطرق .. وإذا بالباب يفتح وتطل منه الخادمة ، وهي امرأة في العقد الرابع من العمر كانت تحضر صباح كل يوم الى دار محاسن وانعام لتنظف الدار وتغسل الصحون وتنفض الغبار عن الرياش..وهمست الخادمة: « أمر ؟.. »

ودخل ابو العز دون ان تدعوه الخادمة للدخول . ووضع الاغراض والهدايا من يده على المقعد وقال : « اين الست محاسن ؟ »

وأجابت الخادمة : « الست محاسن غير موجودة » .

فدهش ابو العز . وهمس : « أين هي ؟ »

قالت الخادمة : « لست ادري يا سيدي . لقد خرجت منذ نصف ساعة » .

وظهر الوجوم جلياً في عيني ابي العز وغمتم : « الست انعام موجودة ؟ »

قالت : « الست انعام لا تزال نائمة » .

فجلس ابو العز على المقعد الوثير ليقول : « ايقظيها انني بحاجة اليها ».فترددت الخادمة في تلبية الطلب .. وشاهدها صاحب الملهى الكريم في ترددها فقال : « قولي لها ابو العز يريد أن يتحدث اليك » .

وسارت الخادمة الى غرفة الراقصة انعام . ونفذت الامر . أيقظتها وقالت لها: « ابو العز هنا ويريد ان يتحدث اليك».. واستوت الراقصة انعـــام في سريرها على وجوم لتقول بتساؤل ووجوم : « ابو العز هنا ؟ »

قالت الخادمة مؤكدة: « أجل يا سيدتي . هو في البهو » .

وتمتمت انعام : « والست محاسن. اين هي؟ هل خرجت؟»

وأجابت : « أجل خرجت يا سيدتي » .

فضربت الراقصة كفاً بكف. وهمست : « فليسامحك الله يا محاسن ». لقد اوقعتني في مأزق لن استطيع الخروج منه»..

ووثبت انعام من السرير ، وارتدت الروب دي شامبر فوق ثياب النوم وخرجت من الغرفة الى البهو ..

وتقدمت من ابي العز مرحبة به: « اهلا .. اهلا .. اهلا وسهلا بأبي العز » .

وهمس ابو العز دون ان يكلف خاطره عناء الوقوف : « اين هي محاسن ؟ » .

وتمتمت : انها .. انها .. انهـا .. وتلعثمت انعـــام . واحتارت في امرها ، ماذا ستقول له ؟. هل تقول : لقــد ذهبت الى حبيبهـا ؟ لا لا لن تبوح بسر صديقتها وهي تعلم ماذا سيكون وراء البوح بهذا السر .. ماذا ستقول له اذن ؟ وكيف ستخرج من هذا المأزق الحرج السحيق الذي اوقعتها فيه محاسن ؟

والتفت ابو العز اليها ليقول : « مـا بك يا انعام ؟ لمـاذا

لا تجيبين ؟ اين هي محاسن ؟ لقد قلت لي ليل امس انهـــا مصابة بوعكة صحيــة . كيف استطاعت ان تغــادر السرير اليوم،ولم تستطع ان تشخص الى عملها في الملهى ليل امس؟» .

ووجدت انعام السبيل للخروج من المأزق الحرج . لقــد اوهمت ابا العز ان محاسن مريضة.. اذن .. اذن مـــاذا ؟ اذن هي ذهبت الى الطبيب.. وأطلقت الراقصة انعام ابتسامة واهية صفراء،وجلست قرب ابي العز على المقعـــد الرجراج الوثير،وهمست : « مسكينة محاسن. لقد اشتد بها الداء هذا الصباح . وارتفعت حرارتها ارتفــــاعاً كبيراً فشخصت الى الطبيب ».. وتنفست الراقصة انعام الصعداء وقــد نجت من المأزق المدلهم الاسود ..

وصمت ابو العز .. وأشعل لفــافة راح ينفث دخانهـــا بصمت وتفكير.كان يفكر بما تقول انعام : أتراها صادقة؟.. أتكون محاسن قد شخصت الى عيادة الطبيب ؟.. قد يمكن ذلك . كلام انعام معقول .. ولكن .. ولكن هناك تناقضاً في أقوال الراقصة الحسناء..هي تقول ان الداء اشتد بمحاسن ، وان حرارتها ارتفعت فكيف استطاعت ان تنهض من السرير وأن تشخص الى الطبيب والداء يشتد بها وحرارتها مرتفعة ؟ ألم يكن من الأفضل ان تـدعو الطبيب اليها ؟

واستغرق ابو العز في التفكير ، وهو جالس على المقعـد الوثير قرب انعام . وراحت انعام تراقبه بطرف خفي . ترى هل جازت الحيلة عليه ؟ هل آمن بــأن محاسن شخصت الى

الطبيب ؟ هل هو على يقين من صدقهـــا ، ام تراه يشك بادعائها ؟

ونفث ابو العز دخان اللفـافة في الفضاء.وهمس : « متى ستعود من عيادة الطبيب ؟ » ...

وقلبت انعام شفتيها وهزت كتفيهـا . وتمتمت : « لست ادري » .

فرمق ابو العز الساعة المشدودة الى معصمه بنظرة سريعة ليقول : « الساعة الآن تشير الى العاشرة والنصف . الخادمة تقول : ان محاسن شخصت الى عيـادة الطبيب منـذ نصف ساعة . اي في الساعة العاشرة . يجب اذن ان تكون هنـــا بعد نصف ساعة ، في الساعة الحادية عشرة .. يخيل اليّ ان ذهابها الى عيادة الطبيب وأيابها لن يستغرقا اكثر من ساعة . أليس كذلك انعام ؟ »

فوجمت انعام .. ابو العز على حق ان الذهاب الى عيادة الطبيب والاياب الى الدار لا يستغرقان اكثر من ساعـة ، إلا أن محاسن لم تشخص إلى الطبيب ، بل هي شخصت الى حبيبها حبيب مرزوق . وهي لن تعود لا بعـد نصف ساعـة ، ولا بعد ساعة ولا بعد ساعتين ولا بعد ثلاث ساعات ولا بعـــد اربع ولا بعد خمس ساعات .. هي لن تعود إلا في المساء ، بعد ان تتوارى الشمس وراء الافق البعيد .. وصمتت انعام . وراحت تفكر بماذا ستجيب ابا العز ؟ ماذا ستقول له ؟ . ليست تدري .. ليست تدري ..

وعـاد ابو العز الى الكلام بعد صمت قصير ليقول : « انا سأنتظر عودتها هنا . هي لن تتأخر اكثر من ساعة في عيادة الطبيب. لقد انقضى نصف ساعة من الساعة وبقي نصف ساعة ».

فهمست انعام : « ولكن قد يتأخر انتظارها في عيـادة الطبيب .. قـد يكون الطبيب منهمكاً في عمله فيدعوها الى الانتظار . وقـد تعرج على احدى الصيدليات لشراء الادوية في طريق عودتها الى الدار » .

قال ابو العز : « الى متى ستتأخر عودتهـا ؟ الى ساعة ؟ الى ساعتين ؟ الى ثلاث ساعات ؟.. لا بأس .. أنا سأنتظرها هنا . انا لن اتزحزح من هنا إلا وقد عادت محاسن » .

قالت انعـــام بتلعثم وارتباك : « ولكن .. قد تتأخر عودتها » .. فلمعت ابتسامـة هزء وسخرية على شفتي ابي العز وهمس بخبث ومكر ودهاء : « مهما تأخرت عودتهـــا فهي ستنام هنا في دارها . أليس كذلك يا انعام ؟ » .

قالت انعام : « بكل تأكيد » .

قـال : « سأنتظر حتى تعود .. انا اريد ان اطمئن الى سلامتها . افكاري في انشغال عليها ، لن استطيع ان اعرف الراحة إلا وقد اطمأن قلبي الى راحتها وسلامتها » .

وذعرت الراقصة انعام وهي تسمع كلام ابي العز .. ويلها .. او بالاحرى ويل محـــاسن من غضب صاحب الملهى الكريم اذا اكتشف الحقيقة .. ماذا عليها ان تفعل لتنقذ نفسها من هذا المأزق الحرج وتنقذ محاسن ؟ ماذا تفعل ؟ ليست تدري

ماذا تفعل .. وانغمست الراقصة انعام في صمت بارد موحش كئيب . والتفت ابو العز اليها بعد صمت طويل ليقول بكل مكر ودهاء : « ما بك يا انعام ؟ ألا تريدين ان انتظر عودة صديقتك وزميلتك الكريمة محاسن واطمئن الى سلامتها ؟ »

قالت : « لا . ليس هذا ما اريد . انني لأتمنى ان تطول زيارتك لنا يا ابا العز إلا انني ... » وتلعثمت .

فقال : « ماذا ؟. إلا انك ماذا ؟ »

قالت: « إلا انني اخشى ان يطول غياب محاسن فتضطر الى الاقامة هنـــا ساعة او ساعتين ولربما تضطر الى الانتظار ثلاث ساعات فيتعطل شغلك وتضيع وقتك في الانتظار » .

فعادت الابتسامة الهازئة تطفو على شفتيه ليقول : « لا .. اطمئني .. ليس لدي اشغال الآن . ثم ، ثم ان صحة محاسن قبل كل شيء . انا على استعداد للتضحية بجميع اعمالي وبجميع اشغالي من اجل محاسن . انت تعلمين يا انعام ، كل مـا بيني وبين محاسن . انت لست بغريبة عنـــا . انت تعلمين انني احب محاسن وانها تبادلني الحب .. الحب فقط ؟.. لا ، بل هي تبادلني الحب والوفاء والاخلاص ايضاً . أليس كذلك؟ »

فأجابت انعام بتلعثم وارتباك : « اجل . اجل . اعلم كل هذا يا ابا العز » .

قال : « ما دمت تعلمين كل هــذا فكيف تريدين مني ان اعود ادراجي قبل ان يطمئن قلبي الى سلامتها ؟ »

فصمتت انعام .. هي لا تعلم كيف تستطيـع أن تنجو من

هذا المأزق الحرج الذي ألقتها فيه صديقتها محاسن .

وراح ابو العز يدخن بصمت عميق .. والتفت الى انعام بعد صمت طويل ليقول : « اين القهوة ؟.. ألا تقدمين القهوة للضيوف يا انعام ؟ »

وتمتمت انعام : « انا سأعدّ لك القهوة بيدي يا ابا العز » .

قالت هذا لتدخل الى المطبخ وتنصرف الى تهيئة القهوة ، والهواجس الممضة ، والأفكار السوداء ، تعصف بها وتقلق خاطرها ، وتثير في فؤادها الخوف والذعر.. وحملت القهوة الى ابي العز ، وقدمتها له .. وجلست قربه لتعود الى التفكير البارد الواجم العميق ..

وراح ابو العز يرشف القهوة على مهل ويدخن بصمت عميق، في حين انصرفت انعام الى التفكير .. وطال صمتها ، ومضت الدقائق ثقيلة باردة موحشة على القلبين .. على قلب انعام وعلى قلب ابي العز .. كان ابو العز يفكر في محاسن : اين هي الآن ؟ أتراها تخدعه ؟ أتكون بين ذراعي احد عشاقها .. لا بأس . هو لا يغار عليها . انه ليعلم ان لمحاسن عشرات العشاق المعجبين إلا أن الراقصة الفاتنة الحسناء لا تحب احداً منهم. هي تكتفي بالاستيلاء على قلوبهم وأموالهم . وحصة ابي العز محفوظة من الاموال التي تستولي عليها محاسن . النصف لمحاسن والنصف لأبي العز . ولكن ، ولكن ماذا يا ابا العز ؟.. ولكن محاسن بدأت تسلك معه سبيل المكر والكذب والنفاق .. يبدو ان هناك عاشقاً غنياً جديداً لدى محاسن ، وهي تريد ان تستولي

على امواله وحدهـا ، دون ان تحسب لأبي العز حساباً ، لذلك فهي قـد ادعت المرض للشخص الى عشيقها الجديد وتلقى بين ذراعيه آخر اساليب الحب والهوى والغرام، ثم ترجع ومحفظتها ملأى بالأوراق النقدية ، وأبو العز لا علم له ولا خبر..

وشعر ابو العز بثورة غضب لاهبة عاصفة هوجاء ، وهـذه الافكار تجتاح رأسه .. وهمس في سره : لن ادعها تضحك على ذقني . هل يخيل اليها ان ابا العز لقمة سائغة سهلة الازدراء ؟. لا والله . انا سأقصف عمرها ان هي حاولت الضحك على ذقني .

وفي هذه الاثناء ، فيما أبو العز يفكر بمثل هذه الافكار كانت انعام تفكر بالخروج من هذا المأزق الحرج الذي اوقعتها فيـه صديقتها محاسن . وطال تفكير الراقصة انعام دون ان تهتـدي الى حل للمعضلة . وأخيراً وبعد تفكير طويل لاح لها قبس واهٍ بعيد .. ستدعي بأنها على موعد مع احد الاصدقاء وأنهـا تريد الخروج من الدار .. ويضطر ابو العز الى الخروج معهـا وتنفض المعضلة . وارتاحت انعام بعض الارتياح وقد توصلت الى هـذا الحل . ونهضت دون ان تنبس بحرف ، ودخلت الى غرفتهـا لترتدي ثيابهـا وتصبـغ وجنتيها بالابيض وشفتيها بالاحمر ، ثم تسرح شعرها وتحمل محفظتها وتخرج الى البهو حيث كان ابوالعز ما زال جالساً يدخن ويفكر .. والتفت ابو العز اليها ليقول : « أراك قد ارتديت ثيابك يا انعام » . فتمتمت : « انا على موعد يا ابا العز : انني مضطرة للخروج الآن » .

فوجم ابو العز وتمتم : « هل تخرجين قبل ان تعود محاسن؟»

قالت : « قد تتأخر محاسن في العودة يا ابا العز وأنا مضطرة للخروج من الدار الآن لأنني على موعد كما قلت لك » .

فتمتم ابو العز : « سنخرج معاً يا انعام » .

واطمأنت انعام توفيق. الحمد لله ، يبدو ان خطتها المرسومة تكللت بالنجاح ، وتابع أبو العز كلامه فقال: « ولكن اريد ان اتحدث اليك في أمر مهم قبل ان نخرج . اجلسي ، اجلسي هنا قربي يا انعام » . وكان لا بد لها من الامتثال للأمر الكريم ، فجلست حيث اشار اليها ، هناك ، قربه .

ونفث ابو العز دخان اللفافة في الفضاء وهمس : « أين هي محاسن يا انعام ؟ »

وأجابت انعام : « لست ادري يا ابا العز . لقد استفقت فلم اجدها ، إلا انني اميل الى الاعتقاد انها شخصت الى الطبيب لأنها كانت متعبة مرهقة ليل امس . عندما عدت في الساعة الثالثة من فجر امس كانت حالتها تفتت الاكباد » .

فعاد ابو العز الى نفث دخان اللفافة في الفضاء ليقول : « يبدو ان حالتي انا تفتت الاكباد ، لا حالة صديقتك محاسن. محاسن كاذبة مخادعة خائنة . وأنت لا تختلفين عنها في الكذب والنفاق » .. فوجمت انعام ؛ ومضى ابو العز في كلامه اللاسع ليقول : « اين هي محاسن ؟ انا اريد ان اعلم اين هي . انت تكذبين . هي لم تشخص الى الطبيب . أيخيل اليك انني من البلاهة الى هذا الحد ؟ أيخيل اليك انني اصدق كذبك ونفاقك ؟ كيف تستطيع ان تنهض من السرير، وان تشخص الى الطبيب،

وهي متعبة مرهقة، وحرارتها مرتفعة؟ لماذا لا تدعو الطبيب اليها ؟ لماذا لا تمسك بسماعة الهاتف وتتصل بالطبيب ، بأي طبيب، وتطلب اليه ان يعودها هنا في دارها ؟ قولي لي أين هي؟ الى اين ذهبت ؟ » .

وتحول الوجوم الى ذعر في صدر انعام وقد لمست في ابي العز تلك الثورة الجامحة الهوجاء . وهمست : « لست ادري، لست ادري يا ابا العز » .. قال : « بل انت تدرين . انت تعلمين كل شيء . قولي لي اين هي ؟ اين هي ؟ »

فعادت الى التمتمة بخوف وارتباك : « لست ادري ، لست ادري » . فوقف ابو العز ليقول بغضب شديد : « انا سأكشف جريمتها . سأقف على كل شيء . لن أدع هذه المجرمة الفاسقة تخدعني . الويل ، ثم الويل لها من غضبي وانتقامي » .

وسار ابو العز . وخرج من تلك الدار ، لا يلوي على شيء والغضب يهزه هزاً .. وتنفست الراقصة انعام الصعداء وقد خرج ابو العز . وألقت بالمحفظة من يدها وراحت تفكر : ماذا عليها ان تفعل الآن ؟ هل تشخص الى القرية الخضراء فتمسك بيد محاسن وتعود بها الى الدار ؟ هل تظل هنا في الدار تنتظر عودتها ؟ هل تخرج الى المتنزهات ؟ ماذا ستفعل ؟ ماذا ستفعل؟

ومضت انعام في تفكيرها العميق . واخيراً ، وبعد تفكير كبير توصلت الى اتخاذ القرار الحازم الصريح . هي ستخرج من الدار . تخرج الى احد المطاعم المنتشرة على شاطىء البحر في محلة الروشة ، فتتناول طعام الغداء ثم تعود الى الدار .. لا يجوز ان

تظل الآن في الدار ، فقــد يخطر على بال ابي العز ان يعود .. وماذا ستقول اذا سألها « ألم تذهبي الى الموعد المضروب ؟ » .. يجب اذن ان تخرج من الدار ثم تعود بعد ساعة او ساعتين .. ونهضت .. وعادت تحمل محفظتها لتخرج من الدار شاخصة الى محلة الروشة ..

وهناك ، في مطعم أنيق رحيب فسيح ، تناولت انعـام توفيق الغداء ورشفت القهوة ، ودخنت اللفافــات الفاخرة ، وظلت في جلستها في المطعم الجـاثم بكل هناء واطمئنان على الشاطىء الرحيب ، حتى الساعة الثالثة بعد الظهر .. وشعرت بالنعاس يداعب اجفانها ، فنهضت وخرجت من المطعم لتستقل سيارة تاكسي وتعود بها الى الدار .. ودخلت الى الدار .. واتجهت تواً الى غرفتها لتنزع عنها ثيابها وترتدي ثياب النوم وتندس في السرير ..

واذا بالباب يطرق .. وتبرمت انعام وتأففت . فهـي تريد ان تنام ، ولا تريد من احد ان يزعج خاطرها الكريم. وعزمت على ألا تفتح الباب للطـارق . هي ستنام وتستغرق في النوم .. إلا ان الطرق توالى بشدة ، فوثبت من السرير على غضب وحنق لتفتح الباب .. واذا بها امام ابي العز وجهـاً لوجه .. وهمست انعام وهي تتثاءب وتفرك عينيها : « أهلاً وسهلاً بأبي العز » . وتمتم ، دون ان يكلف خاطره بالقاء التحية : « هل عادت ؟ » قالت . « لا . لم تعد بعد » . قال : « انا في الملهى. عندما تعود فلتتصل بي هاتفياً » . فهمست : « سأبلغهـــا امرك الكريم يا

أبا العز » . ودون ان يفوه ابو العز بكلمة واحـــدة أدار ظهره وعاد أدراجه ، وعادت انعام الى غرفتهـا لتستلقي في سريرها وتستغرق في نوم هادىء عميق ..

ولم تستفق الراقصة انعام من نومهـا الا على صوت جرس الهاتف يرن فيمزق اذنيهـا . وفتحت عينيها بعناء ، ودون ان تجلس مدت يدهـا الى سماعة الهاتف لترفعهـا الى اذنيهـــا وتهمس : « آلو !. من ؟ » وقال الصوت : « انا ابو العز .. هـل عادت محاسن » وتمتمت : « لا .. لم تعد » . وانقطع الخط.. فألقت بالسماعة من يدها لتعود الى الاستغراق في النوم.. وما كادت عيناها تغمضان حتى عـاد رنين الهاتف يتعالى .. — « آلو من ؟ » .. وتمتم الصوت : « هل عادت محاسن ؟ قالت : « لا . لم تعد بعد يا ابا العز » .. وعادت الى النوم ليعود رنـــين الهاتف مجدداً الى ازعاجها .. كل نصف ساعـة كان ابو العز يتصل هاتفياً بالراقصة انعام ليسألها : « هل عادت محاسن ؟ » . والجواب واحد معروف « لا .. » .

وأخيراً وثبت انعـــام من السرير والحنق يغمر صدرها والغضب الشديد يستبد بهـا . وأيقنت ان ابا العز لن يكف عن ازعاجها ، فخرجت من غرفة النوم لتدخل الى المطبخ وتنصرف الى تهيئة القهوة .. وحملت فنجان القهوة وخرجت الى الشرفـة لتجلس على مقعد وثـير تدخن وترشف القهوة والصداع يعصب رأسها ..

وكانت الساعة قـد اشرفت على السادسة من المساء والظلام

يغمر بيروت ، والمصابيح الكهربائية المنتصبة في شارع الحمـــراء تلقي انوارها الساطعة الوضاحة على ذلك الشارع الطويل الفسيح الحنايا البعيد الارجاء .. وعاد جرس الهاتف يرن..وعاد صوت ابو العز يتعالى في اذن الراقصة انعام : « هل عادت محاسن ؟ ».

وهمست انعام بغضب شديد : « لا .. » ثم – ألقت بالسماعة من يدهـــا لتعود الى الشرفة وهي تتمتم : « فليسامحك الله يا محاسن ، فليسامحك الله » .. واقامت ترقب عـودة صديقتها محاسن بفـارغ صبر ، وراحت تستعرض السيارات المنطلقة في شارع الحمراء ، وهي تأمل أن تكون سيارة محاسن بـين تلك السيارات المنطلقة في ذلك الشارع . وكلما لاح لها مصباح سيارة مقبلة من بعيد همست : « هذه هي سيارتها » .. حتى اذا اقتربت تلك السيارة من الدار وتأكدت من أنها ليست سيارة محاسن ، ضربت كفـــاً بكف وتمتمت : « فليسامحك الله يا محاسن فليسامحك الله » ..

ومضت الدقائق على سرعة واندفاع والراقصة انعام جالسة على شرفـة الدار في شارع الحمراء تدخن وتفكر وتنتظر عودة صديقتها محاسن .. واشرفت الساعة على السابعة من الليـــل ومحاسن لم تعد .. وبـدأت الساعة تميل الى السابعة والنصف دون أن يبان لمحاسن أي اثر ، وبلغت الساعـة الثامنة .. ثم اشرفت على الثامنة والنصف ومحاسن لم تطل ...

واشتد القلق بالراقصة انعام وقد اشرفت الساعة على الثامنة والنصف دون أن تطل محاسن : مـا بها محاسن ؟ لماذا لم تعد

الى الدار ؟.. أتكون في خطر ؟ أتكون ثمة كارثة انقضت عليها ؟.. لم يكن من عادة محاسن أن تظل في القرية الخضراء ، قرب حبيبها الى مثل هذه الساعة . كان من عادتها أن تعود في الساعة السابعة او في الساعة السابعة والنصف ، واذا طال غيابها عادت في الساعة الثامنة . اما الآن ، فان الساعة تشير الى الثامنة والنصف ومحاسن لم تعد .. لماذا لم تعد محاسن ؟ لماذا تأخرت في العودة ؟.. ما بها ؟.. ليست تدري ، ليست تدري ..

وطال تفكير الراقصة انعام ، وبدأت الهواجس المقلقة والافكار المضة السوداء تغمر قلبها وروحها . وقلقت شديد القلق على صديقتها وزميلتها وحبيبتها محاسن وراحت تدخن بنهم وقلق واضطراب وهي تراقب السيارات العديدة المنطلقة في ذلك الشارع الفسيح باحثة بينها عن سيارة محاسن .. وكان جرس الهاتف يرن من حين الى آخر داخل الدار إلا أنها لم تكن لتهتم له ، ولم تكن لتنهض وتخمد انفاسه . فهي تعلم يقيناً ان المتحدث سيكون ابا العز . وانه يريد أن يعلم : هل عادت محاسن ؟..

ومضت الساعة في سيرها السريع ، وانعام جالسة على الشرفة العالية المطلة على الشارع .. وقبل أن تشرف الساعة على التاسعة بقليل اطلت سيارة محاسن . وتوقفت امام البناية الشاهقة .. وترجلت محاسن منها فتنفست انعام الصعداء : الحمد لله . لقد عادت محاسن بالسلامة ، وهي بألف خير .. واستقلت محاسن المصعد الى دارها. ودخلت فوثبت اليها انعام

تعاتبها بقسوة وشدة وغضب : « اين كنت يا محاسن ؟ لقـــد اقلقت خاطري عليك . كان عليك أن تطلميني على رغبتك في التأخير . أنا لست مجـــبرة على انتظارك والقلق يعصف بي والهواجس ترهق اعصابي. الف فكر وفكر اسود نخر عبـاب رأسي والف هاجس وهاجس اثار خوفي ورعبي » .

فوثبت محاسن اليهـــا تعانقها والفرحة تغمر قلبهـــا . وهمست : « انا فرحة يا انعام ، انا هانئة ، انا سعيدة ، الحب شيء لذيذ يا انعام . لم اكن لأحلم يوماً بمثل هذه اللذة ولا بمثل هـــذه السعادة يا اختي ، انني لأطلب لك من الله أن تحبي كما احببت انا ، حباً طاهراً شريفاً مقدساً ، حبـاً روحياً خالداً يا انعام » فابتعدت انعام عنها والغضب ما زال يعصف بها لتقول: « سعادتك هذه ستتحول الى تعاسة ، ولذتك ستنقلب الى شقاء وفرحك سيصبح حزنـاً عندما تعلمين مـاذا جرى ». فوجمت محاسن . وتقدمت من انعام لتقول : « مـاذا جرى يا انعام ؟ لقد اقلقت خاطري يا اختي » . .

ولم تجب انعام . لم تنبس بحرف ، بل هي اكتفت بأن تنفث دخـان لفافتها في الفضاء وترمق محاسن بنظرة لوم وغضب وعتاب . .

وأمسكت محاسن بيد صديقتها انعام لتقول بخشية والحاح: « ماذا جرى يا انعام ؟ اخبريني ماذا جرى ؟ هل هناك مصيبة؟ هل هناك كارثة انقضت علينا ؟ » .

فعادت انعام توفيق الى نفث دخان اللفافة في الفضاء لتقول:

« لقد شرفني سعادته بزيارته » .. فتمتمت محاسن : « من هو سعادته هذا ؟ » .

قالت انعـــام : « ألا تعرفينه ؟ صديقك يا ستي . عشيقك يا ست محاسن ، ابو العز » .

فقلبت محاسن شفتيها بهزء وهمست : «هل هذه هي الكارثة يا انعام ؟ أهذه هي المصيبة ؟ »

فعاد الغضب يلمع في عيني انعام لتقول : « لقــد جاء ثلاث مرات الى هنا يسأل عنك. اوهمته اولاً انك شخصت الى الطبيب للمعالجة ، وكادت الحيلة تجوز عليه الا انــه ابى ان يتزحزح من هنا . لقد اراد ان ينتظر عودتك وعندمـا طال انتظاره ادرك انني خدعته وقال لي :«انت كاذبة مثلهــا . محاسن ليست في عيادة الطبيب انها عند عشيقها ، انا سأعرف كيف اكتشف وكيف انتقم منها ..»

وأردت أن أتخلص منه فأوهمته انني مدعوة على الغــداء . فخرجت من الدار لأتناول طعام الغداء في المطعم ثم عــدت في الساعة الثالثة الى هنا . ومنــذ أن وصلت حتى الآن لم ينقطع رنين الهاتف . كل نصف ساعــة يتصل ابو العز بي ، ليسألني : هل عادت ؟

قالت محاسن : « وبماذا كنت تجيبينه ؟ »

قالت : « بماذا تريدين ان اجيبه ؟ ماذا تريدين ان اقول له ؟.. هل اقول له : اجل ، لقد عادت . هو سيقول لي : اريد ان اتحدث اليها .. لقد اوقعتني في مأزق حرج يا محاسن.. كنت

في كل مرة اقول له : لم تعد بعد وأخيراً لم اعد اجيبه بشيء . لم اعد ارفع سماعة الهاتف . تفضلي اتصلي بـه انت الآن . انـــه ينتظرك في الملهى .. انا داخلة الى غرفتي لأرتـــدي ثيابي لقد تأخرت عن موعد عملي » .

فارتسمت على شفتي محاسن ابتسامة هازئة.وهمست : مــاذا سيفعل ابو العز ؟ هل هو سيعدمني الحياة ؟

قالت انعام وهي تدخل الى غرفتهـا : هل تجهلين ابا العز ؟ هل تجهلين غضبه وانتقامه ؟.. هو سيقصف عمرك ..

فضحكت محاسن.وتمتمت : فليفعل مـا يطيب له . انا لن اعود الى ملهاه ، ولن اعمل راقصة بعد اليوم ..

قالت محاسن هذا ولحقت بصديقتها انعام الى غرفتها ..

وكانت انعام قد وقفت امام المرآة لتتزين وتصبغ وجنتيهـا بالابيض وشفتيها بالاحمر وتسرح شعرها . فالتفتت الى محاسن لتقول : اذهبي الى غرفتك وارتدي ثيابك وتعالي معي الى عملك في الملهى .. بلا جنون يا محاسن .

فاقتربت محاسن نصار من صديقتها انعام لتقول : انا لست مجنونة يا انعام لقد كنت مجنونة ، كنت بلهاء ، كنت بلا عقل ، اما الآن فقد اصبحت عاقلة . استمددت عقلي يا انعام . انا لم اعد بلهاء ، لم اعد مغمضة العينين ، لم اعـد اسيرة في الظلام . لقـــد تفتحت عيناي وأحــاط النور بي من كل صوب . انا لن ادع ابا العز يتاجر بي بعــد الآن . لن اساير الزبائن ، ولن احسو الخمر

معهم ولن اعتلي المسرح لأرقص اكرامـــاً لعيون السكارى والمعربدين . لن اشتري خبزي بعد اليوم بـدمعي . لا . لن اعود الى ملهى ابو العز ولا لأي ملهى آخر . أريـد أن أتحرر يا اختي . أريد أن أحطم هذه القيود الحديدية الثقيلة . أريد ان أعيش كما يعيش جميع الناس. أنا لست محتاجة لأحد والحمد لله. ما لدي من المال يكفيني مدى الحياة » .

قالت انعام وهي تصبغ شفتيها بالأحمر : مـــاذا ستفعلين اذن ؟ هل ستظلين هكذا بلا عمل تنتقلين من هنا الى القرية ومن القرية الى هنا اكراماً لعيني حبيبك القروي .

قالت : لا . أنا لن أظل هكـــذا . لن أتنقل بين القرية وبيروت . أنا سأظل العمر كله في القرية . سأتزوج من حبيب وسأعيش وإياه هناك في داره في القرية الهانئة الباسمـة الوادعـة الخضراء .

فدهشت انعـــام وهي تسمع كلام محاسن ، وألقت بالقلم الأحمر من يدها ، والتفتت الى صديقتها لتقول باستفهام ، وكأنها لا تصدق ما تسمع : « ستتزوجين؟ ممن ؟.. من الشاب القروي؟ من حبيب مرزوق ؟ هل جننت ؟

قالت محاسن . لا ، لم أجن . اختك محاسن ستتوب الى ربها وستعيش مخلصة وفية لزوجها . لن تسكر بعد اليوم ، لن ترقص ، لن تساير احـداً ، لن تجود على احـــد بالنظرات والابتسامات والقبلات . ستكون لشاب واحد لزوجها .

فنهضت انعام واقتربت من محاسن لتقول :

اسمعي يا محاسن .. انت لن تستطيعي تنفيذ هذه الخطة التي رسمتها . لن تستطيعي الزواج من حبيب مرزوق لأسباب عديدة :

اولاً : هل يعلم حبيبك انك راقصة ؟.. وهل يرضى بالزواج من راقصة ؟ واذا كان لا يعلم الآن ، فماذا سيفعل اذا علم انك كنت راقصة ؟ ماذا سيقول ؟.. سيقول : لقد خدعتني .. وليس هناك شاب في العالم يحب فتاة كاذبة مخادعة منافقة . انت لن تستطيعي ان تتخلصي من ماضيك يا محاسن . لن تستطيعي أن تنسي انك كنت راقصة .. الماضي يا حبيبتي كالظل . انه ليرافق الانسان مدى الحياة ..

ثانياً : كيف ستتخلصين من ابي العز ؟ هو لن يتخلى عنك ، ولن يتركك وشأنك . ابو العز سيلاحقك ، سيطاردك ، لن يدعك ترتاحين .. عودي الى عقلك يا محاسن. اعقلي يا اختي.. لقد حكم الله علينا ان نعيش هكذا وسنظل هكذا مدى الحياة .

فارتسمت على شفتي محاسن ابتسامة هانئة بيضاء،وهمست: اطمئني . لا تخافي على اختك محاسن ..

اولاً : ان حبيباً يحبني كما احبه حباً هائلا مروعاً . لا هو يستطيع ان يبتعد عني ولا انا استطيع ان ابتعد عنه . ثم من اين له ان يعرف انني كنت راقصة . انا سأعيش وإياه في تلك القرية الجميلة . لن نحضر الى بيروت إلا لقضاء حاجة او لشراء

مـا نحتاجه .. ثانياً : انا لا يهمني ابو العز . هو لـن يجرؤ على مطاردتي، ولن يستطيع ان ينال بعد اليوم قلامة من ظفري.. فليفعل ما يطيب له .. وماذا بعد يا انعام ؟

فأمسكت الراقصة انعام بيد صديقتها لتقول : محاسن . لا تغامري بسعادتك وبراحتك وبحياتك يا محاسن . اسمعي مني ولن تخسري يا محاسن . انا لا اريد ان تنقطعي عن حبيبك ، لا ، لا اريد ان تبتعدي عنه . تستطيعين ان تظلي على علاقتك به . ولكن دون زواج ، ودون مغامرة ، ودون انقطـاع عن العمل .

قالت محاسن : « لا يا انعـام . لا يا اختي . انت لم تحبي حباً حقيقياً ، حباً روحياً خالداً مقدساً . لو انك أحببت مثل هذا الحب لما نطقت بهذا الكلام . انا اريد ان اخلص لحبيبي . اريد ان اكون له وحده . لا اريد ان اخونه، لا اريد ان ألعب به وأضحك عليه . لا . لا . لن اخون حبيبـاً بعد اليوم . سأتزوج منه وأكون له وحده وأعيش العمر كله بين ذراعيه ..

قالت انعام : « محاسن .. انت تعيشين بالاوهام يا اختي . كوني واقعية في الحياة يا محاسن. يجب ان تجابهي الحقيقة بكل جرأة وشجاعة .. تعالي الآن . تعالي معي الى الملهى . وغـداً يكون لكل حادث حديث » ..

قالت : « لا . لن اعود الى الملهى يا انعـام . لقد اتخذت قراري وانا لن أتزحزح عنه » .

فمضت انعــام في ارتداء ثياب السهرة وهي تقول : « انت حرة يا محاسن. لقد نصحتك فلم تقبلي نصحي الا انك ستندمين يوماً . وانني لأرجو ان يكون ندمك قبـل فوات الاوان » .

قالت محاسن نصار : « اطمئني لن اندم يا انعام . وانني لأتمنى لك ما أتمناه لنفسي يا حبيبتي . اتمنى ان تقعي يومــاً على حبيب مثل حبيبي وان تسلكي الطريق الذي سلكته اختك محاسن».

وكانت انعام قد انتهت من ارتداء ثيابها فحملت محفظتها ووثبت الى محاسن تعانقهــــا مودعة وتقول : « ماذا سأقول لأبي العز . اذا سألني عنك ؟ » .

قالت : « قولي له مــا تشائين ومــا تريدين . انا لا يهمني ابو العز ».

قالت انعام : سأقول له : « لقد عادت الى الدار . ولكنها متعبة مرهقة » .

قالت محاسن: « هو لن يصدقك انني متعبة بعد ان اكتشف غيابي عن الدار طيلة النهار » .

قالت انعام : « سأقول لا لقد قضت نهارها في المستشفى . واجرى لها الاطباء فحوصات عدة . .

فضحكت محاسن وهمست : « قولي له مــا يطيب لك . قلت لك وأعيــد القول : « انا لا يهمني ابو العز . فليفعل مــا يطيب له »..

وودعت انعــام صديقتها محاسن بقبـلة اخوية بيضاء . وخرجت من الدار ..

ودخلت محاسن الى غرفتها لتنزع عنها ثيابها وترتدي ثياب النوم ثم تدخل الى المطبخ فتهيء فنجان قهوة بنفسها وتعود به الى غرفتها .

واستلقت محاسن نصار في سريرها الوثير تدخن ، وترشف القهوة وتفكر بحبيبها حبيب مرزوق والآمـال الباسمة الهانئة تغمر قلبها الخافق المغرم الولوع .

١٥
ابو العز

– « اين هي محاسن ؟.. ألم تعد بعد من زيارة الطبيب ؟ »

كان المتكلم«ابو العز».. ما ان وصلت الراقصة انعام الى الملهى ، حتى وثب اليها صاحب الملهى الكريم ، صالح ابو العز يسألها : اين هي محاسن ؟ ألم تعد بعد من زيارة الطبيب ؟

وكانت لهجته هازئة ماكرة ساخرة .. وتمتمت انعام : مسكينة .. لقد ظلمتها يا ابا العز .

فقهقه ابو العز بهزء وسخرية ليقول : اجل ظلمتها . كان عليّ ان أظل أبله مغمض العينين لأنصفها . أليس كذلك يا انعام ؟

فتقدمت انعام منه لتقول : « أتعلم اين قضت نهارها يا ابا العز ؟ »

قال : « بكل تأكيد . وهل هناك سواي من يعلم ؟ لقد قضت طيلة النهار في احضان عاشق جديد وتقاضت منه المبالغ الطائلة . والله لأسحقن رأسها سحقاً . أنا سأتدبر امري معها. لن ادع فتاة مثلها تضحك على ذقني والذي يستطيع ان يضحك

من ابي العز لم يخلق بعد » ..

كان ابو العز يتكلم بسرعة وغضب ، فعـادت انعـــام الى الاقتراب منه لتقول : « لا تظلمها يا أبا العز . يجب ان تعلم اولاً اين كانت ، ثم تصدر حكمك عليها » .

فنفث صالح ابو العز دخان اللفافة في الفضاء ليقول : « أين كانت ؟ »

قالت : « كانت في المستشفى » .

فوجم ابو العز ... ماذا تقول انعـام ؟ أتكون صادقة في ما تدعي وتقول ؟.. ام تراها تخدعة ؟.

وتابعت الراقصة انعام كلامها لتقول : « لقـــد خرجت في ساعة مبكرة من الصباح شاخصة الى الطبيب . وأشار عليهـا الطبيب بالذهاب الى المستشفى لأجراء فحوصات عدة لهـا . واقتادها بنفسه الى المستشفى ، وهناك في المستشفى قضت النهار بين ايدي الأطباء والفاحصين والخبراء . ولم تعد الا في الساعة الثامنة الى الدار » .

وصمت ابو العز .. أتراه ظلم محاسن ؟ أتكون محاسن بريئة من التهمة التي ألصقها بها ، بتهمة موافاة احد العشاق المتيمين ؟ ليس يدري ، ليس يدري ..

وساد الصمت برهة بينهما .. وعـاد ابو العز الى الكلام ، بعد صمت قصير ليقول : « ولكنني اتصلت هاتفياً بكما مراراً عديدة بين الساعة السابعة وبين الساعة الثامنة فلم يكن ثمة من يجيب » . قالت : « انا خرجت من الدار في الساعة السابعـة ،

ولم اعد اليها الا في الساعة التاسعة ، وعندما عدت وجدت محاسن في الدار . وقالت لي انها وصلت الدار في الساعة الثامنة » .. فألقى ابو العز اللفافة من يده وتمتم : « اين هي الآن ؟ » قالت : « انها في الدار . يبدو ان حالها تدعو الى القلق يا أبا العز . مسكينة محاسن . يخيل اليّ انها في خطر . مسكينة . مسكينة ... »

وتظاهرت انعام بالاسف الشديد وبالحزن العميق على مصير صديقتها محاسن.وأدمعت عيناها . لقد استطاعت انعام ان تقوم بالدور على اكمل وجه.وكانت ممثلة ماهرة بارعة..وآمن ابو العز بكلامها وهو يشاهد الدموع تموج في عينيها . وندم على تسرعه في اصدار حكمه القاسي على محاسن . والتفت اليها ليقول:« ماذا كانت نتيجة الفحص يا انعام ؟ وماذا قال لها الاطباء ؟ » فضربت انعام توفيق كفاً بكف وهمست بحزن وأسف ودمع : « لست ادري يا أبا العز ، لست ادري » .

قال ابو العز والأسى يحز في نفسه:« انا سأتصل بها هاتفياً ، الآن فوراً » . قال هذا وأسرع الى الهاتف يدير ارقامه ليتصل بالراقصة الحبيبة .. وسمع صوت محاسن عبر الاسلاك يقول : « ألو .. من ؟ » وهمس : « محاسن !.. ما بك يا حبيبتي ؟.. انعام أقلقت خاطري قالت لي انك قضيت طيلة النهار في المستشفى .. ما بك يا محاسن ؟ ما بك يا حبيبتي ؟ » .

فضحكت محاسن في سرها . انعام خدعته . وآمن بما قالت له .. وتمتمت : « لا تقلق خاطرك يا ابا العز . الامر بسيط » .

قال : « ماذا قال لك الاطباء ؟ » ... فاحتارت بماذا تجيب وخشيت ان يناقض كلامها كلام انعام،فتمتمت : « كما قالت لك انعام » .

قال : « ولكن انعام لم تقل لي ما هو مرضك . لم تقل انعام ماذا كانت نتيجة الفحص. لقد اشعلت النار في صدري واقعدت عن اطفائها . اثارت هواجسي ولم تخمد ثورتها . قولي لي يا محاسن ماذا كانت نتيجة الفحص ؟ » فهمست محاسن : « الامر بسيط كما قلت لك يا ابا العز . ليس ثمة ما يدعو الى القلق » .

قال : « ولكنني اريد ان اعلم ما بك . اريد ان اطمئن الى سلامتك يا حبيبتي » . قالت : « اطمئن . أنا بألف خير » . وهمس : « كيف تكونين بألف خير ، وقد قضيت طيلة النهار في المستشفى ؟ اريد ان أعلم ما بك يا محاسن ؟ » .

فبرمت الراقصة محاسن باسئلته وتأففت.ورأت انتتخلص منه ومن اسئلته المحرجة فهمست: « تصبح على خير يا ابا العز» .

وهمت بإلقاء سماعة الهاتف من يدها الا ان ابا العز صرخ بها: « اريد ان اعلم ما بك . لا تقطعي الخط . اسمعي يا محاسن..» ولم تسمع محاسن ، بل هي همست : « انا متعبة الآن يا ابا العز. تحدث الي صباح غد . تصبح على خير » ...

وألقت بالسماعة من يدها . فراح ابو العز يتمتم : « ألو .. ألو .. محاسن .. محاسن .. محاسن » الا ان محاسن لم تجب .. وكانت قد عادت الى الاستلقاء في السرير وهي تهمس في سرها : « سأتخلص منه . لن ادعه يستمر في مد سلطانه

عليّ . سأتحرر من العبودية التي فرضها عليّ . سأحطم القيود الحديدية الثقيلة التي قيدني بها ..

وراحت محاسن نصار تدخن .. وعادت الى رشف القهوة والى التفكير بحبيب القلب والروح .

ورأت محاسن نصار نفسها قوية شجاعة جريئة . ولمست في نفسها جرأة لم تلمسها من قبل .. كانت لأيام خلت تخاف ابا العز وتخشى جانبه وترهب سطوته وبطشه، فاذا بها الآن لا تأبه له، ولا تقيم لغضبه وزناً . وراحت تردد في سرها : « فليفعل ما يطيب له » .

وشعرت محاسن بارتياح شديد وهي مستلقية في سريرها تدخن وترشف القهوة وتفكر .. ولاحت لها الآمال ندية وارفة خضراء .. غداً ستتزوج من حبيبها وتعيش واياه في تلك القرية الباسمة الرائعة الجمال . وستنعم قرب حبيب بالراحة والسعادة والهناء . وستخلص له الاخلاص الكامل، لن تلتفت الى رجل، ولن تفكر بشاب ولن تسمح لعينيها بأن تنظر لغير حبيب .

وفيما محاسن مستسلمة لتفكيرها الهانىء الجميل ، قرع جرس الباب، ورمقت محاسن نصار الساعة المشدودة الى معصمها بنظرة سريعة فاذا بها تشير الى الحادية عشرة من الليل ، ووجمت .. من تراه القادم اليها في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ واحتارت في أمرها. هل تفتح الباب، أم تراها تظل فيسريرها؟ لا . هي ستفتح الباب . يجب ان تعلم من هو الطارق .

ووثبت من السرير لترتدي « الروب » فوق ثياب النوم ،

وتسير الى الباب بقدمين ثابتتين . وفتحت الباب، فاذا هي امام ابي العز وجهاً لوجه، ولم تجم محاسن، ولم تدهش، ولم تضطرب، ولم تقلق ، بل هي مدت يدها الى ابي العز تصافحه والابتسامة تشع على شفتيها النديتين . ولمعت على شفتي ابي العز ابتسامة واهية صفراء . وصافحها ببرود وفتور . ودخل دون ان ينبس بحرف . ودخلت محاسن وراءه وهي تتمتم : « اهلاً وسهلاً بأبي العز . تفضل . تفضل الى الصالون » .

ولم يتفضل ابو العز الى الصالون، بل هو شخص تواً الى غرفة النوم ، الى غرفة نومها.. ودخل ، فدخلت وراءه . وجلس على مقعد رجراج وثير قرب سريرها ، حيث كان يجلس دائماً . وجلست محاسن على مقعد يبعد قليلاً عن مقعده . هي لم تجلس على السرير قربه كعادتها . وقدمت له علبة التبغ هامسة : « تفضل » . وتناول ابو العز لفافة ألقى بها بين شفتيه . وتناولت محاسن لفافة اشعلتها، وأشعل ابو العز لفافته . وراحا يدخنان بصمت بارد كئيب .. كان صمتهما شبيهاً بالهدوء الذي يسبق العاصفة العاتية الهوجاء ..

ولم يطل صمتهما .. فقد التفت ابو العز الى محاسن ليقول : « كيف الحال ؟ » كلمتان .. كلمتان فقط : كيف الحال ؟ وردت محاسن بكلمتين ايضاً : « الحمد لله » .. قال وهو ينفث دخان اللفافة في الفضاء : « هل تحسنت صحتك ؟ » فعادت محاسن تتمتم : « الحمد لله » . قال بهزء وسخرية : « يلوح لي ان الطبيب الذي عالجك اليوم افلح في معالجتك. فأنت كما تلوحين لي

بألف خير » .

فعادت الى التمتمة : « الحمد لله » .

واستوى ابو العز في جلسته على المقعد الوثير ليقول : « ماذا قال لك ذلك الطبيب الماهر ؟.. بماذا عالجك ؟ » فنفثت محاسن دخان لفافتها في الفضاء دون ان تنبس بحرف .

وعاد ابو العز الى الكلام ليقول : « في أي مستشفى تعالجت يا محاسن ؟.. وماذا كانت نتيجة الفحص ؟ » . ولم تجب محاسن . لم تنبس بحرف ، لم تفه بكلمة، بل هي راحت تدخن وتفكر ..

وعاد الصمت يلفهما بأجنحته السوداء .. وراحا يدخنان بنهم وجشع وسرعة وعجل .. وعقد دخان اللفافتين غيوماً دكناء في فضاء القاعة الرحبة الفاخرة الرياش .. وطال صمتهما .. وكان ابو العز يراقب محاسن بطرف خفي فيراها مقطبة الحاجبين ، مكفهرة الوجه غارقة في التفكير ..

وعاد الى الكلام بعد صمت طويل ليقول : « هل كنت مرتاحة في المستشفى ؟ » والتفتت محاسن نصار الى ابي العز لتقول : « انا لم اكن في المستشفى يا ابا العز». ونفث ابو العز دخان اللفافة في الفضاء.وهمس : « لا .. انت كنت في المستشفى انعام قالت لي انك قضيت طيلة النهار في المستشفى وانعام معصومة عن الكذب .. وأنت.. انت نفسك أيدتها وقلت لي، عندما تحدثت اليك هاتفياً.انك كنت في المستشفى. هل تكذبين يا محاسن ؟ » . وتمتمت : « اجل لقد كذبت عليك . وانعام

خدعتك لتنقذ موقفي حيالك . اما الحقيقة فهي انني لم اكن في المستشفى ».

قال وهو ينفث دخان اللفافـة : « لا .. انت لا تكذبين . وانعام لا تخدعني. انت اصبت بداء وبيل وشخصت الى الطبيب والطبيب أشار عليك بدخول المستشفى لاجراء فحص دقيق ».

قالت : « لا يا ابا العز . انا بألف خير، ولست مصابة بأي مرض . ولم اشخص الى الطبيب ولم ادخل الى المستشفى » .

فلمع الجد في عيني ابي العز وزأر : « هـل خيل اليك انك تستطيعين أن تخدعي ابا العز بكل سهولة ؟ هل خيل اليك انني صدقت كذبك وآمنت بنفاق صديقتك الوفية انعـام ؟.. لا. انت على ضلال يا محاسن . ابو العز لا يخدع. قولي لي الآن كم دفع لك من المال ؟.. ما هو المبلغ الذي تقاضيته منه ؟ » .

قالت محاسن وهي تنفث دخان اللفافـة في الفضاء : « انا لم اتقاض منه ليرة واحدة » فتمتم صالح ابو العز : « هل عدنا الى الكذب ؟ » . قالت محاسن : « صدقني يا ابا العز . انا لم اتقاض منه شيئاً » قال : « هـل تريدين أن يصدق ابو العز ان حبيبته محاسن غبية بلهاء .. تقضي النهار بكامله قرب رجل ثم تودعه في المساء دون أن تتقاضى منه بدل « اتعابها » ؟.

وهمست محاسن: « يا ابا العز انا اريد أن اصارحك الحقيقة. لا اريد أن اخدعك اريد أن اكون صريحة معك كل الصراحة » فرمى بو العز باللفافة المحتضرة من يده ليشعل لفافة ثانية ويقول: « قولي مـــاذا تريدين أن تقولي ؟ » قالت : صديقتك محاسن

تغيرت . هي اليوم غيرها بالامس . هي لن ترقص بعـد اليوم ، ولن تحسو الخمر ، ولن تساير الزبائن ، ولن تقضي لياليها ساهرة في الملاهي . لقد اعتزلت محاسن العمل يا ابا العز » .

فوجم ابو العز وهـو يسمع كلام الراقصة الحسناء ، وادرك ان الامر من الخطورة في مقـام كبير .. والتفت الى محاسن ليقول : « لماذا هذا الانقلاب المفاجىء ؟ خير ان شاء الله ؟ » . فصمتت محاسن برهـة لتقول : « انا سأتزوج يا ابا العز ، وانصرف الى الاهتمام بـأمر زوجي وبأمر داري الزوجية » . وتحـول الوجوم في صدر ابي العز الى ذعر . اتكون محاسن صادقة في مـا تقول ؟. اذا صدقت فان الكارثة ستكون كبيرة مخيفة رهيبة » .

ونفث صالح ابو العز دخان اللفافة الفاخرة في الفضاء وغمغم : « هل فكرت ملياً يا محاسن قبل اتخاذ هـذا القرار المهم ؟ » . قالت : « اجل يا ابا العز . فكرت ملياً . ورأيت ان لا بـد لي من السير في هذا الطريق » قال : « ولكن هل تعرفين ما هي واجبـات الزواج ومتطلباته ؟ » . قالت : « اعرف كل شيء يا ابا العز » .

قال : « ومن هو العريس السعيد ؟ » . قالت : ستعرف من هو بعد أن يتم زواجنا لا قبل » . قال : « وهل هو غني ؟ » .. وخيل لابي العز ان محاسن ستجيب بقولها :«هو غني جـداً .. إلا أن محاسن خيبت الامل.وهمست : « لا .. انـه فقير » .. وزأر ابو العز .. « اتكونين بلهاء الى هـذا الحد؟ تتزوجين من

شاب فقير وانت قادرة على ايقاع الاغنياء الاثرياء في شباكك؟ ».

قالت : « القلوب لا تشرى ولا تبـــاع يا ابا العز » . فقهقه ابو العز، وهمس: «منذ متى اصبحتِ فيلسوفة يا ست محاسن ؟». قالت : « منـذ ان تعرف قلبي الى الحب يا ابا العز . انا احب . اجل احب هـذا الشاب وسأتزوج منه وارتاح من حيـاة الليل والسهر والبؤس والعذاب » .

قال : « لقد فهمت الآن . انت تحبين اذن . تحبين شابـــاً فقيراً .. لقد استطاع هذا الشاب أن يوقعك في الشرك. استطاع أن يستولي على قلبك .. يا مسكينة يا محاسن. مصيبتك كبيرة جداً » .

قالت : « انا راضية بهـــذه المصيبة » . قال : « اذن انت كنت عنده طيلة النهار ؟ ».قالت : « اجل كنت عنده . كنت عنده طيلة النهار . وسيطل يوم ، وهو قريب جداً ، اظل فيه عنده الليل والنهار » ..

قال : « اسمعي يا محاسن .. ان الطريق الذي تسيرين فيه طريق خطر رهيب مخيف.هو سيصل بك الى وهدة عميقة الغور بعيدة القرار ، لا تستطيعين الخروج منها . نصيحتي اليـك أن تقفي في المسير في هذا الطريق عند هذا الحد . لا تتوغلي فيه . لا تسيري بعـــد الآن ولا خطوة واحدة في حناياه . عودي . عودي من منتصف الطريق يا محاسن ، لئـــلا تجدي نفسك عاجزة عن العودة وقد اشرفت على الهاوية .

فارتسمت على شفتي الراقصة الحسناء ابتسامة هادئة بريئة وتمتمت : « اطمئن انا لن اعود ، لا من منتصف الطريق ، ولا من آخره » . قال : ستندمين يا محاسن » . فهمست : «لن اندم ، لن اندم . لقد اتخذت قراري. وليس ثمة قوة تستطيع ان تعود بي عن هذا القرار » . وصمت ابو العز ، وراح يدخن ويفكر.. وصمتت ايضاً محاسن .. وعاد ابو العز الى الكلام بعد صمت قصير ليقول : « انت تعودت يا محاسن حياة البذخ والاسراف فهل تستطيعين أن تعيشي عيشة فقر وعوز وتعتير؟ انت تعودت حياة السهر والمرح والسكر والعربدة والمجون ، فهل تستطيعين أن تعيشي حياة رصانة ووقار ومحافظة وتهذيب ؟.. » .

قالت : « كما تعودت حياة البذخ والاسراف والعربدة والسهر والمجون سأتعود على حياة الاقتصاد والرصانة والوقار . قلت لك يا ابا العز وأعيد القول . انا احب هذا الشاب ، وسعادتي قربه ، لن ابتعد عنه . ان اضيع سعادتي ، انا سأتزوج منه ، واعيش قربه وله مدى الحياة » .

فعاد ابو العز الى الصمت ينغمس فيه . ولاذت محاسن ايضاً بالصمت العميق. وطال صمتهما دون أن ينبس احدهما بحرف .. واخذت محاسن تتثاءب وقد انهك النعاس اجفانها .. والتفت صاحب الملهى الكريم اليها ليقول بجزم وعزم ووقار : « انت لن تتزوجي » .. وكان قاسياً في كلامه . كان يتكلم كأنه قاضٍ يصدر حكماً لا مرد له .. وضحكت محاسن نصار مستهزئة بكلامه . ونفثت دخان اللفافة بلا مبالاة. وتمتمت : « انا بالغة

سن الرشد يا ابا العز واستطيع أن اقرر مصيري بنفسي. لو كان والداي على قيد الحياة الآن، لما استطاعا أن يصدرا اليّ الاوامر. انا حرة . اتزوج بمن اريد، ساعة اريد » .

فظهر الجد في عيني ابي العز ، واستوى في مقعده ليقول : « اسمعي يا محاسن . انا لي جميل في عنقك وعليك أن تردي لي هذا الجميل » . قالت بهزء وسخرية : « ما هو هذا الجميل ؟ . . هل تستطيع أن تقول لي ما هو ؟ » .

قال : لقد جعلت منك راقصة شهيرة . كنت خادمة فقيرة فأصبحت راقصة غنية . كل ذلك بفضلي انا. لولاي لكنت الآن خادمة .. خادمة ، تغسل الصحون وتنظف الثياب وتكنس الدور » . قالت محاسن بغضب وحنق : « يخيل الي انك استمدت جميلك مني . منذ سنين بعيدة وانا ارقص في ملهاك لقاء اجرة زهيدة ، منذ سنين وأنت تتاجر بي وتتقاضى اجرة اتعابي ، منذ سنين وانا أغدق عليك من مالي ومن جسدي ، ومن راحتي ومن سعادتي فماذا تريد بعد ؟ » . فزأر ابو العز : « انت لن تتزوجي. الموت أقرب اليك من الزواج.هل تفهمين . لك ان تختاري ، اما الموت واما الزواج » . وبادلت محاسن أبا العز الزئير بالمثل . قالت : « أتهددني يا أبا العز ؟.. افعل ما يطيب لك . الذي يستطيع أن يهدد محاسن لم يخلق بعد. ليس ثمة من يستطيع ان يفرض ارادته علي .. انا سيدة امري . انا حرة . أفعل ما اريد ساعة اريد . هل تفهم ؟ » .

واشتد الغضب بأبي العز ، وهو يلمس في الراقصة محاسن

نصار ، التمرد والعصيان . وزأر : « أتتمردين علي يا جاحـدة النعمة ؟ هل يخيـل اليك ان أبا العز سيتخلى عنك بكل هـذه السهولة ؟ لا والله أنا سأخطف أنفاسك إن أنت فكرت بالافلات من يدي » .

وعصف الغضب الشديد في قلب محاسن فوقفت تقول بلهجة قاسية حازمة شديدة الوقع : « اسمع يا أبا العز . انا لا أسمح لك بالتدخل في شؤوني الخاصة . انت لست ولي امري ، ولست ابي ولا اخي ولا نسيبي . كنت اعمـل في ملهـاك وانقطعت. كنت راقصة واعتزلت الرقص ، كنت عشيقتك يا سيدي وانتهى كل شيء بيننا فماذا تريد مني ؟.. تفضل .. ها هو الباب امامك . تستطيع ان تخرج بأمان وسلام واطمئنان » .

وتحول الغضب في قلب صالح ابي العز الى ذعر . ماذا تقول محاسن ؟.. هل جنت ؟.. أتطرده من دارها ؟ أتتمرد عليه ، وقد كانت لأيام قليلة مضت لا تجرؤ على رفع رأسهـا امامه ؟.. كل حساب حسبه ابو العز إلا هـذا الحساب. لم يخطر في باله ان محاسن ستقف منه يوماً مثل هذا الموقف الرهيب . لم يجـل في خاطره ان عشيقته ستتمرد يومـاً عليه . لم يفكر بأن الراقصة محاسن نصار ستجرؤ على رفع صوتها في وجهه .. لقـد خيل اليـه ان محاسن ستخاف تهديده وأنهـا ستعمد الى اللطف والاستعطاف واللين . إلا ان حساب الحقل لم يطابق على حساب البيدر . فاذا بالعشيقة الوديعة المسالمة تنقلب فجـأة الى امرأة متمردة ناقمة غضوب ..

وصمت ابو العز . وأبى ان يقف ويتجه الى البـاب ويخرج منه كما أشارت اليـه محاسن . وراح يدخن بصمت وتفكير : « ماذا عليه ان يفعل الآن ؟.. هل يمضي في موقفه منها ؟.. هل يمضي في التهديد وفي الوعيد ؟ هل يثب اليهـا فيمسك بشعرها وينهال عليها بالصفع ؟.. وراقته فكرة الضرب .. سيضربها ، ويلقنهـا درساً قاسياً في الخضوع لمشيئته وفي الانصياع الاعمى لأوامره .. ولكن ، ولكن هـــل ينجع الضرب والصفع في الراقصة المتمردة الحرون؟.. لا ، من المؤكد ان الضرب سيزيدها تمرداً والصفع يزيدها غضباً وجنوناً .. ماذا عليه ان يفعل اذن؟

وراح أبو العز يفكر... عليه الآن ان يلاطفها ويسايرها ويتودد اليها . ثم .. ثم ماذا ؟ ثم يعمد الى الحيلة لإبعادهـا عن ذلك الشاب الذي استطاع ان يمد سلطانه عليها وان يظفر بقلبها الهائم الولوع .. الحيلة ؟. أجل الحيلة .. الحيلة وحدهـا تصل بأبي العز الى مـا يبتغي ويروم . وأبو العز ، حرسه الله ، يتقن فنّ الاحتيال ، فهو من هذا الفن « الرفيـع » في أعلى مقام، ومن المحتالين الكرام في المقدمة .

واطمأن ابوالعز وقد وصل بتفكيره الى هذا الحد . والتفت الى محاسن ليقول بكل ذل وهدوء وانكسار: « اتطردينني من دارك يا محاسن ؟ »

وكان في صوته رقة ووداعة وذل واتضاع، فخجلت محاسن نصار من نفسها ، كيف دفعها الغضب الشديد الى التلفظ بتلك الكلمات القاسية ؟ كيف سمحت لنفسها بأن تطرد ضيفاً من

دارها ؟ لقد اساءت محاسن نصار الى ابي العز ، لقد اخطأت بحقه ، وعليها ان تكفر عن اساءتها وان تصلح خطأها .

وجلست محاسن ، دون ان تهمس بحرف . وعاد ابوالعز الى الكلام ليقول: « أهكذا يهون لديك حبيبك ابوالعز يا محاسن؟ أهكذا تنسين في لحظة كل مـا كان بيننا ؟ يا ضياع الامل بك يا محاسن ؟ أنا لم اكن لأفكر يوماً بأنك ستقفين مني هذا الموقف البغيض. لم اكن لأفكر بأنه سيطل عليّ يوم تطردني فيه حبيبتي محاسن من دارها . سامحك الله يا محاسن » .

ونفثت محاسن دخان اللفافة في الفضاء، وهمست : « لقـد أثرتني يا أبا العز . كلامك ألهب سعير الغضب في صـدري . فتلفظت بما لا اريد التلفظ به » .

قال ابو العز: « يا محاسن، انا ان كنت اريدك على الابتعاد عن الزواج فما ذلك إلا من اجلك انت، من اجل سعادتك ومن اجل هنائك يا حبيبتي . الزواج ليس بالأمر السهل اليسير . انه امر صعب شاق مرهق متعب ثقيل العبء . ليس الزواج « اكلة طيبة » . لم تموتي ، ولكن ألم تشاهدي من مات ؟ »

قالت محاسن : « يا ابا العز ! انا اريد ان ارتاح . اريد ان اضمن مستقبلي ، اريد ان اصبح زوجة صالحة وأمـاً رؤوفاً ، هذا الحلم هو حلم كل فتاة ، كل امرأة ، ماذا ستكون نهايتي وأنا أسلك سبيل الرقص والسهر والسكر والعربدة والمجون؟ الى أين سيصل بي هذا الطريق الذي اسلكه ؟ ماذا سيكون مصيري ؟ أي مستقبل مظلم قـاتم السواد سيكون مستقبلي ؟ »، فهمس

ابو العز : « انت غنية يا محاسن . لقد جمعت ثروة طائلة يعجز كبار الرجال وأشدهم همة وحركة وذكاء ونشاطاً عن جمعها ، جمعت هذه الثروة الطائلة وأنت ما زلت في شرخ الشباب . اموالك ستكفل مستقبلك يا محاسن . من يملك القرش يملك احترام الناس وتقديرهم واحترامهم. مستقبلك مضمون يامحاسن، ومصيرك معلوم. ليس لك ان تخافي غدر الايام وظلمها، والاموال تتدفق بين يديك . لماذا تريدين الزواج ؟ أتريدين ان تعيشي في دار هانئة . وهل هناك دار تعرف الهناء مثل هذه الدار التي تعيشين فيها الآن ؟.. هل تريدين ان تعيشي في كنف رجل؟... كل الرجال « على حسابك » ما لك الا ان تختاري، ما لك الا أن تشيري بيدك الى اي رجل ، الى اي شاب ، حتى ينقاد اليك انقياد الأعمى الى دليله . لماذا تربطين مصيرك بمصير شاب واحد وهناك عشرات الشبان ، وأنا في طليعتهم يتمنون أن تكوني لهم ؟ اي فائدة تجنينها من الزواج ؟ لست ادري » .

وهمست محاسن:« هل انتهيت من حديثك يا أبا العز؟ » . قال : « اجل انتهيت » . قالت : « لقد استمعت انا الى آرائك ، فهل تتفضل وتستمع انت الآن الى آرائي ؟ » . فأشعل ابو العز لفافة،وتمتم : « تفضلي . هاتي آراءك القيمة».

قالت : « ان المال لا يشتري السعادة . كل ما أملك من مال لا يشتري لي ذرة من سعادة . ان المال يزول يا أبا العز، قد ينفد مالي ويتبخر قبل ان تدهمني الشيخوخة . وعندئذ

لن أجد من يقدم لي كأس ماء .. » قال ابو العز : « وماذا بعـــد ؟ » قالت : « ثم ان هؤلاء الشبان الذين ينقادون اليّ باشارة صغيرة من طرف اصبعي ، سيتفرقون عني ويهربون مني عندما تطل عليّ الشيخوخة من وراء السنين » .

فنفث صالح ابو العز دخـــان اللفـــافة في الفضاء.وهمس : « وبعدئذ ؟ » . قالت : « بعدئذ أنا اريد ان اصبح زوجـــة وأماً . لا اريد ان اكون عشيقة » . قال : « وماذا بعد ؟ ». قالت : « ثم هل تعلم يا أبا العز ان كل ما في العالم من سعادة ولذة وهناء لا يساوي سعادة الحب الحقيقي المقدس ولذتـــه وهناءه » . قال ابو العز: « معنى هذا انك تحبين هذا الشاب الفقير ؟ » .

قالت : « أجل يا ابا العز ، انا احبه واعترف بأنني احبه. انا لا اخجل بحبه ، بل افتخر بـــه ، الحب المقدس الطاهر النبيل الشريف، الحب الروحي يا أبا العز يرتفع بالنفس البشرية الى الاعالي، ويهيم بها في عالم بعيد الحدود فسيح الحنايا شاسع الارجاء ، في عالم من السعادة غير المتناهية » . قال ابو العز: « يلوح لي يا محاسن ان هذا الشاب استطاع ان يسيطر عليك سيطرة تامة وأن يبسط سلطانه على قلبك الطاهر النبيل » .

قالت : « هذه هي الحقيقة يا ابا العز . لقد استطاع هذا الشاب ان يسيطر على عقلي وعلى قلبي وعلى شعوري ، كما انني استطعت انا ايضاً ان امـــد سلطاني على كل نبضة من نبضات قلبه وعلى كل رعشة من رعشات روحه .

وصمت ابو العز . وراح يفكر باهتمام شديد : يبدو ان محاسن غارقة في الحب حتى اذنيها . لقد وصلت محاسن الى مرحلة يصعب فيها عليها الرجوع . يا له من غبي ، كيف اهمل امر هذه الراقصة ، وكيف غفل عنها ولم يتنبه لها حتى الآن ؟.. لا بأس . الوقت لم يفت بعد . هو ما زال قادراً على الحؤول دون انقضاض الكارثة ..

والتفت صاحب الملهى الكريم الى الراقصة الحسناء ليقول، بعد صمت قصير : « انا لا انكر عليك الحب يا محاسن . من حقك ان تحبي . ولكن لماذا لم تختاري شاباً غنياً وتحبينه ؟ الشبان الاغنياء الذين يحومون حولك كثيرون، فلماذا اعرضت عنهم لتندفعي في هوى شاب بائس فقير ؟ » .

قالت : « نحن لا نستطيع يا ابا العز ان نختار احبابنا . الأقدار هي التي تختارهم لنا . وعلينا أن ننزل عند اختيار الاقدار . انا لم اختر حبيبي ، الاقدار هي التي اختارته لي . الاقدار اوقعته في طريقي وأوقعتني في طريقه » . قال : « هل هو من زبائن الملهى ؟ » .

فابتسمت محاسن.وهمست : « انت تريد ان تعلم من هو . مهلاً يا صديقي . انا سأقول لك من هو ، ولكن ليس الآن». قال : « ولماذا تريدين ان تخفي عني اسمه ؟ » . قالت : « ستتعرف اليه في الوقت المناسب . ليس الآن » . قال : « اريد ان اعلم هل هو من زبائن الملهى ؟ » .

فاتسعت الابتسامة على شفتي محاسن لتقول مازحة: « لا .

اطمئن انا لن اسلبك زبائنك الكرام . هو ليس من زبائن ملهاك . ولو كان من رواد الملهى لما أحببته ولما تدلهت في حبه » .

فوقف صالح ابو العز ليقول : « لقد أشرفت الساعة على الحادية بعد منتصف الليل . انني اتمنى لك السعادة والتوفيق . تصبحين على خير يا محاسن » .

ووقفت الراقصة الحسناء تصافح صاحب الملهى قـــائلة : « تصبح على خير يا ابا العز » .. وسار ابو العز ، وخرج من تلك الدار وهو يفكر ، كان يفكر بمـا وصلت اليه محاسن . يا لها من فتاة غبية بلهاء. هل يخيل اليها أن أبا العز سيبارك حبها وسيفلتها من يده ؟.. مجنونة.. هو بحاجة اليها . بحاجة الى تلك المبالغ الطائلة التي تتدفق على ملهاه بواسطتها،وبحاجة الى جسدها الندي الشباب. محاسن نصار ، لن تفلت من يده. لن تستطيـع أن تسير طويلاً في هذا الطريق .. فلتفعل الآن ما يطيب لها . وفي الغد القريب سيبقى لكل حدث حديث.

١٦

حفلة العيد

السهرة عامرة زاهرة زاهية في دار محاسن نصار في شارع الحمراء في بيروت ، فالليلة ليلة عيد رأس السنة . وأبناء القرية الوادعة الباسمة الخضراء لبوا دعوة الراقصة انعـام وجاؤوا يحيون ليلة رأس السنة في دارها ودار محـاسن . وغمر الفرح حنايا الدار وقد عبقت بعبير الشباب العـاطر الريان . وراح الزجالون يتبارون ويتغزلون ويهجون ويصفون ..

وانتشت الراقصة انعـام وهي تسمع الزجالون يصوغون القوافي كأنها العقود وينثرونهـا في المسامع كما تنـثر البلابل اناشيدها في الفضاء . وتباهت الراقصة انعام توفيق وهي تسمع الزجالون يتبارون في وصف جمالهـا الفاتن الرائع . وراحت توزع على الزجـالين الشبان ابتساماتها بالعـدل والقسطاس . وثبت الى الاثمار والى الحلوى والى القهوة والى الشاي توزعها على ابناء القرية والنشوة تغمر فؤادها .

وأمسكت محاسن نصار بيـد حبيبها حبيب مرزوق ، هامسة في اذنه: « حبيب ! تعال نخرج الى الشرفة يا حبيب».

وخرجا الى الشرفة . وكان الشارع الفسيح الطويل البعيد يزدهي بالأنوار . والدور المنتصبة على جانبيه تغرق في بهجة العيد ، وتتعالى انغام الموسيقى فتنساب مع نسيم الليل العليل لتزيد فرحة العيد فرحة وبهجته بهجة وحبوراً .. وكان الراقصون والراقصات يترغون على انغام « التانغو » و «الفالس» ويقفزون وينطون ويثبون على انغام « الروك اندرول » و «التشاتشا» وغيرها من الرقصات الغريبة المضحكة المخجلة..

ووقفت محاسن نصار مع حبيبها يستعرضان الراقصات والراقصين في الدور المواجهة لدار محاسن، عبر زجاج النوافذ.. وهمست محاسن في اذن حبيبها : « حبيب !.. هذا هو العام الأول يطل علينا . هذه الليلة هي ليلة اول عام في عمر حبنا يا حبيب . كم من الليالي سنقضي بعد هذه الليلة معاً ؟ كم من الاعوام ستمر علينا بعد هذا العام وأنا الى قربك يا حبيبي؟».

فهمس حبيب مرزوق وهو يطوق حبيبته محاسن بذراعيه: « محاسن! ستكون أيامنا كلها أعياداً يا حبيبتي . لن يفرق بيننا شيء على هذه الارض الا الموت .. الموت ؟.. لا يا محاسن ..لا يا حبيبتي . حتى الموت لن يفرق بيننا . لن يستطيع الموت أن يفرق بين روحينا . لن يستطيع ان يحطم حبنا . ان حبنا أقوى من الموت يا محاسن . ستظل روحانا متحدتين هائمتين مغرمتين حتى بعد الموت يا حبيبتي » .

فهمست محاسن ، وهي تلتصق بـه : « ان شاء الله ، ان

شاء الله يا حبيبي » قال : وهو ينظر الى النجوم المتبخترة في الفضاء المتلألئة من خلال الغمام المنتشر عبر الرياح : « انظري يا محاسن . انظري يا حبيبتي . هل تشاهدين هـــذه النجوم الساطعة في الفضاء ؟.. هذه النجوم التي تظهر حينـــاً لتختفي أحياناً وراء الغمام؟..هذه النجوم شبيهة بأرواحنا يا محاسن. انها صورة واضحة عن أرواحنـــا . هكذا تظهر أرواحنا في هـــذه الأرض ، لتختفي وراء القبر ثم تعود الى الظهور في السماء . وروحانا ، روحي وروحك ، ستختفيان يومـــاً وراء حجب الموت لتعودا فتظهرا وتسطعا في السماء يا حبيبتي .

وهمست محاسن وهي تطوقه بذراعيها : « هكذا سنظل مدى العمر ، مدى الحيـــاة يا حبيب . لن نفترق يا حبيبي . لن نفترق أبداً أبداً أبداً » . قال حبيب مرزوق : « قولي معي ، ان شاء الله ، يا محاسن » . فهمست : « ان شاء الله يا حبيبي » ..

وفيما محاسن وحبيب يقفان على الشرفة كان جرس الهاتف يقرع بشدة داخل الدار .. وأسرعت انعام الى السماعة ترفعها الى اذنها وتهمس : « ألو .. من ؟.. » . وقـــال الصوت : « من ؟.. انعام ؟ انا ابو العز يا انعام . الساعة اشرفت على العاشرة وحضرتك لا تزالين في الدار ؟.. لماذا لم تحضري الى العمل ؟ » . وهمست انعام عبر الاسلاك الهاتفية : كل عـــام وأنت طيب يا ابا العز . الليلة ليلة عيد رأس السنة » . قال : « انا اعلم ان الليلة ليلة عيد رأس السنة . ولذلك يتحتم عليك

ان تحضري الآن فوراً . الملهى يزدحـــم بالزبائن والمعجبون والاصدقاء بانتظارك ».

فتمتمت : « انا لا استطيـع الحضور يا أبا العز . أرجو أن تعفيني الليلة من العمل » . فتمتم صاحب الملهى : « هـــل انتقلت عدوى الكسل من محاسن اليـك ؟ محاسن تريد ان تتزوج . أما انت فما هي مصيبتك ؟ » . قالت : « اطمئن يا أبا العز . انا لم أبلغ من الجنون بعد الى هذا الحد . لم أجن كي اتزوج إلا ان هنا ضيوفاً لا استطيـع ان اتركهم الآن » . قال : « اين هي محاسن ؟.. أليست في الدار ؟ هـل ذهبت لتقضي ليـلة العيد مع العريس ؟. » . قالت : « لا ، محاسن هنا ». قال : « فلتتكفل هي بالضيوف واحضري انت الآن فوراً الى الملهى » . قالت : « لا يا أبا العز . انا لن استطيـع الحضور . كل عام وأنت طيب وتصبح على خير » .

وألقت انعـــام بالسماعة من يدها . هذه الليلة من ليالي العمر . هي لن تفوتهـا لتشخص الى الملهى . هي تريـد ان تستمتع بأطايب الزجل وتشنف أذنيها بالانغام القروية الشجية. لن تذهب الى الملهى الليلة ولن تضيع عليها الفرصة السانحة..

وعادت انعام الى قاعة الاستقبال لتجلس بين ابناء القرية وبناتها . ومضى الزجالون في المباراة. وعلا التصفيق وترددت الآهات . واشتركت انعام بالتصفيق وبالغناء .. واذا بجرس الباب يقرع .. ونهضت انعام واتجهت الى الباب تفتحه فاذا بها امام ابي العز وجهاً لوجه ..

ودهشت الراقصة انعـام ، وهي تشاهـد صاحب الملهى امامها . وهمست : « ابو العز ؟.. اهلا وسهلا » .. ودخـل ابو العز . وكان صوت الزجالـين يتعالى في أنحـــاء الدار ، والتصفيق يصم الآذان .. والتفت ابو العز الى انعام ليقول : « يبـدو ان السهرة عامرة عندكا » . قالت : « انهم بعض الاصدقـــاء جاؤوا من الجبل لقضاء سهرة العيد عندنا » .. قال : « اين هي محاسن ؟ ». فنظرت انعام الى الشرفة نظرة خشية وقلق.وتمتمت : « تفضل . الى الصالون يا ابا العـز . انا سأدعو محاسن اليك » .

وأدرك ابو العز ، وهو يشاهد انعام تنظر الى الشرفةبقلق ووجوم ، أدرك ان محاسن على الشرفة .. وسار الى الشرفة. ولحقت به انعام وهي تتمتم: « تفضل يا أبا العز الى الصالون».

ولم يتفضل ابو العز الى الصالون، بل هو شخص الى الشرفة دون ان يلتفت الى انعام .. وخرج الى الشرفة ليقف على قلق واضطراب .. ماذا يشاهد ابو العز؟.. انــه ليشاهد محاسن بين ذراعي شاب قوي وسيم .. وأدرك صاحب الملهـى الكريم كل شيء . هذا هو حبيب محاسن . هذا هو عزوله . انـــه خصمه اللدود ، مزاحمه على قلب محاسن .

لقد حاولت محاسن ان تخفي عنـــه ، عن ابي العز اسم حبيبها وهويته ، فاذا بالأقدار تقوده الى هناك ليتعرف اليه. لم يكن يخطر في بال أبي العز وهو يشخص الى دار محاسن ، أنه سيجد عزوله هناك . كان ابو العز يريد ان يحضر الى تلك

الدار ليمسك بيد انعام ويعود بها الى الملهى ، إلا ان الاقدار أرادت ان تكشف لــه السر الدفين وأن تعرفه الى حبيب محاسن .. وهمس ابو العز في سره وهو يقف عـلى الشرفة : « حظك من السماء يا أبا العز » . وتقدم منهما قائلاً : « مساء الخير يا جماعة » .

وارتدت محاسن على ذعر وقـــد وقع صوت ابي العز في اذنيها . وانسلخت عن حبيب وتراجعت الى الوراء .. وتقدم ابو العز من حبيب ماداً يده لمصافحته هامساً « بونسوار » .. ومد حبيب مرزوق يده يصافح ابا العز ويهمس: « بونسوار».. وشدت يــد ابي العز يد حبيب مرزوق . والتفت الى محاسن ليقول : « ألا تعرفينني بالشاب يا محاسن ؟ » . وأوقعهـا في المأزق الحرج . لم يعد لهـــا إلا ان تستجيب طلبه .فهمست. « إنه السيد حبيب مرزوق » . والتفتت محاسن إلى حبيب تعرفه بأبي العز. « انه صالح ابو العز ابن عم والدتي يا حبيب».

وزعق ابو العز : « حضرته السيد حبيب مرزوق . أهلاً أهلاً أهلاً بالسيد حبيب .. منذ امد بعيد وأنا أتمنى ان اتعرف اليك . كانت محاسن تحدثني دائماً عنك . محاسن معجبة بك شديد الاعجاب يا حبيب » ..

قال ابو العز هــذا ثم التفت الى محاسن ليقول : « لقــد احسنت الاختيار يا محاسن . فلك تهانيّ الحــارة يا نسيبتي العزيزة » ..

ووقفت محاسن على دهشة وقلـق ووجوم . ماذا يقول

ابو العز ؟.. لماذا يثني على حبيب كل هذا الثناء ؟. هل هناك شرك جديد يريد ان ينصبه لها ولحبيبها ؟. وأمسكت محاسن بيد حبيب. وتمتمت : « تعال ، تعال يا حبيب لندخل الى الصالون » . ووقف ابو العز بينهما ليقول : « لا . أبداً . انا اريد ان أتحدث الى حبيب . ادخلي وحدك الى الصالون يا محاسن » . وأبت الراقصة محاسن ان تدخل وحدها الى الصالون وتترك حبيباً في خلوة مع ابي العز . وأصرت على الدخول مع حبيب الى قاعة الاستقبال ..

ودخلا .. ولحق بهما ابو العز .. وكان الزجالون لا يزالون يطلقون قوافيهم العامرة فجلست محاسن قرب انعام ، وجلس حبيب قربها ، وجلس ابو العز قرب حبيبه .. وراح ابو العز يتودد الى حبيب مرزوق . وراح يسايره ويسامره ويستدرجه للبوح بكل ما في قلبه من أسرار ..

وعلم ابو العز من حبيب مرزوق كل شيء .. لقد عرف كيف تم التعارف بينه وبين محاسن على شاطىء المعاملتين .. وعلم منه انه قروي اقرب الى الفقر منه الى الغنى ، وانه يعيش مع امه في القرية الباسمة الخضراء على كتف شاطىء المعاملتين الجميل .. وعلم ان حبيباً يحب محاسن حباً هائلاً رهيباً وانه سيتزوج منها قريباً .. وعلم ايضاً ان محاسن اوهمت حبيباً انها ابنة تاجر كبير غني وانها تعيش مع « ابنة خالها » انعام في دارها .. وعلم ابو العز من حبيب مرزوق كل شيء . كل شيء ..

لقد استطاع ابو العز أن ينتزع من حبيب مرزوق كل تلك الاسرار بدون أن يلقى أي عناء .. واطمأن ابو العز وقد توصل الى معرفة كل ما يصبو اليه .. ونهض ، وقد افرغ حبيب مرزوق جعبته ، ليقول : « انا مضطر للعودة الى داري . لقد تشرفت بمعرفتك ايها السيد حبيب وانني لفخور بمناسبتك » . وتمتم حبيب وهو يصافح ابا العز : « ارجو ان تشرفني بزيارتك في القرية ايها السيد صالح » . وتمتم « السيد صالح » : « سأزورك قريباً إن شاء الله يا اخي حبيب » .

وخرج ابو العز من قاعة الاستقبال وتسلل من الدار ليعود الى ملهاه والفرحة تغمر روحه .. وهمس في سره ، وهو يدخل الى الملهى العامر الفسيح : « هنيئاً لك يا ابا العز . لقد اصبحت محاسن في قبضة يدك . لن تفلت من هذه اليد . هي ستعود .. ستعود .. ليس للعصفور أن يبسط جناحيه ويطير ما دام القفص موصد الباب ، محكم الاقفال .

١٧
الوشاية

حبيب مرزوق على فرحة طلقة ناصعة البياض ، فالآمال الباسمة تغمر حنايا روحه ، والاحلام المجنحة البيضاء تبسط على قلبه الخفوق اجنحتها الوارفة الظلال . واطمأن حبيب مرزوق كل الاطمئنان وقد صفت له الايام ، وعمرت روحه بالسعادة والهناء ، ومدت فوق قلبه وقلب حبيبته محاسن وشاح السعادة والسلام ..

ومحاسن كانت مطمئنة البال سعيدة الروح ، فهي قد ارتاحت من عناء السهر والعمل في الملاهي ، وعرفت لذة السعادة في حبها الهانىء المقدس النبيل . وماذا تريد محاسن نصار غير هذا ؟.. كل ما تريد محاسن هو أن تظل قرب حبيب ويظل حبيب قربها . فهي تشخص اليه صباح كل يوم وتقضي طيلة النهار قربه تساعده في عمله في الحقل وفي الكرم وفي البستان ، وتجلس واياه تحت ظلال الاشجار الوارفة عندما تتبدد الغيام وينقطع المطر عن الهطول، او حول الموقد عندما تمطر السماء وتتلبد الغيام في الفضاء ..

وكان العاشقان المتيمان في سعادة هانئة باسمة سمحاء . وما أن تتأهب الشمس للمغيب حتى تستقل محاسن سيارتها الخاصة وتعود بها الى بيروت .

وراح الحبيبان يبنيان قصور الاماني الشاهقة المنيفة العالية الاجنحة ، الفسيحة الارجاء . وكلما جلست محاسن قرب حبيبها همست في اذنه : « حبيب . غداً ستصفو لنا الايام وتزدهر وتزهو امانينا العذاب . سنعيش العمر كله معاً يا حبيبي لن نفترق يا حبيب . لن نفترق حتى الموت » .

ويضمها حبيب مرزوق الى صدره برفق وحنان ويهمس : « محاسن !.. إذا اراد الله سنكون في الأحباء بين السعداء . سنقضي العمر معاً . هنا في هذه الوهاد والتلال والجبال . سنشارك الاطيار اناشيدها يا محاسن ، والجداول ترانيمها ، ونشترك مع النسيم العليل في همساته ومع الازهار في نشر العطر والعبير . لن تكون لسعادتنا حدود ولا سدود ، سنعيش كما تعيش الاطيار ونغفو كما تغفو زهرات البنفسج على ضفاف النهر الدائم الترانيم . سنصحو مع اطلالة الفجر ورأسك على صدري يا حبيبتي . ايامنا يا محاسن ستكون احلاماً مجنحة وليالينا ستكون اطيافاً وارفة بيضاء » ..

وتغمض محاسن نصار عينيها على تلك الرسوم التي يرسمها لها حبيبها حبيب مرزوق . على رسم الاحلام المجنحة والاطياف الوارفة البيضاء .. وتتدحرج الدموع من عينيها المغمضتين .. ويهمس حبيب ، وهو يشاهد دموع حبيبته محاسن تنهمر على

وجنليها كحبات اللؤلؤ وكقطرات النـدى : « محاسن !.. مـا بك يا حبيبتي ؟ لماذا تبكين يا محاسن ؟ ».وتشد يـد محاسن يـده وتهمس : انهـا دموع الفرح يا حبيب . دموع السعادة . الفرح والحزن توأمان يا حبيب . والسعادة والشقاء شقيقان والانسان يضيع بين التوأمين ، يتيه بـين الشقيقين . فهو يبكي للفرح مثـله للحزن . ويجهم للسعادة مثـله للشقاء ، والعيون والشفاه تتأثر بالحزن وبالفرح وبالسعادة وبالشقاء يا حبيب . انا ان كنت ابكي الآن فـلأنني أكاد ألمس السعادة بيدي. سعادتي قربك يا حبيب تدفع الدموع الى عيني فليحقق الله امانينا الوارفة واحلامنا العذاب يا حبيبي » .

ويهمس حبيب مرزوق وهو يشدها الى صدره: « محاسن. السعادة الحقيقية ليست على هذه الارض. انها هناك في السماء. وما نشعر به ، هنا على هذه الارض الفانية من سعادة ، ان هو سوى ظل السعادة الحقيقية التي تنتظرنا هناك مـا وراء الغمام ، والسعيد السعيد هنا هو ذلك الطاهر الشريف النبيـل الذي تنتظره السعادة الابدية هناك. السعادة التي لا حدود لها ولا سدود ، السعادة المتناهية الازلية. قولي معي يا محاسن : « اعطنا يا رب ذلك الميراث الابدي الذي وعدتنا به . خـذ كل ما نملك على هذه الارض من سعادة واعطنا عوضاً عنهـا رضاك الذي هو كل السعادة » .

وتنتشي محاسن نصار بكلمات حبيبها وتردد كلماتـه : « اعطنا يا رب رضاك » . وتشعر محاسن وهي تردد مـع

حبيب تلك الصلاة ، تشعر براحـة وهنـاء وسلام واطمئنان ، فتمسح دموعها وتضم حبيبها الى صدرهـا : « فليبارك الله حبنا وأشواقنا وأمانينا وأحلامنـا يا حبيب وليبقني قربك ويبقك قربي مدى الحياة يا حبيبي » .

ويهمس حبيب مرزوق : « اطلبي من الله معي يا محاسن أن يجمعنا هناك .. قربه في السماء . هناك سيكون لقـاؤنا أبدياً يا حبيبتي . سيكون لقاء لا فراق بعده . أما هنا ، فان لقاءنا سيكون لقاء زمنياً لا قيمة له ولا وزن ولا قـدر » . وتمتمت محاسن بلهجة الواثقة المطمئنة : « سنجتمع هنـا . وهنـاك يا حبيبي . على الارض وفي السماء لن نفترق . ابداً ابداً ابداً » .

ويهمس حبيب : « ان شاء الله . ان شاء الله يا حبيبتي »

وراح الحبيبان برسمـان طريق المستقبل القريب ويفرشانه بالزهور والورود والرياحين . غداً عندما يطل الربيع بعطوره وعبيره وشذاه سيكون عرسها . وستزحف القرية بشبانهـا وبناتها وكهولها ورجالهـا ونسائها ، ودابكيها ومطربيها وزجاليها الى دار حبيب مرزوق لأحياء ليالي العرس البهيج ..

وأقام الحبيبان ينتظران بزوغ الربيع العاطر الريان بفـارغ صبر..وأم حبيب اقامت ايضاً تنتظر ذلك اليوم الباسم الميمون، يوم عرس ابنها الحبيب .. وأطلع حبيب امه على الاتفاق المعقود بينه وبين حبيبته محـاسن فباركت ام حبيب ذلك الاتفـاق وصفقت له. كل ما تطلب ام حبيب من دنياها ان تفرح بالمحروس حبيب وأن ترقص وتزغرد يوم عرسه،وأن تشاهد احفادهـا

يدرجون في دارهـا ويبتسمون لهـا ويملأون تلك الدار بهجة وحبوراً .

وارتاحت ام حبيب للعروس المختـارة : محاسن عندهـا في مقام ابنها حبيب . فهي فتاة طاهرة مهذبـة لطيفة ، وديعة ، نبيلة ، جميلة .. كل ما في العالم من صفات حميدة هي في هـذه الفتاة الحسناء . وفوق كل ذلك هي فتاة تقيـة ورعة متدينة ، ترافق ام حبيب كل صباح احد الى الكنيسة ، وتجثو قربهـا على ركبتيهـا لتصلي بكل ورع وتقى وخشوع . وماذا تريـد ام حبيب غير هذا ؟.. هي لا تطمع في ان تقع لحبيب على عروس أفضل ..

وراحت ام حبيب تستعد ليوم العرس ، وقـد بات العرس قريباً والشتاء بدأ يتقهقر رويداً رويداً امـام مواكب الربيع العاطر الريان . الثلاثة راحوا يستعدون لذلك اليوم السعيد ، ام حبيب ، وحبيب ، ومحاسن . كل منهم يستعـد للعرس على طريقتـه الخـاصة ... ام حبيب تنصرف الى تنظيف الدار ، وطرش جدرانها بالكلس لتزيد في نصاعتها وازدهارها .. وحبيب يجمع المال ويبيع ما فاض عنه من الحنطة والخمور ليؤمن نفقات العرس ..

ومحاسن تجمع ثيابها ، وتهيء ثياب العرس ، وتحزم حقائبها تمهيداً للانتقال من دارها في بيروت الى دار الزوجيـة في القرية الباسمة الهانئة الخضراء . هي لن تعود الى تلك الدار في بنايتها في بيروت . ستترك تلك الدار لصديقتها انعام توفيق . انعـام

ستقيم وحدهــا في تلك الدار ، وهي ستشرف على ادارة اعمال محاسن في بيروت. ستتقاضى بدل الايجار من المستأجرين وتشرف على تلك البناية وتهتم بشؤونها .

وتحضر محاسن مع زوجها حبيب مرزوق مرة او مرتين كل عام الى بيروت لتجري حساباً مع انعــام وتقف على سير العمل ثم تعود مع الزوج الحبيب الى القرية ..

وغمرت السعادة القلوب الثلاثــة ، قلب ام حبيب ، وقلب حبيب وقلب محاسن وقـــد اشرف الشتاء على الافول وبدأت تباشير الربيع تطل عليهم . وكانت الثلوج قد بدأت تذوب عن سفوح الجبال ، وبدأت الغيام الدكناء تنقشع من الفضاء ، وأغصان الاشجار التي عرتها رياح الشتاء بدأت تتأهب لارتداء ثوبهـــا الاخضر الريان . وبدأت براعم الازهـــار تتحفز للانطلاق لتستقبل الربيع بعبيرها الفواح الاريج.. والمواشي التي سجنتها الامطار والثلوج في حظائرها بدأت تتأهب للانطلاق الى المروج والحقول والغابات . لقــد اقترب الربيع ، واقترب معه ذلــك اليوم السعيد الفاتن البهيج الذي ينتظره حبيب وامــه وحبيبته محاسن نصار ..

وكانت محاسن قـــد انقطعت انقطاعاً كلياً عن الاصدقاء والاحباب والمعجبين ، لا سيا عـــن ابي العز ، صاحب الملهى الكريم . وكان ابو العز يأمل ان تعود محاسن اليه ، كان ابو العز ينتظر أن يفشل مشروع الزواج . وهو لا يجهل اي وهدة عميقة الغور تفصل بـــين محاسن نصار الراقصة التي تسكر وتسهر

وتعشق وتحب وتعربد ، وبين ذلك الشاب القروي الذي يعيش في تلك القرية النائية عيش تقى وورع وعمـــل وصلاة .. كان ابو العز يأمل أن تعود اليه يوماً محاسن وتقول له «ها انا بـــين يديك يا ابا العز . لقـــد كنت مجنونة يوم سمحت لقلبي بالتمرد والعصيان » .. هذا مـــا كان ينتظر ابو العز . إلا أن حساب الحقل لم ينطبق على حساب البيدر . ومحاسن نصار خيبت امل ابي العز ولم تعد بالسلامة اليه .

وقلق ابو العز وقـــد طال بعاد حبيبته محاسن عنه . ورأى أن يتصل بها مستفسراً عن غالي سلامتها . ليس له أن يتجاهل امر محاسن ، بعد أن تجاهلت هي امره . يجب أن يعلم عنها كل شيء .. ولكن.. ولكن هل يتصل بها هاتفياً ؟.. هل يشخص بنفسه الى دارها ؟.. واخيراً هل يسأل صديقتها انعام عنها ؟.. وراقته الفكرة الاخيرة . سيسأل صديقتها انعام عنها . ويقف منها على اخبار صديقتها الوفية التي تعيش واياها في دار واحدة.. هذا هو الرأي الصائب القويم .

وأقـــام ابو العز يرقب المساء بفارغ صبر . في المساء ستحضر انعام الى عملها في الملهى وسيقف منها على كل شيء ..

وأقبل المساء .. وجاءت انعام الى الملهى فوثب ابو العز اليها ليسألها : « انعام ! كيف حال صديقتك محاسن ؟ » وارتسمت ابتسامة هازئـــة على شفتي الراقصة انعام توفيق ، وهمست : « خير ان شاء الله . منذ امـــد بعيد لم تشرفها بالسؤال عنها » قال : « اردت ان اطمئن الى سلامتها » .

فابتسمت الابتسامة الهازئة على شفتي الراقصة انعام، وهمست: « العقبى لك. محاسن ستتزوج قريباً جداً ». فوجم ابو العز . هذه البشرى التي تزفها اليه انعــام لا تسر عدواً ولا صديقاً . قال : « ألا تزال مغرمة بذاك الشاب القروي الحقير؟ » . قالت : « هي ستتزوج منه قريباً يا ابا العز . فليوفقها الله ». وسارت انعــام في سبيلها ووقف ابو العز على قلق وحيرة ووجوم .

يبدو ان الامر مهم وخطير ، وهو بحاجة الى معالجة سريعة عاجلة . هو لن يقف مكتوف اليدين حيال الكارثة . لن يدع الراقصة محاسن تفلت من يـــده « القضية فيها خراب بيوت » ايخسر محاسن الى الابد ؟ يخسر قلبها ، ويخسر جسدها ، ويخسر زبائنه الكرام المعجبين بجمالها الرائع الفتان ويخسر الوف الليرات التي تتدفق عــلى صندوقه العامر بفضلها ؟.. لا وألف لا. هو لم يبلغ بعد حـــد الجنون ليقف مكتوف اليدين حيال الكارثة الرهيبة الدهياء التي تحيط بـه وتتأهب للانقضاض على رأسه . سيحول دون هــذا الزواج مهما كلفه الامر من مشقة وجهد وعناء ..

وجلس ابو العز وراء طاولة صغيرة في زاوية من زوايا ملهاه الرحيب . ونادى اليه الخــادم ليقول له : « هات كأس ويسكي يا عبده » .. وانصرف عبــده ليحضر لمولاه الويسكي ، في حين راح ابو العز يفكر : كيف سيحول دون زواج محاسن؟.. كيف سيعمل للاحتفاظ بها ؟.. كيف ؟ كيف ؟ كيف ؟.. وكان الخادم قد جاءه بالويسكي فراح ابو العز يرشف الكأس على مهل

ويفكر .. وعزم على زيارة محاسن . مع مطلع الصباح سيكون عندها في دارها ويقف منها على كل شيء . ثم يبقى لكل حدث حديث ..

ونهض ابو العز ، وقد جرع آخر قطرة من الكأس . وشخص الى مكتبه من الملهى ليعود الى احتساء الخمر ، والى التدخين والى التفكير .. وانقضى الشطر الاكبر من الليل وأبو العز لا يزال جالساً على المقعد الوثير يدخن ويشرب ويفكر ..

وبدأ الزبائن الكرام يتسللون من الملهى، وبدأت الراقصات والمطربات يخرجن وقد اعياهن السهر والشراب . واقفر الملهى إلا من الخدم الذين راحوا يرفعون الموائد والمقاعد وينظفون الارض ، وأبو العز ما زال في جلسته الواجمة الساهمة الحيرى . وأبى أن يعود الى داره . لا ، هو لن يعود الى الدار ، وقد قارب الفجر البزوغ . سيقضي الساعات القليلة في الملهى ، ينام على « الصوفا » وينهض مع بزوغ الصباح ليشخص الى دار محاسن، ويصفي حسابه معها .

وتمدد ابو العز على المقعد الرجراج الطويل ، وحاول النوم ، الا انه لم يستطع الى النوم سبيلا . كيف تعرف عينا ابي العز طعم الكرى وحبيبته محاسن عازمة على الزواج وعلى الابتعاد عنه ؟.. سيسهر ابو العز حتى طلوع الصباح .

وسهر ، الا انه لم يستطع ان يسهر حتى مطع الصباح . فغلبه النعاس قبل الفجر بقليل واستسلم لسلطان الكرى .. ونام

ابو العز ، نام ليستفيق مع بزوغ الشمس على بيروت . ونهض ليغسل وجهه ويسرح شعره ويرتدي ثيابـــه ويخرج من الملهى ليسير الى شارع الحمراء .. ولم ينس ان يعرج على المزين في طريقـــه الى دار محـاسن ، فتزين وتعطر وأكمل مسيره على بركات الله ..

ووصل الى دار محاسن والساعة تعلن التاسعة من الصباح . لقد تأخر ابو العز .كان عليـه ان يصل قبل الساعة التـاسعة . ووقف امام الباب يقرع الجرس . وخيل اليـه ان رنين الجرس سيقطع على محاسن نومها . الا انه دهش وهو يشاهد محاسن تفتح له الباب بنفسها وقد ارتدت ثيابها الأنيقة .. ووجمت محاسن ، وهي تشاهد ابا العز امامها . وهمست بدهشة واستغراب : من؟ ابو العز ؟..

ودخل ابو العز الى الدار دون أن ينتظر من محاسن دعوته . فالدار داره والاهل اهله .. ولحقت بــه محاسن ، وهي تحسب لهذه الزيارة المفاجئة الف حساب وحساب .. وجلس ابو العز في الصالون على مقعد رجراج وثير ، وجلست محاسن على مقعد تجاهه . وتمتمت وقد استقر بها المقـــام : « خير ان شاء الله يا ابا العز ؟ ما هذه الزيارة المفاجئة في مثل هــذه الساعة المبكرة من الصباح ؟ » .

وأشعل ابو العز لفافة نفث دخانها في الفضاء ليقول : انت لم تكوني تنتظرين زيارتي يا محـاسن ؟ أليس كذلك ؟ » . قالت محاسن بكل صراحـــة : « اجل يا ابا العز . انا لم اكن لأنتظر

زيارتك ، لا سيا في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح » .

قال : « لقد اهاجني الشوق اليك يا محاسن فجئت اطفىء لهيب شوقي وحنيني » . فاشتد الوجوم بمحاسن نصار وأبو العز يحدثها عن الشوق والحنين . وهمست : « شكراً شكراً شكراً يا ابا العز » .

قال : « لماذا قطعت اخبارك عني يا محاسن . أهكذا يفعل المقدمون على الزواج فينسون اصدقاءهم ويتبرأون منهم ؟ » .

قالت : « الحقيقة هي انني مرهقة بالاعمال يا ابا العز . ليس لدي دقيقة واحدة من الوقت » . قال : « أراك قد نهضت في ساعة مبكرة من الصباح . وليس من عادتك ان تنهضي من النوم في مثل هذه الساعة يا محاسن . »

فارتسمت على شفتي محاسن ابتسامة هادئة .وهمست : « الماضي مضى يا ابا العز. محاسن اليوم هي غير محاسن الامس» .

قال : « هل ستخرجين من الدار الآن ؟ » .

قالت : « اجل يا ابا العز » .

قال : « الى اين ؟ هل انت ذاهبة اليه ؟ ». فأومأت برأسها مشيرة بالايجاب.وتمتمت : « اجل .. يجب ان اكون عنده في الساعة العاشرة » . فرمق ابو العز الساعة المشدودة الى معصمه بنظرة سريعة وهمس : « الساعة تشير الآن الى التاسعة والدقائق العشر . ما زال امامك متسع من الوقت للوصول اليه » .

قالت : « يجب ان اسير الآن لاصل الساعة العاشرة .. »

وتمتم ابو العز: « هل عزمت على الزواج منه يا محاسن؟»

وهمست : « اجل . ولن اتراجع عمـــا عزمت عليه » . فنفث صالح ابو العز دخان اللفافة في الفضاء وهمس : « وهل علم انك كنت راقصة ؟ » . فصمتت محاسن . ولم تجب بحرف ..

وعاد ابو العز الى الكلام بعد صمت قصير ليقول: «يا محاسن انت مقدمة على مغامرة خطرة . اسمعي من صديقك ابي العز ، وقفي من المغامرة عند هذا الحد . ما لك وله يا محاسن . انت لن تستطيعي العيش معه في تلك القرية النائية الموحشة البعيدة. لقد تعودت حياة البذخ والشهرة والمجد والاسراف فهل تستطيعين ان تعيشي حياة الوحدة والانكماش والانفراد ؟.. »

قالت : « لقد سئمت هـــذه الحياة التي احياها يا ابا العز ، سئمت حياة السهر والسكر والعربدة والمجون . قلت لك وأعيد القول الآن : انا اريد ان ارتاح . اريد ان اكون زوجـة مخلصة وأماً حنوناً . أريد أن أعيش كما تعيش اي امرأة شريفة . أنا سأتزوج من حبيب مرزوق يا أبا العز وسأنزوي معـه في تلك القرية الهادئة الجميلة وأعيش حياة جديدة هانئة سعيدة » .

ووقفت محاسن . كأنها تقول لأبي العز: « أنا شاخصة اليه . تفضل بالخروج » كأنها تطرده من دارهــا .. وأمسك ابو العز بيدها ليقول : « اجلسي .. اجلسي .. لي عندك حديث طويل يا محاسن » .

وأبت محــاسن أن تجلس. وهمست : « لا يا أبا العز . دع حديثك هذا لوقت آخر . لقـد تأخرت . لن استطيع البقــاء دقيقــة واحـــدة » .. فتمتم ابو العز : اسمعي يا محاسن . انني

لأنصحك بعدم لزواج . اسمعي مني ولن تخسري » .

قالت : « لقد سمعت منك ونزلت عند ارادتك السنين الطوال فاسمح لي الآن ان أخرج عن ارادتك . لقد اتخذت قراري ولن اعود عنه » ..

وأدرك ابو العز انه عاجز عن ردعها وعن العودة بها اليه ، فوقف ليقول : « ستندمين يا محاسن ، وأرجو ان يكون ندمك قبل فوات الاوان » .

فمدت يدها تصافحه مودعة وهي تقول : « اطمئن . لن اندم .. مع السلامة يا أبا العز . ادع لي بالتوفيق ». وصافحها . وسار دون ان يدعو لها بالتوفيق . ودون ان يلبس بحرف سار ابو العز وهو يفكر : عليه ان يرسم الخطة وأن ينفذها بحذر وسرعة واتقان . وخرجت محاسن بعد قليل لتستقل سيارتها وتطير بها الى حبيب القلب والروح ..

١٨
وعلى الحب السلام

ام حبيب منصرفة الى تهيئة قهوة الصباح . فالساعة اشرفت على الثامنة من الصباح وهي لم تهيء القهوة للمحروس حبيب ...

واذا بالباب يقرع .. واسرعت ام حبيب الى الباب تفتحه لتجد امامها رجلاً في مطلع العقد الخامس ، اي في زهاء الخامسة والاربعين من العمر ، يحمل حقيبة جلدية صغيرة . وهمس الرجل : « صباح الخير » وتمتمت ام حبيب : « صباح الخير يا ابني . تفضل » قال الرجل : « اكون في دار السيد حبيب مرزوق ؟ » قالت « وصلت .. امر ؟ » قال: « ايكون السيد حبيب هنا ؟ » قالت : « ادخل . تفضل يا ابني ماذا تريد منه ؟ » قال : « انا صديقه » .

فافسحت له مجال الدخول الى الدار وهي تتمتم : « تفضل ، تفضل . اهلا وسهلا . اهلا وسهلا » ودخل الرجل الى الدار القروية الصغيرة . ودعته ام حبيب الى الجلوس ، فجلس على الديوان الخشبي وراح يستعرض اثاث الدار ومقاعدها وهو يضحك ، وهمس في سره : « اهذه هي الدار التي ستعيش فيها محاسن ؟ ..

يا تعتيرك يا محاسن على هالآخرة » .

وانصرفت أم حبيب لتــدعو الخروس قائلة : « حبيب ! . في الدار رجل يقول انه صديقك.تعال يا ابني ».وجاء حبيب.. وما ان شاهد الرجل حتى وثب اليه يصافحه بحرارة . هذا هو ابن عم والدة محاسن . لقد شاهده عندها في الدّار ليلة عيد رأس السنة . اسمه ؟ اسمه . صالح .. صالح ابو العز .. وهمس حبيب مرزوق وهو يصافح ابا العز: « اهلاً، اهلاً وسهلاً بالسيد صالح. لقد شرفتنا بزيارتك يا سيدي » .

ومـــد ابو العز يده يصافح حبيباً متمتماً : « لقد وعدتك بزيارة ايها السيد حبيب وهــا انا ابر بوعدي الا انني ابكرت في الحضور . كنت هنا في القرية المجاورة في زيارة احد الاصدقاء. ورأيت ان امر بك وأقوم بزيارتك » .فعاد حبيب الى التمتمة : « اهلا وسهلا . اهلا وسهلا . تفضل تفضل » .. وجلس ابو العز وهـــو يحتضن بحــذر الحقيبة الجلدية الصغيرة . وجلس حبيب قربه .. ودار الحديث بينهما كما تدور الاحاديث بين الاصدقاء ، « كيف الحال ؟ كيف الصحة ؟ كيف الاعمال ؟ » ، ولم تلبث أن أطلت أم حبيب حاملة لهما القهوة ..

ووقف حبيب يقدم الضيف الكريم لوالدتــه : « حضرته السيد صالح ابو العز ابن عـــم والدة محاسن يا أمي » ، ومدت العجوز يدهــا المرتجفة الباردة تصافح « ابن عم والدة محاسن » هامسة : « أهلاً وسهلاً . أهلاً وسهلاً » .. وقدمت له القهوة ، وجلست قربــه ترشف القهوة .. ورشف حبيب القهوة وساد

الصمت برهة بينهم .

وأخيراً قطع ابو العز حبل الصمت ليقول : « كيف حال محاسن ايها السيد حبيب ؟ » ، فتمتم حبيب : « هي بخير والحمد لله » . قال أبو العز : « انا لم أشاهدها منذ تلك السهرة العامرة. ولكنني أتنسم أخبارها من الاصدقاء والاقارب . لقد علمت أنكما عزمتما على الزواج؟ فمتى ستتم فرحتنا بكما ؟». قال حبيب: « بعد أسابيع قليلة ايها السيد صالح . بعد ان ينشر الربيع وشاحه الاخضر الريان على هذه الربوع . وستشرفنا وتشاركنا فرحة العرس ايها السيد صالح » . قال ابو العز : « بكل تأكيد ايها السيد حبيب » . قال ابو العز هذا ثم رشف القهوة ، ومج اللفافة ونفث الدخان في الفضاء وهمس :« ان نسيبتي محاسن من خيرة النساء . ستسعد في قربها يا حبيب . هي تحبك . انا اعلم انها تحبك وتتفانى في حبك . ولو لم تكن تهيم بك هياماً شديداً لما ضحت بشهرتها وبفنها من اجلك » .

فوجم حبيب مرزوق ، ودهشت أمه . ماذا يقول هذا الرجل ؟ ما هي هذه الشهرة التي ضحت بها محاسن ؟ وما هو ذاك الفن ؟. وشاهد ابو العز الدهشة والوجوم يرتسمان في العيون الاربع ، في عيني حبيب وفي عيني امه فتابع كلامه ليقول : « ان محاسن راقصة عالمية لها شهرتها في عالم الفن » . وتحول الوجوم في عيني حبيب مرزوق الى ذعر ... وجحظت عينا الأم العجوز ..

وفتح ابو العز الحقيبة الجلدية وأخرج منها بعض المجلات

الفنية وبعض الصور والاعلانات ليلقي بهـا امام حبيب قائلا : « انظر .. انظر صورها يا حبيب في بدلة الرقص .. واقرأ .. اقرأ ماذا تكتب المجلات والصحف عنها .. اقرأ .. ماذا تقول هذه المجلة : « الراقصة العالمية محاسن نصار » .. ونظر حبيب مرزوق وشاهد .. ماذا نظر ؟ وماذا شاهد ؟ لقد شاهد محاسن وهي شبه عارية . ذراعـــاها العاريتان مرفوعتان في الفضاء . وصدرها العاري يتلألأ تحت عقد ثمين . وفخذاهـــا العاريان – ايضاً – يعرضان جمالها لكل ناظر غريب او قريب، وجسدها يبرز من تحت ذلك الثوب الشفاف المفضوح ..

واشتد الذعر بحبيب مرزوق وهو يشاهـــد تلك الصور . ووجمت امه . هل يمكن هذا ؟ محاسن؟ الفتاة الطاهرة البريئة، المهذبة ، الورعــة راقصة ؟.. وهذه الصور المنشورة صورهــا بين يدي ابنها ؟ مستحيل مستحيل مستحيل ..

وعاد ابو العز الى الكلام ليقول . « هل آمنت الآن بأن محاسن تتفانى في حبك يا حبيب ؟.. هل صدقت كلامي . لقـد ضحت بكل شيء من اجلك » .. ولم يجب حبيب مرزوق . لم يستطع أن يجيب بحرف. لم يستطع أن يفوه بكلمة . كان ينتفض كأنه عصفور ذبيح ، كان يرتعش كأنه ورقـــة في مهب الرياح العاصفة الهوجاء اما امه فكانت تستعرض تلك الصور والدموع تترقرق في عينيها . هي لا تصدق ان هــذه الصور العارية هي صور محاسن المحتشمة الورعة التقية المهذبة الوقور . لا تصدق . لا تصدق ..

ونهض ابو العز .. لقـد انتهت مهمته . لقـد ادى رسالته بكل امانة وصدق واخلاص ، فليعد ادراجه .. وتمتم ابو العز وهو يمد يده ليصافح حبيباً وامه : « الى اللقاء . ارجو لـك يا حبيب ولنسيبتي محاسن كل سعادة وتوفيق وهناء » .وبيـد مرتجفة صافح حبيب مرزوق ابا العز دون ان يفوه بكلمة .

وخرج ابو العز .. عليه أن يسرع بالرحيل قبـل أن تطل محاسن . من المؤكد ان محاسن في طريقها الآن الى القرية ، عليه أن يعود ادراجه ويتوارى قبل وصولها.وسار ، سار في الطريق الضيق المحفوف بالاغصان الوارفة .. واذا به امام محاسن .كانت محاسن مقبلة من بعيد . لقـد ابكرت محاسن نصار في الحضور اليوم على غير عادتها . فكأن قلبها كان ينذرها بوقوع الكارثة المفجعة .. وشاهدت محاسن ابا العز مـن بعيد فارتعدت ، وارتعشت ، وذعرت : ماذا جاء يفعل ابو العز هنا ؟ اتراه جاء ليهدم سعادتها وينثر امالها واحلامها هباء في الفضاء ..

وجدّت في المسير ، واسرعت في الطريق الضيق الطويل . واصطكت ركبتاها وهي تعدو ، ووهنت عزائمهـا .واخذت ترتجف .. واقتربت من ابي العز . وتمتمت وقـد وصلت اليه : « ماذا جئت تفعل هنا ؟ » وبكل هزء.وسخرية تمتم ابو العز : « جئت ازور نسيبي، عريسك يا نسيبتي الحبيبة » وصرخت به: « ماذا فعلت يا مجرم ؟ ماذا فعلت ؟ » ولم يفه ابو العز بحرف ، بـل هو تابع سيره بكل هناء واطمئنان .. وهرولت محاسن مسرعـة الى دار حبيبها .. ووصلت الى الدار ، واقتحمت

الباب .. ودخلت .. وكان حبيب واقفاً والدموع تجول في عينيه. وكانت امه جالسة وهي مقطبة الحاجبين عابسة الوجه دامعة العين .. ووقفت محاسن امام حبيب كما يقف المحكوم بالاعدام امام جلاده ..

وكانت محاسن ترتجف كأنها ريشة في مهب الهواء. كان كل عضو من اعضائها يرتجف. وجهها، يداها، قدماها، شفتاها، عيناها ..

وساد الصمت ارجاء الدار. لم يستطع احد منهم أن ينطق بحرف .. ورمقت محاسن الصور والمجلات المبعثرة على الديوان وفي الارض .. وادركت كل شيء .. ابو العز حمل صورها العارية وعرضها على حبيب واطلعه على كل شيء .. وطال وقوفها امام حبيب دون ان تستطع التفوه بحرف. وطال وقوف حبيب امامها .. واخيراً هم حبيب بالمسير، هم بالخروج من الدار دون ان يلتفت اليها .. ووثبت اليه. واعترضت سبيله واستطاعت بعد جهد ان تتكلم وهي تبكي. وقالت: «حبيب ارحمني يا حبيب. اغفر لي جريمتي اليك. سامحني يا حبيب» ..

ولم يلتفت حبيب اليها. وعاد يهم بالمسير فما كان منها إلا أنها جثت على قدميه وتمسكت برجليه واخذت تولول: «حبيب !.. حبيب !.. حبيب ! لا تتركني يا حبيب. لا تهجرني. لا تبعد عني. دعني اعيش خادمة عندك. دعني امسح حذاءك وانظف دارك واغسل ثيابك .. ارحمني يا حبيب ارحمني. ارجوك. ارجوك يا حبيب لا تفجعني بقلبي وتقضي

عليّ .. حبيب .. حبيب ...

ولم يلتفت حبيب اليها بل هو انتزع قدميه من بين ذراعيها وسار .. وخرج من الدار لا يلوي على شيء .. وانطرحت محاسن على الارض تقبل موطأ قدمي حبيب وتغسله بدموعها.. ونهضت ام حبيب لتقترب منها فترفعها عن الارض هامسة : « انهضي يا ابنتي .. انهضي .. » ونهضت وهي تبكي.وهمست ام حبيب وهي تدعوها الى الانصراف : «مع السلامة يا ابنتي.ليس لك مكان فيهذه الدار.. مع السلامة يا محاسن. مع السلامة ».. وسارت محاسن .. وخرجت من تلك الدار الهانئة التي شاهدت فيها اجمل ايام حياتها.. وشخصت الى سيارتها بقدمين واهبتين. وهي تجهش بالبكاء كالاطفال .

١٩
ذكريات

حبيب مرزوق يقيم على ألم وحزن وشجن وأسى ودموع ..

فالكارثة النازلة به هادمة عاصفة هوجاء . والاحداث التي مرت به هدت قواه وأسالت دموعـــه وأذابت فؤاده الهائم الولوع ..

وبكى حبيب .. بكى بدموع قانية حمراء ، وقد وقف على الحقيقة الراهنة . وطفر حبيب مرزوق الى البراري والقفار والاحراج ليذرف كل ما في مقلتيه من دموع . فهو يريد ان يبكي دون ان يبيح لأحد مشاهدة دموعه . لا ، حبيب مرزوق لا يريد ان يشاهد دموعه احد . هذه الدموع المقدسة لا تباح ، وحبيب يأبى ان يسكب الدموع على مرأى من ابنـاء القرية وبناتها . هو لن يبكي امـام الاهل والاصدقاء والدموع لم تخلق إلا للنساء ..

وكان حبيب مرزوق يجلس في تلك الاماكن الهادئة الساكنة التي كان يجلس فيهـا قرب محاسن ، ويحدق بتلك الصخور التي كانت محاسن تجلس فوقهـا ، ومن خلال دموعه المترقرقة في

مقلتيه يشاهد محاسن ، يشاهدها بعين الخيـال جالسة على تلك الصخور تبلسم له وتسكب في اذنيـه كلمات الحب والهوى والغرام .. وتطفر الدموع المترقرقة في عينيـه لتنسكب غزيرة على وجنتيه ، ويطول تحديقه بطيف محاسن المتايل أمام بصيرته، ويهمس ، وهو لا يدرك ولا يعي ولا يحس : « محاسن ! .. ماذا فعلت بي يا محاسن؟ لماذا خدعتني يا محاسن ؟ لماذا كذبت علي؟»

ويستفيق فجأة . ويعود الى رشده، ويمسح دموعه وينهض هامساً في سره : « مـا بي ؟ أأكون قد فقدت عقلي ؟ أيكون الجنون قد عرف طريقه الى رأسي ؟ » . ويسير ، يسير ليطوف تلك الغابات والاحراج والكروم والبساتين والحقول الـتي كان يسير فيها مع محاسن ، وأينما سار ، وأينما اتجه ، يشاهد طيف محاسن أمام عينيه . ويتألم حبيب ويشقى ، ويتعذب ، ويعود الى البكاء .. كان حبيب مرزوق في حال تفتت الأكباد . كان يقضي نهاره في الذكريات وفي البكاء ، ويقضي ليله ساهراً يدخن ويفكر ويبكي ..

ولم يكن ليصدق ان تلك الاحداث التي مرت به قد مرت به . لم يكن ليصدق ان محاسن راقصة تعرض جسدها العاري كل ليلة من فوق المسارح على العيون النهمة الجائعـة العطشى .. هل يمكن هذا ؟ محاسن، الفتاة المهذبة الورعة التقية الخجول، راقصة ؟. لا ، مستحيل . مستحيل . هذا وهم يسيطر عليه ، هو جنون . لقد فقد عقله ..

ويهيم حبيب في الخيال، ويحاول ان يقنع نفسه بأنه مجنون.

الجنون لديه افضل من الاعتراف بالحقيقة . الجنون أهون عنده من الاقرار بأن محاسن راقصة . لا.محاسن ليست راقصة .. ويحـاول حبيب كشف السر العميق فيضيع : إنه لا يفقه شيئاً ولا يعي شيئا . ويهمس في سره .. محاسن ليست راقصة ، انها ابنة تاجر كبير ، وهي تعيش مع ابنة خالها .. لا . لا . وألف لا . محاسن لا تبيح للعيون النظر الى جسدها العاري . هي لا ترقص ولا تسهر ، ولا تسكر ولكن .. الصور والمجلات والصحف التي حملها لي صالح ابو العز ؟ ماذا تعني ؟».

ويعود الى الانغماس في التفكير العميق المدى ، البعيد القرار .. ويهمس في سره مجدداً : « ألا يجوز ان يكون صالح ابو العز مراوغاً مخادعاً منافقـاً شريراً ؟. ألا يجوز ان يكون قد وقع على راقصة شبيهة بمحاسن.فحمل صورهـا اليه ليوهمني انها محاسن نفسها ؟ صحيح .. كل شيء يجوز » ..

ولكن .. « وتعود كلمة — ولكن .. — الى التردد في نفس حبيب لتلسعه بسوطهـا القاسي الرهيب .. ولكن . ولكن بـكاء محاسن وجثوها على قدميه وبكاءهـا واستعطافهـا واسترحامها .. ماذا يعني كل هذا ؟.. ألا يعني انها مذنبة، وأنها مخادعة كاذبـة منافقة مجرمة ؟ ألا يعني انها خدعته ، وأنهـا عبثت بقلبه وغدرت به ؟. ألا يعني انها اوهمته بأنها فتاة طاهرة شريفة ومـا هي سوى راقصة تعرض جسدهـا العاري على السكارى وعلى المعربدين المقامرين الفاسقين ؟. أجل . أجـل . هذه هي الحقيقة الناصعة البياض . فلماذا يكابر ؟ ولماذا يعاند ؟

ولماذا يحاول ان يقنع نفسه بما هو بعيد كل البعد عن الواقع المشهود ؟

ويعود حبيب مرزوق الى البكاء والى العذاب . ويهمس في سره وهو يمسح دموعه : « ليتني لم اتعرف اليها .. » ويحاول حبيب ان ينسى محاسن ، يحاول أن ينسى تلك الايام الهانئة الباسمة الجميلة التي عاشها قرب محاسن ، يحاول أن ينتزع همساتها الشجية من اذنيه وصورتها من عينيه ، يحاول أن يبعد طيفها عن وسادته فيعجز ، فكأن حبها اقوى منه ، كأن همساتها الخافتة الحلوة تحولت في اذنيه الى قصف ورعد ، كأن صورتها لاصقة في حدقتي عينيه ، كأن طيفها مارد جبار لا تستطيع قوة أن تزعزعه وتزيحه عن وسادته المبللة بالدموع ..

ويضيع حبيب في آهاته ولوعاته وأنينه ودموعه. ويتمنى لو ان الموت يخمد انفاسه ويريحه من هذه الحياة المرة القاسية السوداء ، يتمنى لو ان القدر يخمد شعلة الحياة في جسده ، ليخمد معها نار الحب المندلعة في روحه . يتمنى لو ان الايام توقف نبضات هذا القلب الخافق المعذب الولوع ليتخلص منه ومن سعيره وشوقه وحنينه .. يتمنى حبيب مرزوق كل هذا الا انه لم يكن لينال ما يصبو اليه وما يتمنى . فالحب ، حب محاسن ، لم يكن الا ليزيد اضطراماً في حنايا فؤاده . وطيفها لم يكن لينأى عن وسادته طيلة الليل .فهي في قلبه وروحه وعقله ونور عينيه. كلما حاول ابعاد طيفها عنه ازداد ذلك الطيف اقتراباً منه ، وكلما حاول اخماد نار الحب في قلبه ازدادت تلك النار اندلاعاً وسعيراً .

وساءت صحة حبيب مرزوق، ولزم الصمت، فلم يكن يفوه بكلمة . وقد كان بالامس القريب حلو الحديث سريع الخاطر، مرن اللسان . وانقطع عن العمل ، فهو لم يعـد يستطيع تقليم اغصان الاشجار ، وحراثـة الارض والاعتناء بالكرم والحقل والبستان . فكان اذا ما شخص الى البستان شاهد محاسن في كل شجرة من اشجاره وفي كل غصن من تلك الاشجار . واذا مـا سار الى الحقل تراءت له محاسن في كل ذرة من ذرات تراب ذلك الحقل . واذا مـا ذهب الى الكرم راى محاسن في كل دالية من تلك الدوالي المترامية في ذلك الكرم الفسيح الارجاء ..

ويعود الى الدار ليجدها هناك ، جالسة في كل زاوية مـن زوايا تلك الدار . ويغمض عينيه ليبعدها عنه فاذا بها في اغماضة عينيه ..وأيقن حبيب انه لن يستطيع الهرب منها الا الى القبر . اتراه يجـدها هناك بين حنايا الضريح المظلمة السوداء اذا ثوى في الضريح ؟ .

وكان الالم الشديد يعصف بفؤاده كلما فكر بهـا ، وكانت الذكريات المؤلمة الرهيبة تعذبه عذاباً مبرحاً شديداً ولذلك فقد كان يريد أن يتخلص من حياته ليتخلص من عذابه . إلا أنه لم يستطع لا أن يتخلص من حياته ولا أن يتخلص من عذابه ..

وفكر حبيب مرزوق بالانتحار .. الانتحـار ؟.. اجـل . الانتحار . يشرب السم او يطلق رصاصة واحـدة على رأسه او يرمي بنفسه من قمـة الجبل العالية الى اسفل الوادي فيصل الى الوادي السحيق جثة مهشمة لا حياة فيهـا ولا روح .. و... و..

وينتهي كل شيء ...

وخيل اليه انه توصل الى حل للمعضلة .. ينتحر وينتهي كل شيء .. ينتهي كل شيء ؟.. من قال له ان كل شيء ينتهي عند باب القبر ؟.. من قال له ان حياة الانسان تنتهي بالموت ؟ من قال له ان عمر الانسان ينتهي عند انفصال الروح عن الجسد؟.. اجل ، من قال له كل هـــذا ؟.. ألم يعلّمه الدين ان هناك حياة ابدية لا نهاية ولا حدود لها ؟.. ألا يؤمن بخلود الروح وبعذابها وبنعيمها بعد الموت ؟.. هل ينتهي الانسان بالموت ؟.. هـــل يرتاح وقد همدت فيه وانطفأت تلك الشعلة التي يسمونها الحياة؟.. والجحيم ؟.. والنعيم ؟.. والدينونـة ؟.. والعقاب ؟ والثواب ؟ كل هذه الامور والاسرار الهائلة الغامضة الرهيبة هل يتناساها ويغفل عنها ..

ثم ، ثم أليس الانتحار جريمـة يعاقب عليها الله في الآخرة عقاباً هائلاً شديداً ؟ وهل هناك عذاب في الحياة يضاهي عذاب الجحيم ؟.. فكيف يشتري عذاب الآخرة الرهيب الخالد بعذاب الارض التافـه الفاني ؟.. ان المؤمن لا يفكر بالانتحار . وهو يعـلم يقيناً ان ليس للانسان ان يطفىء الشعلة التي اشعلها الله ، ولا أن يخمد النفس الذي أهبته يد الرب العلي العظيم ..

وخاف حبيب مرزوق وارتعد ، وقـد وصل بتفكيره الى هـذا الحد . وهمس في سره : يا رب ، يا اله السماوات والارض اغفر لي خطيئة تفكيري. عفوك عني يا اله السماوات والارض..

ورأى حبيب مرزوق أن يستسلم لمشيئته تعالى . هذا كل ما

يستطيع الانسان أن يفعل على هذه الارض الفانية . الاستسلام لمشيئته تعـالى عز وجل : لتكن مشيئتك يا رب .. واستسلم حبيب لمشيئة الله.. ومضت الايام به ثقيلة رهيبة مخيفة. فالآلام تزداد اضطراماً في قلبه ، والذكريات تزداد اندلاعاً في رأسه ، والألم يزداد عبثاً على جسده الواهي النحيل

وشعر حبيب بالعياء يعصف في جسده. لقد بدأ ذلك الجسد الندي الشباب ينوء تحت عبء الالم وثقل الذكريات ، ولم يأبه حبيب للعياء الشديد العاصف به . لا ، لم يأبه ولم يهتم له . ماذا سيحصل ؟.. ماذا سيكون اذا اشتد به العياء ؟.. سيموت ؟.. حسناً . الموت بات حبيباً الى قلب حبيب ..

إلا أن تفكير ام حبيب كان يختلف عن تفكير حبيب . فقد خافت الام وذعرت وقلقت شديد القلق ، وهي تشاهد ابنها يذوب في ألمه كما تذوب الشمعة في نورها الواهي الضئيل . ولم تبحث ام حبيب عن السبب ، فهي تعلم السبب ، تعلم أي عذاب رهيب مخيف يعصف بابنها ، وتعلم وتدرك هول الكارثة الهادمة الكاسحة النازلة بحبيب. لقد صُدم حبيب بقلبه ، فُجع بحبه فعجز ذلك الجسد عن الصمود في وجه الصدم وعن احتمال الفاجعة .

وخشيت العجوز أن تخسر ابنها ، خشيت أن تفقد وحيدها ورأت أن تعمل لدرء الخطر المحيط بحبيب فوثبت اليه ذات صباح لتقول : « حبيب !.. انا لم اعد استطيع القيام بواجباتي المنزلية . امك يا حبيب لم تعد قادرة على تنظيف الدار ولا على

غسل الصحون والثياب ولا على طهو الطعام . لقد اصبحت امك بحاجة الى مساعدة للقيام بأعباء الدار يا ابني » .

فتجاهل حبيب مرزوق ما ترمي اليه امه.وهمس: « سأبحث الك عن خادمة تساعدك في اعمالك يا امي » وتمتمت الام : « لا يا ابني لقد قضيت عمري في القيام بأعمال هذه الدار دون ان استعين بخادمة انا لن ارضى بأن استعين بخادمة » .

قال : « انت الآن غيرك بالامس يا امي. لن تستطيعي القيام بالعبء الثقيل وحدك . يجب ان تستعيني بخادمة » . قالت : « انا لن أستطيع القيام بالعبء . هذا صحيح ولكن الاستعانة بالخادمة امر لن اوافق عليه » .

وصمت حبيب . وهو لا يجهل ماذا تريد امه .. وعادت الأم الى الكلام بعد صمت قصير لتقول : « ابداً . انا لن ارضى بالخادمة. اذا كان لا بد من مساعدة،فلن تمد لي يد هذه المساعدة إلا زوجتك » . وهمس : « لا يا امي. ابنك لن يتزوج ، سيظل العمر كله هكذا بدون زواج ، بعيداً عن النساء وعن همومهن ومصائبهن وكوارثهن » .

فأجفلت ام حبيب . وضربت صدرها بكفها لتقول : « تقبر امك يا ابني . أتريدني أن اموت دون ان افرح بك ودون ان اشاهد احفادي يدرجون في هذا الدار ؟

قال : « لقد اتخذت قراري ولن اعود عنه. أنا لن أتزوج».

فتقدمت ام حبيب من ابنها لتقول : « يا ابني يا حبيب ، اذا كنت ما زلت تنتظر عودة محاسن اليك فان انتظارك



سيطول .. سيطول انتظارك العمر كله يا ابني . محاسن لن تعود اليك . لقد قضت أياماً هانئة معك ، كما قضت مثل تلك الايام مع غيرك قبل أن تتعرف اليك ، وكما تقضي الآن اياماً هانئة مع سواك » .

فانتفض خبيب وأمه تبدي رأيها الصريح بالراقصة محاسن ، وأدرك انه لن يستطيع الدفاع عنها . امه على حق ، وهو نفسه من رأي امه ، الا أنه أبى أن يسمع الاهانة تنزل بمحاسن

فهمس : « ما لنا ولها يا امي . أنا لم أعد أفكر بها . ولا أنتظر عودتها اليّ كما تتوهمين » .

قالت : « ولماذا لا تريد الزواج اذن ؟.. »

قال : « لقد قلت لك. أنا اتخذت قراري ولن أعود عنه» .

قالت : « حبيب !.. المصائب كثيرة في هذه الحياة يا ابني، وليس لنا ان ننقم على الحياة كلما دهمتنا كارثة . ان الاقدار تضربنا بكارثة بيمناها لتتلقانا وتنتشلنا من تلك الكارثة التي ضربتنا بها بيسرها . لا تيأس يا ابني . تشجع يا حبيب ، وانظر الى الحياة بعين الامل والجرأة والشجاعة » .

ولم يجب حبيب ، بل هو مضى في صمته الموجع الحزين ، وعادت الام الى الكلام لتقول : « حبيب . الفتيات اللواتي يتمنين الزواج منك في هذه القرية كثيرات . فهناك جميلة ابنة المختار ، وهناك حنان ابنة خالتك ، وهناك نجيبة ابنة المعلم نصور ، وهناك جارتنا بسمة ، وهناك سميرة ابنة عبدالله مسعود . ما لك الا ان تختار احداهن يا حبيب » .

وعاد حبيب الى التمتمة : « لن أتزوج . لن أتزوج». وعادت الام الى محاولة الاقناع قالت : « يجب ان تنسى هذه الراقصة يا حبيب . احمد الله يا ابني وأشكره لانك وقفت على حقيقتها قبل الزواج . وماذا كنت ستفعل لو انك وقفت على هذه الحقيقة بعد الزواج ؟.. لقد أنقذك الله من كارثة كبرى يا ابني. فالشكر والحمد له تعالى » .

ولم يجب حبيب بحرف ، بل هو هم بالمسير فما كان من امه

إلا ان أمسكت بيده تحول بينه وبين المسير لتقول : « عليك ان تختار عروسك الآن . وانا سأشخص الى والديها وأطلب يدها ». فارتسمت على شفتي حبيب ابتسامة واهية صفراء مثل شمس الخريف .

وهمس : « اتركي لي مجال التفكير يا أمي . انا الآن ، لا اريد الزواج قد استطيع ان اغير رأيي يوماً » . قال حبيب هذا ليتقي إلحاح امه واصرارها ، إلا انه كان على يقين من انه لن يغير رأيه ، ولن يتراجع عما عزم عليه . هو لن يتزوج . لن يقع في الشرك مرة ثانية . لن يفكر بفتاة ، لن يركن لامرأة .. هكذا سيعيش العمر كله بعيداً عن النساء وعن الزواج ، وعن الهم والألم والعذاب . هو سيعمل جاهداً الآن للتخلص من ذكرياته ، ومن دموعه وشجونه وآلامه . سيعمل على تضميد ومعالجة جراح قلبه وروحه ولن يسعى لنبش تلك الجراح ولا لإثخان القلب والروح بجراح جديدة ، فجراحه القديمة لا تزال تنزف دماً حتى الآن ..

وسار حبيب مرزوق، وخرج من الدار ليشخص، كعادته، الى الاحراج والحقول والكروم والبساتين ولينصرف ، كعادته ايضاً الى التفكير بحبيبته محاسن ، والدموع تغمر مقلتيه والجراح تؤلم روحه وتعبث بحنايا قلبه الهائم الولوع .

٢٠
العاشق التائه

لم يستطع حبيب مرزوق ان ينسى حبيبته محاسن نصار ، لم يستطع أن يطرد حبها من قلبه ، ولا هو استطاع ان يبعد طيفها عن وسادته ، ولا استطاع ان يتخلص من ذكرياته المؤلمة الرهيبة الدامية ..

هزل جسده ، وساءت صحته ، ووهنت قواه ، واشتد الذعر بأمه وهي تشاهده في ذبوله ونحوله وغيابه ووهنه وهزاله .. وخشيت الأم العجوز ان تفقد وحيدها ، خشيت ان يفتك الالم به وان يقعد به المرض عن كل حركة وعمل ..

وراحت ام حبيب تبحث عن الدواء . الدواء الشافي الذي يستطيع ان يعيد لابنها الصحة والعافية والنشاط .. وأم حبيب كانت تعرف الداء ، بقي ان تصف الدواء .. الداء هو ابعاد محاسن عنه .. والدواء ؟.. ما هو الدواء ؟.. الدواء معروف اما ان يتزوج حبيب من فتاة مخلصة وفية جميلة تستطيع ان تنسيه محاسن وحبها . واما ؟. واما ماذا ؟.. واما ان تعود محاسن اليه ..

وروجمت ام حبيب وقد وصلت بتفكيرها الى هذا الحد ..
تعود محاسن اليه ؟ هل يمكن هذا ؟.. لا . لا . مستحيل .
محاسن نصار راقصة ، أيتزوج حبيب من راقصة؟. مستحيل.
مستحيل ، والف مستحيل . هذا لن يكون . ليس لراقصة ان
تكون زوجة لحبيب ، ليس لراقصة ان تحتل دارها على الرحب
والسعة . ان الله تعالى لن يرضى عن هذا الحـل . ولكن عودة
محاسن تنقذ حبيباً . من المؤكد ان حبيباً سيشفى ان تخلص
من شوقه وحنينه وذكرياته . عليها اذن ان تختار اما ان تعود
محاسن ، واما ان تفقد حبيباً ..

وذعرت الام العجوز وقد وصلت بتفكيرها الى هذا الحد..
هل تفقد ابنها ؟ اجل . اجل ، كل ما هناك يشير الى ان حبيباً
يسرع الخطو في الطريق المظلم الموحش الرهيب .. لا. لا. هي
لن تفقد حبيباً ، وحبيب لديها الدنيا بأسرها . كل شيء يهون
لديها شرط ان يظل ابنها امام عينيها . اذا كانت عودة محاسن
تشفيه ، فلتعد محاسن وأهلاً وسهلاً بها ..

ولكن، ولكن لماذا لا تعود الى محاولة اقناع حبيب بالزواج
من احدى بنات القرية ؟ اذا تكللت مساعيها بالنجاح تكون
المعضلة قد حلت ، واذا لم تكلل تلك المساعي بالنجاح المأمول
ستعتمد الحل الثاني ، تسعى لاعادة محاسن الى حبيب .

واطمأنت ام حبيب بعض الاطمئنان ، وشخصت الى ابنها
والابتسامة تشع على شفتيها لتقول: « على ماذا عولت يا حبيب
يا ابني ؟ هل شاورت عقلك ؟ لقد تركت لك مجال التفكير كما

طلبت . هل فكرت بالامر ؟ وهل استطعت ان تختار الفتاة التي ستشاركك الحياة يا حبيب ؟ »

وعادت الابتسامة الواهية الصفراء تلمع على شفتي حبيب مرزوق الذابلتين ، وهمس : « لا يا امي . لا ، انا لا ازال عند رأيي . لن اتزوج » .

فأمسكت ام حبيب بيد ابنها الباردة لتقول : « يا ابني يا حبيب . اذا كنت لا تزال تحب محاسن ، فلا بأس من أن تتزوج منها » .

فوجم حبيب مرزوق . ماذا تقول امه ؟.. هل جنت ؟.. هل فقدت عقلها ؟ أيتزوج من راقصة ؟.. لا ، لا ، وألف لا . وعادت الأم الى الكلام لتقول : « يا ابني يا حبيب انا لا اخفيك انني كنت احب محاسن كما تحب الأم ابنتها ، وقد لاح لي انها فتاة مهذبة تقية ورعة . يمكنك يا حبيبي يا ابني ان تغمض عينيك عن الماضي ، وأن تجوز عن هفوتها في اخفاء حقيقتها عنك وأن تتزوج منها وتعيش وإياها عيش الازواج السعداء » .

وتجهم وجه حبيب ، وقطب حاجبيه وظهر الغضب جلياً في عينيه وتمتم : « لا اريد ان اسمع باسمها . لا تذكري هذا الاسم امامي يا امي مرة ثانية » . فجلست ام حبيب قرب ابنها لتقول : « انت لا تزال تحبها يا ابني . حبها سيقتلك يا حبيب . ليس لك الا ان تتزوج منها لتتخلص من عذابك » . قال باصرار : « لا . لا . انا لن اعود اليها ولن اسمح لها بأن تطأ عتبة هذه الدار » . قالت : « اذن اختر فتاة من بنات القرية

وتزوج منهـا » . فنهض ليقول : « لا . لا انا لن اتزوج ، لا من محاسن ولا من غير محاسن لا اريد ان اتزوج لا اريد » .

واشتد الغضب به .. وسار ، وخرج من الدار لا يلوي على شيء فكأنه يريـد ان يهرب من اسم محاسن ، هـذا الاسم الذي يخدش اذنيه ويعذبه ويبعث في صدره الذكريات المؤلمة الرهيبة.. ولجـأ الى الغابة الكثيفة الخضراء . هو يريد ان يخلو بنفسه وان ينفرد بذاته ، وأن يفكر ويحن ويبكي ..

وسار بقدمين واهيتين الى الغابـة .. ووصل ، وجلس فوق تلك الصخرة الوادعة التي كانت تجلس عليها محـــاسن .. وشعر بحنين بعيد اليهـــا ، شعر بأنفاسها تهب حوله مع النسيم العليل ، وتراءت له كعادتها بعين الخيال ، فشاهدها تبتسم تلك الابتسامة الصافية البيضاء ، وكاد يسمع كلماتها تنسكب في اذنيه على رقة وعطف وشوق وحنين .. وبـــدأت الدموع تنساب من عينيه لتنحـــدر غزيرة على وجنتيه ، وهمس في سره وهـــو يبكي : محاسن ! .. لماذا فعلت بي هكذا يا محاسن ؟ .

وراح يفكر .. مـاذا عليه ان يفعل الآن ؟ لقد حاول ان ان ينسى محـاسن وان ينسى حبها فعجز ، هـو لن يستطيع ان ينسى ، لن يستطيع ان يبتعد عن تلك الذكريات المؤلمـة الهائلة المخيفة . هو ما زال يحبها .. يحبها ؟ .. لا ..

وانتفض حبيب مرزوق ، وعـــاد الغضب يطل من عينيه وهمس : « لا . لا . لا انا لا احبها . ليس لمثلها طريق الى قلبي » . ولكن ما معنى هذا الألم الدفين الجاثم في قلبه ؟ .. ما معنى هذا

الحنين الرابض على روحه ؟ مـا معنى هـذه الدموع المنسابة من عينيه ؟.. ما معنى كل هذا ؟.. انه ما زال يحبها فلماذا المكابرة والعناد ؟ .

وتذكر .. تذكر كلام امـه منذ دقائق قليلة .. ماذا قالت امـه ؟ .. لقد قالت لهإانت لا تزال تحب محاسن يا ابني . حبها سيقتلك يا حبيب . ليس لـك الا ان تتزوج منها لتتخلص من عذابك».هـذا الكلام كلام امه . قـد تكون امه على حق .. ولكن . ولكن هل يستطيع ان يتزوج منها وان يحلها من قلبه ومن داره على الرحب والسعة ؟ ومـاضيها ؟ وهفوتها ؟ وكذبها عليه ونفاقها ؟ وخداعها ومكرهـا وخبثها ؟ هل يستطيع ان ينسى كل هذه الاساءات التي رمته بها محاسن ؟ .

وعادكلام امه يتجاوب في اذنيه.. لقد اشارت عليه امه بأن يغمض عينيه ويتناسى الماضي .. فهل يستطيع ان يغمض عينيه وينسى الماضي .. ويتزوج من محاسن ؟ هل يستطيع ، اذا تزوج من محاسن،ان ينسى انها كانت راقصة تعرض جسدها العاري على السكاري والعربدين والمغامرين ؟ هـل يستطيع ان ينسى انها خدعته وكذبت عليه واوهمته انها ابنة تاجر كبير ؟ .. هـل يستطيع ان ينسى كل ذلك ؟..لا. لا هو لا يستطيع ان ينسى ، لا يستطيع ...

ومضى حبيب في التفكير وفي استعادة كلام امه .. مـاذا قالت امـه ايضاً ؟ ... قـالت : لا اخيفك يا حبيب انني كنت احب محاسن كما تحب الأم ابنتها ، وقـد لاح لي انها فتاة مهذبة

تقية ورعة .. مـا قالته امه صحيح .. كانت محاسن فتاة مهذبة تقية ورعة . فلطالما رافقت امـه ورافقته هو الى المعبد وجثت على ركبتيها امام المصلوب لتصلي بكل ورع وتقى وخشوع .. ولكن ، ولكن مـا هو نفع تقاها وورعها وخشوعها اذا كانت تعرض جسدها العاري على كل ناظر غريب او قريب ؟ .

واستغرق حبيب في تفكيره العميق . وكاد يضيع دون ان يستطيع اتخاذ اي قرار ..هل يعود اليها ؟ هل يمضي في الابتعاد عنها ؟ هل يتزوج منها ؟ هـل يتزوج من احدى بنـات القرية التقيات المهذبات الورعات ؟ .. هـل ينفذ القرار الذي اتخذه بالابتعاد عن النساء وبمقـاطعة الزواج ؟ .. ليس يـدري ، ليس يدري ..

ونهض .. وسار ، سار دون ان يعلم الى اين يسير ولا لمـاذا يسير ..وعادت الافكار تغمر رأسه وهو يسير بين اشجار الغابة الخضراء : هل يجوز له ان يتزوج من راقصة ؟ ..الا يغضب هذا الزواج الله تعالى ؟..هل يرضى الله عز وجل عن هذا الزواج؟.. ليس يدري ...

ولمع في رأس حبيب خاطر سريع. لماذا لا يستشير الخوري الياس كاهن القرية الجليل.ان الاب الياس صديقه الحميم وهو كاهن شاب ، تلقى دروسه في معهد الاباء المرسلين وعـاد الى قريته على خدمة الرعية بكل امـانة واخلاص . وارتاح حبيب كل الارتياح لهذه الفكرة،سيستشير الخوري الياس ويطلب معونته. وللأب الياس ان يرسم له الطريق القويم وعليـه هو ان يسير في

ذلك الطريق ..

وسار حبيب ،سار الى دار الخوري الياس ،وفي رأسه يجول الف فكر وفكر والف خاطر وخاطر : ترى بماذا سيشير عليه الخوري الياس ؟ ماذا سيقول له ؟ .. هل سيطلب اليه ان ينسى محاسن ويبعد طيفها عنه ويطهر قلبه من حبها الدنس الوبيل؟.. أم هل سيشير عليه بالعودة اليها، وبالزواج منها ؟.. ليس يدري. ليس يدري .

ومضى حبيب في سيره الحثيث عائداً الى القرية .. وشخص تواً الى دار الكاهن الجليل،ووقف امامالباب يطرقه وهو واجف القلب مضطرب الفؤاد . فكأنــه وهو يقف امــام ذاك الباب ، يقف في ساحة القضاء لاستماع الحكم عليه . امـــا بالبراءة واما بالاعدام .. ولم يطل وقوف حبيب امــام باب الدار ، فقد فتح الباب وأطل منه خادم الكاهن .

وهمس الخـــادم : « السيد حبيب !.. اهلا وسهلا » وتمتم حبيب : « الاب الياس موجود ؟ » وافسح الخادم الطريق امام حبيب متمتماً : « تفضل .. » وتفضل حبيب بالدخول . واقتاده الخادم الى قاعة الاستقبال ، ودعاه للجلوس هامساً : « تفضل ، اجلس ، سأعلم الأب الياس بحضورك »..

وجلس حبيب ، وانصرف الخادم..وما هي إلا دقائق قليلة حتى اطل الأب الياس والابتسامة الهـــادئة البيضاء تطفو على شفتيه . ووقف حبيب ، ومـــد الخوري الياس يـده يصافح حبيباً هامساً : « اهلا وسهلا . اهلا وسهلا » .

وصافح حبيب الخوري ایاس بيد باردة . وجلس الكاهن وجلس حبيب قربه.وبدأ الحديث بينهما كما تبدأ الاحاديث دائماً: كيف الحال ؟ كيف الصحة ؟.. والتفت الاب الياس الى حبيب ليقول ، بعد أن انتهي حديث المجاملات : لم تعودني مثل هذه الزيارة يا حبيب في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح . خير ان شاء الله يا ابني ؟ » .

وهمس حبيب : لقد جئتك في مهمة يا ابت ، جئت طالباً معونتك ، طالباً نصيحتك .

وكان الخادم قد جاءهما بالقهوة فتناول حبيب فنجانه وتناول الكاهن فنجانه.ورشف الاب اليـاس القهوة وهمس : « مر يا ابني . ماذا تريد مني ؟ » قال حبيب : صديقك حبيب مرزوق واقع في معضلة كبرى يا ابت وليس ثمة من يستطيع أن ينير أمامه السبيل إلا الاب الياس .

قال الكاهن : ما هي هذه المعضلة يا حبيب ؟

قال حبيب : اريد أن اسألك . هـل الزواج من راقصة خطيئة مميتة يا ابت ؟

واستوى الكاهن في جلسته وتمتم : من هي الراقصة ؟ ومن هو الشاب الذي يريد الزواج منها ؟..

ورشف حبيب القهوة وهمس : أسمع يا ابت. انا سأروي لك كل شيء . لن اخفي عنك شيئاً .

قال الكاهن : تفضل يا ابني قل كل شيء. كلي آذان صاغية اليك .

قال : هـل تعرف الآنسة محاسن التي كانت تزورني هنا في القرية ؟

قال الكاهن : الفتاة البيروتية الحسناء ؟

قال : اجل . هي بنفسها

قال الكاهن : اجـل يا ابني لقد عرفتني اليها انت بنفسك وشاهدتها مراراً عديدة في الكنيسة . كانت تصلي بخشوع مـا بعده من خشوع .

قال حبيب : وهل تعلم انني كنت انوي الزواج منها ؟

قال الكاهن : لقد خيل اليّ ذلك وانا اشاهدها برفقتك دائماً.

قال حبيب : الراقصة هي محاسن يا ابت ، وطالب الزواج منها هو انا .

ووجم الكاهن ، وهمس باستفهام : هـذه الفتاة البيروتية الحسناء راقصة ؟

ترقرقت الدموع في عيني حبيب وهمس : اجل . اجـل يا ابت . انا لم اعلم انها راقصة إلا منذ ايام . ولذلك فقد ترددت في الزواج منها بعد ان علمت الحقيقة . ارجوك يا ابت أن ترشدني الى الطريق المستقيم الذي يجب عليّ أن اسير فيه . هل استطيع أن اتزوج منها دون ان اغضب الله ودون ان ارتكب خطيئة ؟

وصمت الكاهن برهة ، خيل لحبيب مرزوق انهـا دهر ... وأخيراً التفت الأب الياس الى حبيب ليقول : « من كان منـكم بلا خطيئة فليرمها بحجر .. »

ورشف الاثنان القهوة ، وعاد الاب الياس الى الكلام بعـد

صمت قصير ليقول : « اسمع يا حبيب ، الزواج من راقصة ليس خطيئة . المهم هو ان تكون الراقصة مهذبة ، في قلبها روح الله وفي نفسها خوفه تعالى . قد تكون هذه الفتاة مضطرة للعمل ، لتعيش او لتعيل اسرتها . قد تكون هذه الراقصة محتاجـة الى شراء خبزها بدموع عينيها . الحياة « خبز ودمع » يا بني . ومن يريد ان يأكل الخبز عليه ان يسكب الدمع . ما أمرّ الحيـــاة وما اصعبها على مثل هذه الفتاة يا حبيب .

فوجم حبيب ، ماذا يقول الأب الياس ؟ اذن هو يستطيع ان يتزوج من محاسن دون ان يرتكب خطيئة ؟.. والتفت حبيب الى الاب الياس ليقول بتساؤل ملحاح : ألا يغضب زواجي منها الله يا أبت ؟ ألا ارتكب الاثم بزواجي من راقصة ؟

قال الأب الياس : « لا يا ابني لا .. بالعكس . قـــد تربح اجراً بانتشالك هذه الفتاة من بؤرة الفساد التي تعيش فيهـا .. ولكن .. ولكن كما قلت لك بشرط ان تكون تلك الفتـــاة مهذبة ورعة ، تخاف الله ، وتحفظ وصاياه ، وان تكون مستعدة لدفن الماضي وللعيش معك حياة طاهرة مقدسة شريفة .

وعرفت شفتا حبيب مرزوق الابتسام .. ونهض يودع الأب الياس هامساً : « شكراً لك يا أبت على نصائحك الثمينـــة وارشاداتك الغالية »..

وودع حبيب الاب الياس ، وسار عائداً الى داره.. ووقف الاب الياس يشيعه بنظره هامساً : « يا رب سدد خطواتـه في طريق البر والخير والصلاح » .

٢١
آلام محاسن

محاسن نصار على ثورة وغضب عاصف هائل رهيب ، مخيف.

ان ما قام به ابو العز أثار غضبها وأهاج حنقها ، وأشعل نار الحقد في قلبها. لقد قضى ابو العز على مستقبلها وهدم كل ما بنته من آمال وأحلام ، وصرع قلبها الهائم الولوع . يا له من مجرم سافل حقير ..

وكانت محاسن نصار قد بكت بدموع غزيرة حمراء عندما خرجت من دار حبيب مرزوق ، بعد أن اطلع ابو العز حبيباً وأمه على حقيقتها وعرض عليهما صورها العارية .

وسارت محاسن الى سيارتها بقدمين واهيتين مرتجفتين وهي تتعثر في مسيرها. وما ان وصلت الى السيارة حتى ألقت بجسدها الواهي المضطرب المرتجف على مقعد السيارة وأخذت تجهش بالبكاء . لقد ادركت انها خسرت حبيباً الى الابد وأن ابا العز حكم عليها بالفراق الأبدي ، الفراق الذي لا لقاء بعده ..

وأدارت محرك السيارة بيد مرتجفة . وسارت السيارة بها وهي تتهادى في مسيرها . وكادت تضيع عن الطريق وقد

حجبت دموعها المزيرة عن عينيها ذلك الطريق الضيق المنساب في سفح الجبل الاخضر كأنه افعى رقطاء تنساب في سهل واسع رحيب. وخشيت ان تتدهور السيارة وتصل بها الى قعر الوادي مهشمة شر تهشيم ، والانسان مهما بلغ بـــه اليأس والقنوط من حدود يظل متعلقاً بالحياة ، وتظل الحياة لديه رائعة السناء مهما بلغت من الظلام حدوده القاسية البعيدة .

وخشيت محاسن نصار أن تفقد حياتهـا اذا جنحت بهـــا السيارة عن الطريق العـــام ، فأوقفت المحرك لتمسح دموعها وتلتنفس الصعداء ثم تعود الى ادارة المحرك مجدداً .

وعادت السيارة الى المسير بها على مهل واتئاد . وانصرفت محاسن الى التفكير والسيارة تسير بهـا في طريق بيروت البعيد الفسيح الأرجاء ، وراحت تفكر بتلك الايام القليلة الآفلة التي قضتها قرب حبيب. تلك الايام كانت اسعد ايام حياتها وأروعها وأبعدها بهجة وهناء . ترى هل تعود ؟.. لا ، لا ، تلك الايام لن تعود . ان يقدر لها ان تشاهد حبيباً مرة ثانية .

من المؤكد ان حبيباً ناقم عليها شديد النقمة بعـد ان وقف على حقيقتها الناصعة البياض . وقد لمست الحقد في حبيب عندما ابتعد عنها دون ان يتنازل الى مخاطبتها بكلمـة واحدة ، دون ان يلتفت اليها ، وقد جثت على قدميه متوسلة باكية متضرعة اليه.. انه على حق . فهي قد خدعته ، لقد أوهمته انها ابنة تاجر كبير وانها تعيش مع ابنة خالها إنعام عيشاً شريفاً . فاذا بـه يكتشف انها راقصة تعرض جسدها العاري كل ليلة على كل عين..

ماذا كان عليه ان يفعل بعد ان وقف على حقيقتها ؟ هل كانت تنتظر منه ان يفتح لها ذراعيه ويضمها الى صدره بعد ان شاهد صورها العارية المتعددة الالوان ؟ لا . كل انسان يقف موقف حبيب مرزوق اذا اكتشف ما اكتشف حبيب ، واذا وقف على ما وقف ..

وهمست محاسن نصار في سرها وهي تقود السيارة الفخمة الأنيقة : « ما العمل الآن يا محاسن ؟.» ولم تستطع محاسن ان تجيب على هذا السؤال . لم تستطع ان تصل الى حل للمعضلة الجديدة ، لم تستطع ان تجد وسيلة تتقي بها شر الكارثة الهادمة العاصفة الهوجاء ..

وعادت الدموع لتتدحرج غزيرة على وجنتيها ، والسيارة تجتاز بها الطريق البعيد ، وكان طيف حبيب يلوح لعينيها من خلال دموعها عبر زجاج السيارة المنطلقة بها في طريق بيروت فشاهدت ذلك الطيف يتمايل في زجاج السيارة وهو يبتسم لها ثم شاهدت ذلك الطيف ينطلق مع الهواء امامها والدموع تموج في عينيه .. وأحست بألم شديد يعصف بروحها وبجسدها ، وشعرت بأنفاسها تضيق في صدرها .. وكانت يداها ترتجفان وهما تمسكان بالمقود فيرتجف المقود تحت قبضتيها وتتهادى السيارة بها الى اليمين والى اليسار .

ووصلت الى بيروت فمسحت دموعها لتتمكن من تمييز الطريق المنبسط امامها وهو على ازدحام شديد ، واتجهت بالسيارة الى شارع الحمراء لتقف بها امام بنايتها ثم تترجل وتسير الى مدخل البناية ،

وشعرت بالوهن،شعرت بركبتيها تصطكان وهي تسير الخطوات القليلة من السيارة الى مصعد البناية . وخافت وهي تلمس الوهن والعياء في جسدهـا المرتعش المضطرب المرتجف . وخشيت ان تقع على الارض فراحت تتلمس الجدار .

ووصلت الى المصعد ، بعد جهد وعناء . ودخلت ، فارتفع المصعد بها الى دارها . وفتحت الباب ودخلت.. وكانت الساعة تشير الى الحادية عشرة من الصباح ، عندمـا وصلت محاسن الى دارها ، عائدة من تلك القرية الباسمة الخضراء . وكانت انعام قد استفاقت من نومها وجلست في البهو ترشف القهوة وتدخن . لم تكن انعام لتنهض من نومهـا قبل الساعة الحادية عشرة من الصباح وهي تسهر كل ليلة في الملهى حتى مطلع الفجر البعيـد .

وشاهدت انعام صديقتها محاسن تدخل عليهـا والدموع تترقرق في عينيها والاصفرار يعلو محياها والذبول يغمر شفتيها، وهي ترتعش وتنتفض كأنها عصفور جريح يعذبه الألم وتؤلمـه الجراح . وذعرت انعام وهي تشاهد صديقتها الحبيبة محاسن على تلك الحال ، ووثبت اليها تمسك بيدها وتساعدها على المسير الى غرفتهـا وهي تتمتم : « محاسن !.. حبيبتي محاسن ! .. مـا بك يا اختي ؟.. ما بك يا محاسن ، ماذا اصابك ؟ مـاذا دهاك ؟ ماذا حل بك يا حبيبتي ؟.. »

ولم تجب محاسن . لم تستطع ان تجيب ، لم تستطع ان تنطق بحرف ... ودخلت بهـا انعام الى غرفتها .. وألقت محاسن بجسدهـا الواهي المضطرب النحيل على السرير وجلست انعـام

قربها لتمسك بيدها هامسة : ما بك يا محاسن ؟ لماذا تبكين ؟ لماذا ترتجفين يا اختي ؟

وأجهشت محاسن بالبكاء دون أن تستطيع النطق بحرف .. ونهضت انعام للتسرع الى المطبخ فتهيء لصديقتها كأس مرطبات ثم تحملها اليها وتقدمها لها هامسة : خذي اشربي يا اختي. اشربي هذه الكأس يا حبيبتي .

وبيد مرتجفة واهية تناولت محاسن الكأس وراحت ترشفها على مهل . وعادت انعام الى الكلام لتقول : « قولي لي الآن ما بك يا محاسن ؟ »

ونظرت محاسن الى انعام بعينين تغمرهما الدموع، دون ان تنبس بحرف، وتمتمت انعام : « هل تخاصمت وإياه ؟ » . فهمست محاسن : « لقد انتهى كل شيء بيننا يا انعام . انا لن اراه بعد اليوم » .

فوجمت الراقصة انعام ، وهي تسمع كلام صديقتها الحبيبة محاسن . وهمست : « لماذا ؟ ماذا حدث بينكما يا محاسن ؟ » .

ومسحت دموعها لتقول : « لقد وقف على حقيقتي يا انعام. علم كل شيء ».فازدادت انعام وجوماً. وأمسكت بيد صديقتها هامسة : « كيف علم كل شيء ؟ من اطلعه على السر ؟ » فتأوهت محاسن ، وأنّت وهمست : « ابو العز .. ابو العز اخبره كل شيء . لقد خرب بيتي فليخرب الله بيته . قضى على مستقبلي ، على عمري ، على حياتي ، فليقض الله على حياته ، وليقصف عمره » . وهمست انعام : « هل علم حبيب انك راقصة ؟ »

فمسحت دموعها وتمتمت : « قلت لك . علم كل شيء . كل شيء . ابو العز حمل اليه صوري وأنا في ثياب الرقص وأطلعه على كل شيء » . قالت انعام : « وماذا كان موقفه منك ؟ ماذا فعل ؟ » .

قالت : عندما وصلت الى داره كان ابو العز خارجاً من تلك الدار . وأدركت ان الكارثة قد وقعت وأنا اشاهد المجرم خارجاً من دار حبيب فوثبت اليه اقول له : « مـاذا جئت تفعل هنا ؟ ماذا فعلت يا مجرم ؟ » وقهقه وقال : « جئت ازور نسيبي يا نسيبتي العزيزة » وهرولت مسرعة . ودخلت .. لا تسليني ماذا رأيت في تلك الدار . لا تسليني ماذا شاهدت يا انعام كان حبيب واقفاً والدموع تموج في عينيه . كان ينظر من النافذة الى بعيد وهي يبكي فكأنه كان في جنازة . كأنه كان يشيع قلبه الى المقر الاخير .. وكانت امه جالسة وهي واجمة ساهمة حيرى وكانت الدموع تترقرق في عينيها ايضاً . فكأنها كانت تدرك اي مصير سيصيب قلب ابنها .. وكانت صوري وكانت المجلات والصحف التي تحمل صوري ورسومي ملقاة على الارض . . ولم يستطع احد منا ان ينطق بحرف ، لا انا ولا حبيب ولا امه . نحن الثلاثة كنا في حال مؤلمة مؤسفة دامعة .. واخيراً همّ حبيب بالمسير ، فذعرت وقد ادركت انه يريد ان يهرب مني وانني لن اراه بعد الآن .. ورأيتني اجثو على قدميه باكية طالبة اليه ان يعفو ويصفح عني .

إلا انه لم يجب . لم يتكلم ، لم ينطق بكلمة ، لم يهمس بحرف .

وسار ، سار وكأنـــه يسير على قلبه ، سار وهو يبكي ويذرف الدموع الغزيرة الحمراء .. وشعرت بألم روحي عميق وانا اشاهد حبيباً على تلك الحال ، وادركت انني اصبته من قلبه في الصميم ، ادركت اني مجرمة . انا السبب في كل مـــا حل بحبيب من الام وعذاب ودموع . ليتني مت قبل أن اقدم على هـذه الجريمة المروعة النكراء .. وحاولت النهوض عن الارض فعجزت . لم تسعفني قدماي في النهوض .. واخيراً ، تقدمت ام حبيب مـني ترفعني عن الارض لتقول : « ليس لك مكان في هـــذه الدار يا محاسن ».وخرجت . خرجت من تلك الدار بـــلا قلب . لقد دفنت قلبي في تلك الدار القروية الصغيرة الهانئة يا انعام.خرجت من تلك الدار وانا اجر رجلي جراً.ولا اعلم كيف قدر لي ان اصل الى هنا سالمة ، وقد كنت اقود السيارة بلا وعي ولا نظر ولا حذر » .

وبكت محاسن بدموع غزيرة وهي تروي تفاصيل المـأساة لصديقتها انعام.وألقت برأسها على صدر انعـــام وهمست : « انعام !.. صديقتك محاسن انتهت لن تستطيع الحياة . لم تعد محاسن لترغب في العيش على هـذه الارض الفانية الملأى بالعذاب والآلام والدموع . الموت اصبح لدي اشهى من الحياة . كنت اعيش في امالي واحلامي واماني العذاب ، فلماذا اعيش الآن وقد خسرت الامال والاحلام والاماني ؟.. كنت أحيا في حب حبيب ، اما الآن وقد خسرت حبيباً فلماذا احيا ولمن احيا ؟.. كان حبيب مرزوق كل شيء لدي . وقـد خسرته فخسرت كل

شيء . ليتني لم اره يا انعام ، ليتني لم اتعرف اليه ، ليتني لم اتدله في حبه ، اذن لكنت الآن بألف ، ألف خير ... »

واسترسلت محاسن نصار في البكاء ، وغرقت في دموعها وآهاتها وانينها . ورثت انعام لحالها ، وضمتها الى صدرها برفق وحنان لتقول : « محاسن !.. خففي عنك يا اختي . ليس لنا ان نستسلم لليأس كلما نزلت بنا كارثة او حل بنا مصاب فالكوارث كثيرة في الحياة ، والمصائب عديدة يا محاسن ، وعلى الانسان أن يستقبل الكوارث بصدر رحب وان يتقبل المصائب بقلب وسيع كبير ، لقد كنت ارقب لحبك هذه النهاية يا اختي . كنت اعلم يقيناً انه لا بد لحبيب من ان يطلع على حقيقتك . ما هناك سر يظل دفيناً طيلة العمر ، لا بد للسر من أن يفشى يوماً يا محاسن . لقد قيل «يمكننا أن نخدع كل الناس بعض الوقت ، ويمكننا ان نخدع بعض الناس كل الوقت ، إلا اننا لا نستطيع ان نخدع كل الناس كل الوقت». وانت يا محاسن لم يكن بوسعك ان تخدعي حبيبك كل العمر ، كان لا بد له من الاطلاع على الحقيقة. ان حبل الكذب قصير . والكذب عمره كعمر الزهور ، قصير جداً . ما هناك سوى الصدق الذي يعمر ويشيخ ويخلد . كان عليك ان تسلكي مع حبيب سبيل الصدق ، السبيل المستقيم . كان عليك ان تطلعيه . بنفسك على حقيقتك منذ اليوم الاول . لو فعلت ذلك لأمنت هول هذا المصاب الاليم » .

فمسحت محاسن نصار دموعها المنسابة على وجنتيها وهمست: « انا ، عندما تعرفت الى حبيب ، لم اكن انتظر ان أتوغل واياه

في طريق الحب والهوى والغرام . كنت اريد ان ألهو معه ، كنت اريد ان اصادقه فقط لا اكثر ولا اقل . ولذلك فانا لم اشأ ان اطلعه على حقيقتي ».فأشعلت انعام لفافة نفثت دخانها في الفضاء.وهمست : « الحب دائماً يبدأ بإللهو ثم لا يلبث ان ينقلب الى الجد . الحب كالنار ، وليس للانسان ان يلعب بالنار يا محاسن لئلا يحترق ويصبح رماداً». وصمتت محاسن . صديقتها انعام على حق . لقد لعبت بالنار فاحترقت واصبحت رماداً .. و استأنفت انعام الكلام بعد صمت قصير لتقول : « تشجعي يا محاسن ، تشجعي يا اختي . يجب ان تنسي كل شيء . انسي الماضي يا محاسن ، انسي تلك الايام الآفلة الجميلة التي مرت بك ، او بالاحرى التي مررت بهـا،وانظري الى المستقبل الآتي بعين الآمال والاحلام . هذا الحدث الذي مر بك برهن لك على اننا نحن معشر الراقصات بنـات الليل ، لم نخلق للحب والهوى وللزواج . عندما يخلق الله الانسان يرسم له حدود حياته ، وعلى الانسان الجاهل الاعمى الاصم الضعيف ان يلزم تلك الحدود » .

وتمتمت محاسن بحنق وثورة وغضب : « لا يا انعـام . لا يا اختي . الله تعالى لا يضع حدوداً بين البشر . البشر أنفسهم هم الذين وضعوا تلك الحدود وقدسوهـا . الله تعالى خلق جميـع الناس متساوين . ذ ليس هناك فضل لإنسان على انسان عند الله الا بالتقوى » . قال المعلم الصالح : « أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم » . وهو قد أحب الجميع بالتساوي .. الله تعالى خلق جميع البشر من طينة واحدة ، من عنصر واحد . وأحب الناس

إلى قلبه أشدهم فضيلة . إلا ان البشر انصرفوا عن الفضيلة إلى المال فنصبوا منه تمثالاً عبدوه وجعلوه مقياساً لمقامهم الرفيع

ونفثت انعام دخان اللفافـــة في الفضاء، وهمست : « لا يا محاسن ، المال ليس كل شيء في الحياة كما يخيل اليك . هناك مـا هو اثمن وأغلى من المال . قليلون من البشر هم الذين يدركون هذا ، ولكن هذه هي الحقيقة ، هناك الشرف . كل ما في العالم من مـال لا يستطيع ان يشتري ذرة صغيرة من الشرف . ان الجرم لا يستطيع ان يؤمن للانسان السعادة يا محاسن . وهنـاك ايضاً السمعة العطرة .. كل ما في الدنيا بأسرهـا من مال لا يستطيع ان يعيد للمرأة سمعتهـا الناصعة البياض .. » . خذي مثلاً يا اختي : « انت غنيـة ، تملكين هذه البناية ، ولديك في مصارف بيروت مبالغ كبيرة من المـــال ، هل تستطيعين ان تشتري بثروتك كلها السعادة ؟.. هل يستطيع مالك ان يمحو عنك لقب « بنت الليل » ؟.. فلنكن صريحتين يا محاسن . نحن لن نستطيع الزواج ، لن نستطيع ان نجد زوجاً نركن اليـه . لن نستطيع ان نعيش في دار الزوجية ، ولن ننعم بالاستماع إلى كلمة « ماما » ، فلنقنع بواقعنـا ، ولنكمل الطريق الذي بدأنا السير فيه يا اختي » ..

وأجهشت محاسن بالبكاء .. كل ما تقول انعـــام صحيح ، فلماذا تحاول التمويه والمغالطـــة ؟ هي لن تستطيع ان تشتري السعادة بكل ما لديها من مال . لا تستطيع ان تستعيد حبيباً. لا تستطيع ان تعاند الأقدار ولا ان تتحدى الايام . عليها اذن

ان تقنع بالحقيقة وأن تتذرع بالصبر والشجاعة .. وعادت انعام الى الكلام لتقول بعد صمت قصير : « محاسن ! يجب ان تعودي الى عملك ، المعجبون بك وبجمالك وبشبابك كثيرون . وهم ما زالوا ينتظرون عودتك اليهم . انت في شرخ الشباب يا محاسن ، فلا تضيعي شبابك بالدمع والحزن وبالعذاب . ستجدين في عملك خير سلوى ، وتستطيعين ان تنسي حبيباً يا اختي » .

وتمتمت محاسن بألم وحزن وأسى : « أنسى حبيباً ؟.. هل استطيع ان انساه ؟. لا يا انعام . لا يا اختي . انا لن استطيع ان انساه . ان حبه سينزل معي الى القبر .. لن تستطيع قوة على هذه الارض ان تنتزع من قلبي حبه.سأعيش العمر كله على ذكراه » . قالت انعام : « يجب ان تعودي الى عملك يا محاسن. ان المستقبل امامك مشرع الابواب، والمال مازال وفيراً امامك، ما لك الا ان تغرفي منه على قدر ما تشائين . لا تكوني مجنونة يا محاسن . لا تقضي على مستقبلك وعلى شبابك وعلى سعادتك . العمل سيتكفل ببلسمة جراحك،والايام ستنسيك كل ما مر بك من مصائب وكوارث وآلام . اسمعي مني وعودي الى عملك ولن تخسري يا اختي » .

وصمتت محاسن وراحت تفكر بحزن وصمت وأسى . وطال الصمت بينهما ، فلا محاسن تلفظت بحرف ، ولا انعام .

وأخيراً وبعد صمت طويل التفتت انعام الى صديقتها محاسن لتقول : « على ماذا عولت يا محاسن ؟ ماذا ستفعلين يا اختي ؟

هل تريدين ان تقضي حياتك كلها في الألم والدمع والعذاب ؟ ام توافقينني على العودة الى العمل في الملهى ؟ »

وهمست محاسن : « سأجيبك غداً يا انعام . انا لا استطيع التفكير الآن، لا استطيع ان اتخذ اي قرار . انني متعبة مرهقة واهية القوى، خائرة العزائم . اتركي لي مجال التفكير يا اختي . اتركي لي مجال الراحة قليلاً كي استطيع أن أفكر وأن أقرر» .

وضمتها انعام الى صدرها برفق وحنان وهمست : « ارجو ان تنزلي عند رأيي يا اختي ، وفي النزول عند هذا الرأي راحة لك واطمئنان لقلبك، وشفاء لجراح روحك الهائمة الولهى الحنون» .

وانصرفت انعام عنها لتدخل الى غرفتها فترتدي ثيابها وتعود اليهـا قائلة : « انا مدعوة لتناول طعام الغداء على مائدة احد المعجبين . هل ترافقينني يا اختي ؟ »

وهمست محاسن : « لا . لا يا انعـام . اريد ان ارتاح . مع السلامة يا اختي » .

وذهبت انعام .. وجلست محاسن وحدهـا تفكر وتدخن وتبكي .. الكارثة النازلة بهـا عاصفة هادمة . لقد بَنَت قصور الاماني والأحلام ، واستفاقت فجأة لتجد تلك القصور الشاهقة قد هدمت فوق رأسها . ويلهـا ، ماذا عساها ان تفعل الآن ؟ صديقتها انعام تدعوها الى الصبر والسلوان والنسيان ، وتدعوها ايضاً للعودة الى العمل، فهل تستطيع ان تنسى؟ وهل تستطيع ان تسلو ؟ وهل تستطيع ان تعود الى عملهـا في الملهى ، فتسهر وتسكر وترقص وتساير الزبائن كما كانت تفعل قبل ان تتعرف

الى حبيب ؟ لا . لا . هي لن تستطيع ان تفعل ذلك . لن تستطيع ان تعود الى الماضي الموبوء ، الى الماضي القاتم السواد ، الى الماضي الذي تركته وتخلت عنه ودفنته في التراب .. الماضي اصبح ميتاً ، اصبح جثة هامدة ، هل تنبش الجثة وتخرجها من القبر ؟ لا . لا . وألف لا . هي لن تعود الى الرقص ، لن تعود الى السهر والعربدة والمجون .. ستنزوي في دارها وتعيش العمر كله على ذكرى حبيبها ، حبيب مرزوق، يكفيها من حبيب الذكريات ، يكفيها أنها ستعيش مخلصة له ، حتى بعد ان تخلى عنها ، ستعيش العمر كله تبكي تلك الايام الآفلة الجميلة التي قضتها قرب حبيب في تلك القرية الباسمة الهانئة الخضراء . وستصلي.. ان في الصلاة عزاء لها وبلسماً لقلبها الهائم الجريح .

وارتاحت محاسن نصار بعض الارتياح وقد وصلت بتفكيرها الى هذا الحد .. ونهضت ، ودخلت الى غرفتها لتنزع عنها ثيابها وترتدي ثياب النوم وتستلقي في سريرها.. وعادت الى التدخين والى التفكير وقد استقرت في السرير الوثير، فراحت تستعيد في خاطرها كل ما مر بها من احداث . فتذكرت ، تذكرت كيف تعرفت الى حبيب على شاطىء المعاملتين الواسع الارجـــاء . وكيف سافرت الى بغداد فكان طيفه مرافقها في ذهابها وايابها. وكيف عـــادت الى المعاملتين وكيف كانت تجتمع بحبيب على الشاطىء الحـالم الفسيح .. وكيف صعدت الى القرية ، وكيف كانت تجلس قرب سريره عندما كان مريضاً . وكيف تدلهت في هواه وكيف كانت ترتاد واياه الغـابات والكروم والاحراج

والبساتين . وكيف تعاهدا على الحب والوفاء والزواج . وأخيراً تذكرت وقفتهـا امامه بعد ان اطلعه ابو العز على حقيقتها ... وكيف ادار لها ظهره وسار في سبيله ...

وعادت الدموع تموج في عينيها وقد وصلت في ذكرياتها الى هـذا الحد . ونقمت على ابي العز نقمة شديدة .. يا له من مجرم سافل لئيم . لو تستطيـع ان تنتقم منه انتقاماً رهيباً ، انتقامـاً يوازي اساءته اليها . لو تستطيـع ؟ ولماذا لا تستطيع ؟ يجب ان تنتقم منه ، يجب ان تثأر لقلبها ، يجب ان ترد له « الجميل » .

واستوت في السرير وقد وصلت بتفكيرها الى هذا الحد . وأشعلت لفـافة راحت تدخنها على مهل . وأخذت تفكر : يجب ان تنتقم من أبي العز . ولكن كيف ؟ صحيح ، كيف ؟

وانغمست محاسن نصار في تفكيرها البارد الموحش الحزين . كانت تفكر بوسيلة تصل بها الى الانتقام.. واهتدت الى الوسيلة بعد تفكير طويل .. ستعود الى العمل في ملهـاه . ستنزل عند رأي انعـام وتعود الى الرقص .. اجل ، هي ستعود الى ملهى ابي العز ، لا حباً بأبي العز ، ولا رغبة منها في العودة الى العمل، بل هي ستعود لتنتقم من ذلك الرجل الذي هدم حياتها وقضى على مستقبلها وأثخن قلبها وروحها بالجراح .

وعندما تعود الى العمل ، عندما تصبح داخل الملهى سيبقى لكل حـدث حديث ، وستعرف كيف تنتقم من ابي العز ، وكيف ستخرب بيته ، كما خرب بيتها .. وشعرت محاسن ببعض الارتياح وقد وصلت بتفكيرها الى هذا الحـد .. واستلقت في

سريرها لتعود الى التدخين والى التفكير ..

وظلت محاسن في سريرهـا تدخن وتفكر حتى المساء دون ان تتناول طعاماً او شراباً . فالحزن العميق ابعد عنها كل شهية للطعام . وكانت محاسن في حـال مؤلمة مؤسفة دامية دامعـة رهيبة . كانت تفكر بالانتقـام من ابي العز والدموع تترقرق في عينيها ..

وفي المساء عادت صديقتها انعـام .. ووثبت انعام اليهـا لتقول : « كيف حالك يا اختي » ؟ فارتسمت ابتسامـة واهية صفراء على شفتي محاسن وهمست : « الحمد لله » .. وألقت انعام نظرة الى « منفضة » اللفائف فشاهدتها ملأى بالاعقاب. كانت محاسن قد دخنت زهاء مئـة لفافة .. وذعرت انعام وتمتمت : « هل دخنت كل هذه اللفائف يا محاسن ؟ » . وابتسمت محاسن الابتسامة الواهية الصفراء دون ان تجيب بحرف واحد ..

وجلست انعام قربهـا على السرير وتمتمت : « ألم تتناولي طعاماً ؟ » . قالت : « لا . انا لا اريد ان اتناول اي طعـام يا اختي » . فهمست : « مجنونة . اتريدين ان تموتي من الجوع ؟ يجب ان تتناولي الطعـام كي تستطيعي الصمود في وجه الكارثة يا محاسن .

فعادت محاسن الى الهمس : « لا . لا ، لا اريـد أن أتناول شيئاً » . ونهضت أنعـام لتدخل الى المطبخ وتهيء الطعـام لصديقتها .. وحملت لها الطعام الى غرفتها . وجلست قربها على السرير وراحت تقدم لها الطعام بيدهـا وترغمها على تنـاوله ..

وعندما انتهت انعام من مهمتها نهضت لتدخل الى غرفتها لترتدي ثياب السهرة. ثم عادت الى غرفة محاسن لتقول : « انا شاخصة الى الملهى يا محاسن . ارجو ان ترافقيني ليلة غد .. أليس كذلك يا اختي ؟ انت ستعودين الى عملك يا محاسن ، يجب ان تعودي الى العمل . . ولا يجوز ان تظلي هنا في هذه الغرفة مستسلمة للألم وللدموع وللذكريات المؤلمة الرهيبة .

ولم تجب محاسن بحرف ، فوثبت انعام اليها تعانقها وتخرج من الدار لتشخص الى الملهى العامر الرحيب .. واستقبلها صاحب الملهى الكريم صالح ابو العز بابتسامة لها ألف معنى ومعنى وألف لون ولون .. ولم تأبه له ، ولم تلتفت اليه، فسارت الى غرفتها من الملهى لتجلس أمام المرآة تسرح شعرها وتصلح زينتها .. ولم تلبث ان خرجت الى القاعة الفسيحة الرحبة لتجلس وراء مائدة صغيرة تدخن وتفكر .

وكان الزبائن قد بدأوا يفدون الى الملهى . وكانت برامج السهرة قد اشرفت على البداية .. واذا بأبي العز يقترب منها وقد ألقى لفافة فاخرة بين شفتيه .. وتظاهرت بأنها لا تراه فما كان منه الا انه تقدم منها ليجلس قربها ويتمتم : « مساء الخير يا انعام » . وأجابت انعام بفتور ولا مبالاة : « مساء الخير » . ونفث ابو العز دخان اللفافة في الفضاء وهمس : « كيف حال صديقتك محاسن يا انعام ؟ » ..

وهمست ستكون بخير ما دمت بعيداً عنها يا ابا العز » .

وهمس ابو العز بهزء وسخرية : « هل شفيت من داء الحب

الوبيل الذي كاد يفتك بها ؟ » والتفتت انعام اليـــه لتقول : « ماذا تريد منهـــا يا ابا العز ؟ ألا يكفيك ما فعلت بها ؟ ألا يكفيك انت قضيت على مستقبلها وعلى آمالها وعلى قلبها ؟ » .

فضحك ابو العز وهمس : « كيف حالها الآن ؟ » .

قالت : « ان حالـها تفتت الأكباد . لقد طعنتها من قلبهـا في الصميم . لقد قتلتها يا أبا العز » .

فاتخذ ابو العز طابع الجد وتمتم : « يا انعام ، انا لم اقدم على ما اقدمت عليه الا من اجلها هي . محاسن كانت تسير في طريق الضلال وكان عليّ ان اعيدها الى الطريق المستقيم . كان مستقبلها مهـــدداً بخطر دائم كبير فرأيت أن اعمل على تأمين مستقبلها وعلى انقاذ هذا المستقبل من الخطر المحدق بـه . لو تزوجت من هذا الشاب القروي الفقير لقضت حياتها في البؤس والعــذاب والشقاء . مكان محاسن هنا يا انعام لا هناك في تلك الدار القروية الصغيرة الجاثمة في تلك القرية النائية على ذل وانكسار . يجب ان تساعديني عليها وأن نعمل معـاً على اعادتها الى صوابها والى عملها » .

قالت انعام : يا أبا العز . انا من رأيك . ان مكان محـاسن هنا لا هناك. ولكن هل يجوز لنا ان نعترض سبيلها وأن نطعنها في صدرها وأن نغمر عينيها بالدموع ونثخن قلبها بالجراح ؟

قال ابو العز : خير لها ان تبكي الآن ساعة من ان تبكي غداً اياماً وسنيناً . محاسن يجب ان تعود الى عملهـا في هذا الملهى . ان المعجبين بها كثيرون . والذين ينتظرون عودتها عديدون .

فأدركت انعام مأرب ابي العز .. ابو العز يريد ان يجني الاموال الطائلة من وراء محاسن . لقد خسر مبالغ طائلة من المال بابتعاد محاسن عن ملهاه، وهو بالتالي يريد ان ينعم بهواها ويجسدها . من اجل هذا يريد ابو العز عودة محاسن الى ملهاه ولكن .. ولكن عودة محاسن الى العمل ضرورية . فهي ستنسى آلامها وعذابها اذا عادت الى العمل . محاسن يجب ان تعود الى العمل وهي ستعود، الا انها لن تعود الى ملهى ابي العز. انعام ستبحث لنفسها ولمحاسن عن عمل في ملهى آخر ، ومن الافضل ان يكون هذا الملهى خارج لبنان .. وصمتت انعام .. وانصرفت الى التفكير العميق في حين راح ابو العز يدخن ويفكر ايضاً ..

وطال تفكيرهما دون ان ينبس احدهما بحرف. كانا يفكران ويدخنان...وأخيراً وبعد تفكير طويل عاد ابو العز الى الكلام ليقول : « انعام!..يجب ان تساعديني عليها وأن تقنعيها بالعودة الى عملها في هذا الملهى » .

ونفثت انعام دخان لفافتها في الفضاء وهمست : « ان شاء الله . ان شاء الله » .

وانصرف ابو العز .. وأقبل الزبائن الكرام يحيّون الراقصة انعام، وجلس المعجبون قربها يسايرونها ويسامرونها ويتوددون اليها ، الا ان انعام كانت منصرفة عنهم الى التفكير ، كانت تفكر بوسيلة تنقذ بها صديقتها المخلصة الوفية محاسن نصار من آلامها ودموعها وعذابها المؤلم الرهيب .

وكالعادة طالت السهرة حتى ساعة متأخرة من الليل. ولم تعد الراقصة انعام الى الدار الا والفجر البعيد بـدأ يغمر بيروت بوشاحه الوردي الجميل. ودخلت انعام الى الدار فاذا بالنور ينبعث من غرفة محاسن. ودهشت انعام. لماذا لم تطفىء محاسن النور، وقد كان من عادتها ان تطفئه كل ليلة قبل ان تنام ؟.. لم تكن محاسن تستطيع النوم إلا والظلام يحيط بها من كل جانب وصوب.. وقلقت انعام كل القلق. أتكون محاسن في خطر؟.. أتراها لا تزال ساهرة ؟.. هل هي مصابة بالاغماء ! هل ؟ هل ؟ هل ؟.. عشرات « هل » طافت في رأس انعـام وهي تسرع الخطى نحو غرفة صديقتها الحبيبة محاسن..

وفتحت انعام الباب ودخلت.. دخلت لتفاجـأ بمحاسن لا تزال جالسة في السرير واللفافة ملقـاة بين شفتيها والدموع تموج في عينيـها. كانت محاسن لا تزال ساهرة تفكر وتبـكي وتدخن..

ووثبت انعام اليها تعانقها وتضمها الى صدرهـا هامسة: « محاسن !.. ألا تزالـين ساهرة يا اختي ؟.. ألم تنامي ؟.. ألم ترتاحي ؟ هدئي من روعك يا اختي. احبسي دمعك يا حبيبتي. على الانسان ان يكون دائماً وأبداً اكبر من المصيبة النازلة به ».

ومسحت محاسن دموعها ونفثت دخـان اللفافة في الفضاء دون ان تنطق بحرف. وتمتمت انعام: « محاسن يجب ان تنسي الماضي يا اختي. ليس للانسان ان يفكر بالماضي، وقـد ولّى الماضي وراح. علينـا ان ننظر دائماً الى المستقبل بعين المنى

والآمال، والأحلام . انسي الماضي يا محاسن . وانسي معه حبيباً » .

وعادت الدموع تموج في عيني محاسن وهمست : « كيف تريدينني ان انساه وطيفه يجثم هنا قربي ، على هذه الوسادة البيضاء . انه هنا . حبيب هنا قربي يا انعام . لقد سهرت معه طيلة الليل » .

فأمسكت انعام بيد صديقتها محاسن لتقول: « لا تكوني مجنونة يا محاسن . ابعدي عنك هذه الهواجس والاوهام . لقد بت اخاف عليك يا اختي من هواجسك هذه . بت اخاف على عقلك . انني لأخشى ان تصابي بعقلك بعد ان اصبت بقلبك . أخشى عليك من الجنون يا محاسن » .

فارتسمت على شفتي محاسن ابتسامة واهية هزيلة صفراء ، وتمتمت : « ليت للجنون طريقاً الى رأسي . صدقيني يا انعام اذا قلت لك انني اتمنى ان اصبح مجنونة ، لعل الجنون ينسيني هذا المصاب الأليم ويبعد عني هذه الذكريات المؤلمة الرهيبة التي تؤلم روحي وتعذب قلبي وتغمر عيني بالدموع ». وتمتمت انعام: « لا تكفري بنعمة الله يا محاسن . ان العقل نعمة من الله ، فلا تكفري بهذه النعمة . ان الجنون اروع كوارث الحياة وأرهبها وأشدها . كل الكوارث تهون عند كارثة الجنون . اخرجي من هذه العزلة التي تعيشين فيها يا محاسن ، وادفني الماضي وعودي الى حياتك الهانئة الباسمة السعيدة التي كنت تعيشينها قبل ان تتعرفي الى حبيب مرزوق .. »

فتأوهت محاسن نصار وهمست : « لا يا انعام . لا يا اختي . صديقتك يا انعام لن تستطيع ان تبتعد عن عذابها وآلامهـا ودموعها . لن تستطيع ان تتخلص من ذكرياتها . لقد قضي على محاسن يا انعام » .

فعادت انعام تمسك بيد محاسن لتقول : « الايام ستتكفل بابعاد شبح هذه الكارثة عنك يا محاسن . هناك قوة تستطيع ان تمحو الذكريات وأن تكفكف الدموع ، وأن تبلسم الجراح وتشفيها . اطمئني . لن تمر عليك ايام قليلة إلا وتسيرين في طريق النسيان يا اختي » . فهزت محاسن رأسها وكأنها لا تؤمن بكلام صديقتها انعام .. وعادت انعام الى الكلام لتقول : « محاسن! قلت لك ، وأعيـد القول الآن ، يجب ان تخرجي من عزلتك وأن تعودي الى عملك . العمـل سينسيك همومك وآلامك وعذابك . اسمعي مني يا محاسن ، ولن تخسري يا اختي » .

فصمتت محاسن ، وراحت تدخن بنهم وجشع واندفاع .. وساد الصمت أرجاء القاعة . وعادت انعام تمسك بيد محاسن المرتجفة الباردة لتقول : « على ماذا عولت يا محاسن ؟ ألا تريدين ان تعودي الى العمل ..؟ » . وهمست محاسن بعد صمت قصير « سأعود الى العمل .. سأعود يا انعـام » . ولمعت ابتسامة الرضى والارتياح على شفتي الراقصة انعام وهمست : « الحمد لله ، لقـد اقتنعت بصواب رأيي وأرحت قلبي يا محاسن . الآن تأكدت انك اقوى من الكارثة ، وأنك فتاة شجاعة تستطيع ان تجابه المصائب والكوارث والهموم بقلب صامد وبأعصاب

متينة وبشجاعة فائقة . غداً منذ الصباح سأتصل بمكتب اعمال الفنانات وأطلب الى مديره ان يجد لنا ، لي ولك عملاً في ملهى خارج لبنـــان . يجب ان تبتعدي عن لبنـــان . يا محاسن ، وبابتعادك عن لبنان راحة وصفاء لك ولقلبك . عندما تبتعدين عن لبنان ستتركين بين ربوعه ذكرياتك المؤلمة المخيفة . اذا سافرت الى دمشق ، او الى بغداد او الى الكويت استطعت ان تنسي كل ما حدث لك . لقد قيل: « اذا أردتَ انْ تخلصي من ذكرياتك فتخلص من المكان الذي يضم تلـك الذكريات». سنسافر خلال هذا الاسبوع يا محاسن ، وستنسين كل شيء » .

فنفثت محاسن نصار دخـان اللفافة في الفضاء وهمست : « لا يا انعـام . لا . انا لن اسافر . لن ابتعد عن لبنـان . هنا سأظل . سأعمل هنـــا في لبنان . انا لنْ ارقص سوى في ملهى صالح ابو العز .. سأعود الى العمل في هذا الملهى يا انعام ».

فدهشت الراقصة انعـــام توفيق .. ماذا تقول صديقتها محاسن . أتكون جادة في ما تقول؟ والتفتت انعام الى صديقتها لتقول باستفهام ملحاح : « ماذا تقولين يا محاسن ؟.. هـــل تريدين العودة الى ملهى ابي العز بعد كل ما ألحق بك صاحب هذا الملهى من أذى ؟ » . قالت محاسن : « اجل . اجـل يا انعام . انا سأعود الى ملهى ابي العز سأبدأ العمل في هذا الملهى ليـلة غد » .

فانسمت الدهشة في عيني انعام وهمست : « هل جننت يا محاسن ؟ » . قالت : « لا انا ما جننت يا انعام . لقــد رسمت

خطة اريد تنفيذهـا . انا سأعود الى ملهى ابي العز .. سأعود الى ابي العز ، والى المعجبـين ، والى العشاق ، والى الزبائن الكرام »..

فوثبت انعـام الى صديقتها محاسن تعانقها هامسة : « المهم لديّ هو ان تخرجي من عزلتك وان تبتعدي عن همومـك وان تعودي الى عملـك . كنت افضل ان تبتعدي ليس عن ملهى ابي العز فحسب ، بـل عن لبنان بأسره . اما وانت تريدين العودة الى ملهى ابي العز فلك الخيار يا اختي . ولكن .. ولكن ما هي هذه الخطة التي رسمتها يا محاسن والتي تريدين تنفيذها ؟ »

فتمتمت الراقصة محاسن: « ستعرفين في المستقبل الآتي القريب، كل شيء ، كل شيء » .

وكانت انوار الصباح قـد بدأت تصبغ الفجر الوردي بلونها الناصع البياض وكان نور الصباح قد بدأ يتسرب عـبر زجاج النافذة ليغمر غرفـة محاسن بوشاحة الجميل .. فنهضت انعام لتدخل الى غرفتها فتنزع عنها ثيابها وتستسلم للرقاد . وانغمست محاسن نصار في سريرها الوثير ، ولكن لا لتنام بـل لتمضي في تفكيرها السحيق البعيد العميق القرار .

٢٢

انتقام محاسن

عـــادت الراقصة محاسن نصار الى ملهى صالح ابي العز بالسلامة ...

وامرع صاحب الملهى الكريم الى المجـــلات والى الصحف يعلن فيها عن عودة الكوكب اللامع محاسن نصار الى ملهـــاه الفسيح ، وهو على فرحة طلقة وهنأة شاسمة رحبة الارجاء .
كانت عودة محاسن نصار الى ملهى ابي العز حدثـاً كبيراً عند صاحب الملهى العامر وعند زبائنـه الكرام .. وتدفق الزبائن المحترمون على ملهى صالح ابي العز ، وقـد وصلت اليهم البشرى المفرحة السارة بعودة محاسن ، وغص الملهى الرحيب بالرواد الطامعين بالوصول الى الحسن والجمال ..

وغمرت ضمـــات الورد والزهور والرياحين المسرح الذي ستشرفه محاسن بالاعتلاء وبالرقص فوقـه . فالمعجبون كثيرون والحمـد لله ، وكل منهم يريـد اظهار عاطفته الطيبة للراقصة الحسناء بتقديم الزهور والورود اليها . ومـا ان اطلت محاسن على الملهى حتى وجدت المعجبين الكرام بانتظارها على نار وحمى

ووثبوا اليها يرحبون بهـا شديد الترحيب ويصافحونها بحرارة وشوق وحنين . وانهالت عليها كلمات العتاب من كل صوب : « اهكذا تبتعدين عنا يا قاسية القلب ؟ » : « لماذا انقطعت عنا طيلة هـــذه المدة يا محاسن وانت تعلمين اننا لا نطيق عنك بعاداً ؟ » .

« ما هذا الجفاء يا خائنة ؟ » .

وتبتسم محاسن لهم جميعاً ابتسامة هادئـة صافية ' بيضاء ' وتصافحهم . وتشد اصابعها اصابعهم وتوزع عليهم الكلمـات الشجية والابتسامات المنورة بالعدل والقسطاس. إلا ان محاسن نصار كانت بالجسد فقط في ذلـــك الملهى الصاخب المزدحم بالزبائن ' امـــا روحها فكانت هناك ' هناك في تلك القرية الخضراء ' عند حبيب مرزوق ..

ووقف ابو العز بعيداً يراقب الراقصة محاسن والفرحة تغمر قلبه . الحمد لله ' ثم الحمد لله ' لقـــد عادت محاسن بالسلامة الى ملهاه وعـــاد ' بعودتها ' الى الملهى جميع الزبائن الكرام الذين كانوا قـــد نزحوا عنه الى ملاهي اخرى عندما نأت محاسن عن ذلـــك الملهى ' وعادت الاموال تتدفق على صندوقه العامر الكبير .. واطمأن ابو العز كل الاطمئنان' وارتاح كل الارتياح. وجرع الخمر ودخن اللفائف الفاخرة وطفت الابتسامة العريضة على شفتيه ..

وحان موعد الرقص : فنهضت محاسن لتدخل الى غرفتها من الملهى وترتدي ثياب الرقص .. ووثب اليها ابو العز والفرحة

تغمر فؤاده ليقول : « انني لأهنئك يا محاسن بسلامة العودة »..

ولم تجب محاسن بحرف ، بل هي خرجت من الغرفة ، وقد ارتدت ثياب الرقص متجهة الى المسرح .. واعترض ابو العز سبيلها قائلاً : « أرأيت كيف استقبلك المعجبون بالحفاوة والاكرام والترحيب ؟ يا مجنونة ، كيف كنت تريدين التضحية بشهرتك وبمجدك وبهذا الجمهور الغفير من المعجبين والعشاق اكراماً لعيني فتى قروي حقير ؟ » .

ولم ترد محاسن على ابي العز بحرف ، بل هي دفعته من طريقها وسارت الى المسرح ..

وكان الموسيقيون قد بدأوا بالعزف فاعتلت الراقصة محاسن المسرح وبدأت بالرقص .. ورقصت محاسن ، رقصت رقصاً رائعاً . هي لم ترقص في حياتها كما رقصت تلك الليلة ، كانت محاسن نصار ترقص وتبكي . كانت وهي ترقص تتذكر حبيباً وترى طيفه ، من خلال دموعها المنهمرة على وجنتيها وهو يبتسم لها .. وكانت همساته تختلط مع الموسيقى لتنبعث لحناً محزناً رهيباً شجياً .. واسترسلت محاسن نصار بالبكاء وهي ترقص رقصات رائعة تعبر عما يختلج في قلبها من ألم وحزن وشجن وعذاب . وأبدعت في الرقص فعلا التصفيق في القاعة عالياً مدوياً .. وعندما انهت محاسن رقصها كانت قد أصبحت في حال عياء وعناء شديدة فأسرعت الى غرفتها من الملهى لترتمي على المقعد الرجراج الوثير وهي في حالة تفتت الاكباد ...

ووثبت اليها صديقتها المخلصة الوفية انعام تعانقها مهنئة

هامسة : « لقد ابدعت يا محاسن ابداعاً رائعـــاً . انا لم أر كِ ترقصين في حياتي مثلك الليلة » .

ولم تجب محاسن.لم تستطع ان تجيب بحرف . كانت الدموع تقطع على شفتيها سبيل النطق والكلام.وشاهدت انعام الدموع تنحدر بغزارة على وجنتي صديقتها محاسن فذعرت.وأمسكت بيدها لتقول : « هل عـدنا الى البكاء يا محاسن ؟ هل عدنا الى الذكريات المؤلمة الدامعة يا حبيبتي ؟ ألم نتفق على النسيان؟ يجب أن تنسي يا محاسن ، يجب أن تبتعدي عن ذكرياتك الرهيبـة يا حبيبتي، يجب أن تبعدي طيف حبيب مرزوق عنك يا اختي»

فهمست محــاسن من خلال دموعهـــا : « لا أستطيـع ، لا استطيع ذلك يا انعـام . ليتني استطيع النسيان ، ليتني أستطيـع أن أتخلص من هذه الذكريات العاصفة الهـادمة.ليتني استطيـع أن أبعـد طيف حبيب عني ، اذن لكنت بألف ألف خير » ..

وعادت الى الدموع تنغمس فيها ، فتمتمت الراقصة انعام : « محاسن !.. كوني عاقلة يا اختي . ان المستقبل أمامك مشرع الأبواب. ما لك إلا أن تدخلي اليه وأنت مرفوعة الجبين مطمئنة الفؤاد .. الشهرة والمجـد ينقادان اليك ، والمـــال منثور تحت قدميك . انت فنانة عظيمة يا محاسن . الليلة ، وقد شاهدتك في رقصك الرائع أدركت أنك تتربعين من الفن في القمة العالية الشماء. كلنا معشر الراقصات هنا دونك فناً وحسناً وإبداعاً ».

فسحت محاسن دموعها وهمست : « أنت على خطأ يا انعام.

أنا لم ابدع في رقصي . الذي أبـدع هو الألم الكامن في قلبي . لقد قيل : ان الفنان لا يبـدع إلا إذا تألم ، إلا اذا بكى وتأوه وأنّ وأثخنته الجراح .. وأنا أتـألم الآن وأبكي ويكوي الأنين شفتي وتحرق الجراح قلبي » .

فعادت الراقصة انعام تمسك بيد صديقتها محاسن لتقول : « محاسن .. يجب أن تكوني شجاعـة في مجابهة الاحـداث . يجب أن تنتصري على الألم بالأمل. الأمل وحده يساعد الانسان على الانتصار في جميع ميادين الحياة . تذرعي بالأمل يا محاسن وأنا كفيلة لك بأنك ستتخلصين من دموعك ومن آلامك ومن عذابك ومن أنينك .

وصمتت محاسن . قد تكون انعام على حق ، إن الامل سلاح مرهف شديد ضد الآلام والدموع ، ولكن .. ولكن هل بقي لها أمل تتذرع به .. هل ثمـة ذرة صغيرة من أمل واهٍ ضئيل في فؤادها ؟ لا . لا آمالها كلها اندثرت في مهب الهواء . اي أمل تستطيـع أن تعيش به وقد توارى عنهـا حبيب القلب والروح ؟.. اي أمل تستطيـع أن تحتمي في ظلاله ، وقد هدم أبو العز جميع تلك القصور ، قصور الآمال والأماني التي بنتهـا مع حبيب مرزوق ؟.. لقد فقدت محاسن آمالها ، وهي تعيش الآن في آلامها فقط ..

وبـدأت الدموع تتأهب للانحدار مجـدداً على وجنتي محاسن . واذا بأبي العز يطل عليها ، ويرمق انعام بنظرة رضى وارتياح وكأنه يقول لها: « ساعديني عليها .. » وتقدم ابو العز

من محاسن والابتسامة الماكرة تشع على شفتيه ، ليقول : « تهاني الحارة يا محاسن على هـذا النجاح الباهر والتفوق البعيد . ان الجمهور في القاعـة يضج مطالباً بعودتك الى المسرح ، اسمعي ، اسمعي التصفيق يتجاوب صداه في انحاء القاعة يا محاسن. اسمعي يا حبيبتي . تعالي . تعالي الى المسرح . تعالي » ..

ونظرت محاسن الى ابي العز نظرة حقد واحتقار وتمتمت : « لا .. انا لن اعود الى المسرح . لن ارقص سوى مرة واحـدة كل ليلة » قال : « ولكن الجمهور يطالب بعودتك الى المسرح يا محاسن » قالت بغضب .

« لا . لن اعود » .

قال : « لا اخالك تجهلين اصول العمل في هذا الملهى وقـد عملت فيه السنين الطوال. يجب أن ترقصي ثلاث مرات كل ليلة. واذا طالب الجمهور بعودتك مرة رابعة او خامسة او سادسة . وجب عليك أن تنزلي عنـد طلبه » فهدرت محاسن : « انا لن ارقص سوى مرة واحدة . مرة واحدة فقط . هـل يعجبك هذا ؟. » وكانت على غضب شديد، فأخافه غضبها.وهمس بكل رقة واتضاع : « ولكن.. انت تعلمين يا محاسن ان الجمهور عنيد ويجب مراعاة عناده . هو سيحطم كل مـا في الملهى من موائد وزجاج اذا تحدينا شعوره ».فادارت له ظهرها بخفـة ودلال وتمتمت : « فليفعل ما يطيب له . انا حرة . لن اعود ثانية الى الرقص » .. وغمز ابو العز الراقصة انعـام غمزة لهـا ألف معنى ومعنى وألف لون ولون وهمس في اذنها : « انعام .. ارجوك ان

تساعديني عليها » .. ونزلت انعام عند غمزة ابي العز ورجائه . وتقدمت من محاسن تمسك بيدهـا لتقول : « محاسن . يجب ان تقومي بعملك على اكمـل وجه يا اختي . الاخلاص في العمل من اول الواجبات . اخلاصك لعملك يحتم عليك العودة الى المسرح اكراماً لجمهورك الذي يحبك ويقدرك ويعطف عليك » .

وزمجرت محاسن : « انا حرة. لا اريد أن اعود الى الرقص. لا اريد .. لا اريد . اليكم عني . مـاذا تريدون مني ؟ انا حرة . افعل ما اريد ساعة اريد . هـل فهمتم ؟. » ودهشت انعام . ووجم ابو العز . فهما لم يشاهدا محاسن يوماً في مثل هذه الثورة الجامحة الهوجاء .. وازداد ابو العز وجوماً وهو يشاهد الراقصة تقترب منه صارخة في وجهـه : « اخرج من غرفتي . اخرج . اخرج . انا لن ارقص إلا مرة واحدة في ملهاك كل ليلة . هـل يعجبك هذا الشرط ؟ اذا لم ينل شرطي هذا اعجابك فلك ان تفعل ما يطيب لك » وكانت مخيفة وقـد بلغت من الغضب الذروة فراح صالح ابو العز ، يطيب خاطرها محاولاً تهدئـة غضبها .وهمس : « محاسن .. انا لا اريـد اغضابك يا حبيبتي . ليكن ما تريدين يا محاسن . ليكن ما تريدين يا حبيبتي . انا لن اخالف لك امراً . لـك ان تأمري ، وعلى ابي العز أن يطيع الاوامر السامية العصماء » . وجلست على المقعد الوثـير لتتمتم : « تفضل اخرج من الغرفـة . اريـد أن انزع ثيابي » وهمس : « امرك يا ستي . انا تحت امرك . حاضر .. حاضر ..

وخرج ابو العز. ولم ينسَ ان يرمق انعام بنظرة سريعة قبل

أن يغادر الغرفة وكأنه يقول لها: « اعملي على تهدئة خاطرها ».

وتقدمت انعام من صديقتها الحميمة محاسن ، وقد خلت لهما الغرفة لتقول : « محاسن . لا تثوري ، ولا تغضبي . مهلاً يا محاسن ، مهلاً يا اختي . الثورة الجامحة ترهق اعصابك وتزيد من وهنك وعيائك. تعالي . تعالي معي يا محاسن . تعالي يا اختي لنخرج من هذه الغرفة الضيقة الى القاعة ، تعالي . تعالي » .

ونهضت محاسن لتنزع عنها ثياب الرقص وترتدي ثيابها على مهل .. ووقفت انعام قربها تمازحها وتسايرها وتسامرها محاولة تهدئة ثورتها الجارفة الهوجاء .. وامسكت انعام بيد صديقتها ، وقد انتهت الصديقة من ارتداء ثيابها ، لتقول : « تعالي . تعالي معي الى القاعة . المعجبون بك كثيرون وهم ينتظرونك بفارغ صبر تعالي يا حبيبتي تعالي ».وسارت محاسن برفقة الصديقة المخلصة الوفية ، وخرجتا معاً الى القاعة الفسيحة الارجاء . وكانت القاعة تزدحم بالزبائن الكرام ، فما ان شاهدوا محاسن تدخل عليهم حتى راحوا يصفقون لها بحماسة واشتياق .. ورفعت محاسن يدها تحييهم والابتسامة الصفراء تلوح على شفتيها الذابلتين .. ودعاها البعض منهم الى مجالسته إلا انها اعتذرت ، وسارت مع انعام الى آخر القاعة لتجلس وراء طاولة صغيرة .. واذا بالخادم يقبل نحوهما ليهمس في اذن محاسن: «سليمان بك يدعوك اليه» وهمست محاسن بلا مبالاة : « لن اذهب اليه . سلم لي عليه » .. ودهش الخادم ، ودهشت ايضاً انعام ، ومحاسن تعلن انها لن تلبي دعوة سليمان بك ..

سليان بك يدعوها لمجالسته ، وترفض الدعوة ؟

يا لها من مجنونة بلهاء . اي راقصة ، اي فنانة ، اي مطربة في ملهى ابي العز تتمنى ان تجالس سليمان بك وان تحسو معه الخمر ، وأن تنعم بهداياه الثمينة الغالية ..

وسليمان بك رجل في زهاء الستين من العمر . الا انه أنيق الى ابعد حدود الاناقة ، وسخي الى ابعد حدود السخاء . وهو غني ، غني جداً ، كلما شرف ملهى ابي العز بزيارة نثر الأوراق النقدية على الحسان وعلى الخدم . وهو لطيف المعشر ، حاضر النكتة ، حلو الحديث ، ما زال قلبه الاخضر الريان ينبض بالحب وبالهوى ، وبالشباب . ولذلك فما ان يصل الى ملهى ابي العز حتى تثب بنات الملهى وخدمه اليه يرحبون به شديد الترحيب ويسمعونه كلام الاكرام والتقدير. وتقيم كل « بنت » من بنات الملهى على انتظار محض مقلق حائر ، فهي تنتظر ان يدعوها سليمان بك الى مجالسته والى حسو الخمر معه . و«البنت» السعيدة هي التي يختارها سليمان بك لمجالسته . فهو ينفحها بالخمر بلا حساب ، لها ان تشرب على قدر ما تستطيع ، زجاجة ويسكي ، زجاجتان ، ثلاثاً ، أربعاً ، خمساً ، عشراً .. وأبوالعز يدفع الثمن بكل طيبة خاطر . ثمن كل زجاجة مئة وعشر ليرات لبنانية . وحصة « البنت » الشاربة في كل زجاجة زهاء عشرين ليرة لبنانية .

كل سهرة مع ابي العز تجني ابنة الملهى منها مئات الليرات، هذا اذا لم يجد عليها سليمان بك بخاتم او بسوار ، او بعقد ثمين..

هواية سليمان بك كانت الانفاق بسخاء على بنات الليل .. وكان سليمان بك يقول لاصدقائه الذين ينصحونه بالاقتصاد والتقتير ، كان يقول لهم : « بنات الليـــل بائسات فلينعمن بأموالي .. خير لي ان انفق هذه الاموال في حياتي على هؤلاء البائسات من ان انفقه على موائد القمار ، او في ميدان السباق ، او ان اتركه بعد موتي للورثاء ، ينفقونه على المعاصي والشرور ، ويلعنون التراب الذي دفنت فيه .. هذه كانت فلسفة سليمان بك . هو يريد ان ينفق ماله على البائسات من بنات الليــل اللواتي يشترين خبزهن بدموع عيونهن ».

وهمست انعام في اذن محاسن ، وهي تسمعهـا ترفض دعوة سليمان بك : « يا مجنونة ، أيدعوك سليمان بك اليــه وترفضين الدعوة السمحاء .؟..أنسيت من هو سليمان بك ؟..»

ولم تجب محاسن ، لم ترد على صديقتها انعام بحرف ، بل هي اكتفت بأن تنفث دخان اللفافة في الفضاء ، وتنظر من خــلال زجاج النافذة الى النجوم التي ترصع كبد الفضاء وكأنها لم تسمع ما تقول انعام ..

وكان الخادم لا يزال واقفاً قربها على حيرة ودهشة ووجوم فتمتم : « ماذا تريدين ان اقول له يا ست محاسن ؟ » وزعقت محاسن بغضب : « ألم تسمع ما قلت لك ؟ سلم لي عليه » قــال الخادم محاولاً اقناعها بتلبية الدعوة، وهو لا يجهل ان تلبية تلك الدعوة ستعود عليه بالربح الوافر . سليمان بك لن يضيع لـــه أتعابه بل هو سيمنحه في آخر السهرة ، كعادته ، بورقــة نقدية

محترمة .. قـــال : « يا ست محاسن ان سليمان بك زبون سخي الكف . جميع فنانات الملهى بتمنين ان يجالسنه وأن يحتسون الخمر معه » . قالت ، وقد اشتد بهـــا الغضب : « انا لا اطلب نصيحتك الغالية » . قلت لك بلغه سلامي .. انا لن ألبي دعوته ، فليبحث عن فتاة غيري في هذا الملهى » ..

وانصرف الخادم وهو يتمتم : « مجنونة .. مجنونة ..» وعاد الى سليمان بك ليقول بأسف وحيرة واضطراب : « الست محاسن تعتذر عن تلبية دعوتك الليلة يا سليمان بك » . وفتح البيك فمه دهشة وهمس وكأنه لا يصدق ما يسمع : « تعتذر عن تلبيـــة دعوتي ؟.. ماذا تقول ؟»

قال الخادم : « لقد قالت لي ، سلم لي عليه قال سليمان بك : « أتكون على ارتباط بموعد مع احد الزبائن ؟ » . قال الخادم : « لا اعلم يا سيدي . ولكن يخيل الي انهـــا على قلق وحزن واضطراب . لا أعلم ما بها يا سليمان بك . انها لتجلس هناك في الزاوية البعيدة قرب صديقتها انعام ». وهمس سليمان بك: «طيب طيب .. شكراً » .

وذهب الخادم ، وهو يلعن في نفسه هـــذه الراقصة المتمردة الحرون .. والتفت سليمان بك الى مرافقيه يعتذر منهم قائلاً : « ارجو المعذرة . سأعود اليكم .. يمكنكم ان تتناولوا مـــا تريدون من الشراب ومن الطعام. سأعود اليكم بعد قليل » ..

ونهض ، واتجـــه الى الزاوية البعيدة ، الى حيث تجلس الراقصتان الحسناوان محاسن وانعام. وتقدم منهما ، والابتسامة

تشع على شفتيه .. واقترب من محاسن قائلا : « مساء الخـــير يا ست محاسن » .

ووقفت انعام تقول ، والدهشة تعقد لسانها: سليمان بك؟. أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا ، أتتنازل وتحضر بنفسك الينـــا اهلا وسهلا .

وهمست محاسن وهي لا تزال في جلستها في شرود ذهنها : « اهلا وسهلا يا سليمان بك » . وتمتم البيك : « هل تسمحين لي يا محاسن بالجلوس قربك ؟ » ولم تجب محاسن لا بأجل ولا بلا وتولت انعام الجواب ، قالت : (انه لشرف كبير تحيطنا بـه يا سليمان بك . تفضل تفضل » . وقدمت له المقعـــد ، فجلس سليمان بك قرب محاسن ليقول مازحاً : دعوتك اليّ فأرسلت لي سلامك الميمون ، أكثر الله خيرك .

وضحكت انعـام ، وابتسمت محـاسن .. وأكمل البيك كلامه قـال : « أنا لم أكتفِ بالسلام ولذلك فقـد جئت اليك بنفسي يا محاسن ؟.. هل يضايقك جلوسي قربك ؟ » .

وارتسمت على شفتي محاسن ابتسامة هادئـة . وهمست : « أهلا وسهلا يا سليمان بك » . فصفق سليمان بك طالباً حضور الخادم ..

وأسرع الخادم الكريم لينحني أمـام البيك هامساً : « أمر يا سليمان بك ؟ » . والتفت البيك الى محاسن ليقول : « مـاذا تشربين يا محاسن ؟.. ويسكي ؟.. أليس كذلك ؟ أنا اعرفك من نصيرات الويسكي » . وهمست محاسن : « لا يا سليمان بك.

لا .. لا أريد شيئاً » .

وأطلت الدهشة واضحة جلية من عيني البيك . هـذه هي المرة الاولى في حياته التي يسمع فيها مثل هذا الكلام من احدى بنات الملاهي .. وهمس : « ألا تريـدين ان تشربي الويسكي ؟.. ماذا تشربين اذن ؟.. شمبانيا ؟ » . واتسعت الابتسامة الهادئة على شفتي محـاسن نصار .وهمست : « لا .. ولا شمبانيـا يا سليمان بك » .

وازداد سليمان بك دهشة ووجوماً..وتمتم: « لماذا يا محاسن؟ لـماذا يا ابنتي ؟ قالت : « شكراً يا سليمان بك . يكفيني لطفك وحنانك وعطفك عليّ » .

وعضت انعام على شفتها السفلى حتى كادت تدميها. والتفتت الى محـاسن لتقول : « لا يجوز ان ترفضي طلب سليمان بك يا محاسن . هذه اهانة . يجب ان تتناولي شيئاً معه » .

قال البيك مازحاً : « ان انعام تحبني اكثر ممـا تحبينني انت يا محـاسن أهكذا تخجلين تواضعي ، وترفضين ضيافتي ؟ قولي يا محاسن . ماذا تشربين ؟ » . والتفتت محاسن الى الخادم الذي كان يقف أمامهم والحنق يستبد به ، لتقول: « هات فنجان قهوة يا عبده » ..

وعقدت الدهشة لسان البيك . هل هنـاك راقصة في ملهى تحسو القهوة مع الزبائن الكرام ؟ وحنقت انعام حنقاً شديـداً وهي تسمع محاسن تطلب فنجـان قهوة . وذعر الخادم . ماذا تقول الراقصة محاسن ؟.. أيكون في حلم ؟.. أتجالس سليمان

بك ، وتطلب فنجان قهوة ؟.. أتكون مجنونـــة ؟.. وقـال سليمان بك مازحاً : « هل تبت الى الله عن تناول الخمر ؟ » .

قالت : « الخمر يضر بصحتي يا سليمان بك، وقد نهاني الطبيب عن حسوه » .

قال : « كما تريدين يا ابنتي » . قال البيك هذا ، والتفت الى انعام ليقول : « وأنت يا انعام ؟.. مـاذا تشربين ؟ » . وقبل أن تجيب انعام التفتت محاسن الى سليمان بك لتقول : « وإنعام ايضاً تتناول معنا فنجان قهوة » .

وغضبت الراقصة انعام . ورفست صديقتها انعـام برجلها تحت الطاولة الصغيرة . وكادت تقول : لا .. أنا سأشرب الويسكي . إلا انهـا خشيت غضب محاسن فاكتفت بأن تطلق ابتسامة واهية صفراء وتلوذ بالصمت .. وتمتم البيك : « وإنعام ايضاً أصبحت من نصيرات القهوة ؟.. طيب ، هـات فنجاني قهوة يا عبده للست محاسن وللست انعـام . وكأس ويسكي لي أنا » . واعترضت محاسن قـــائلة : « لا يا سليمان بك . انت ستشرب ايضاً القهوة معنـا . لا يجوز ان نشرب نحن القهوة وتشرب انت الويسكي . ستشرب مـــا نشرب قهوة » . قالت محاسن هذا والتفتت الى الخادم لتقول : « ثلاثـة فناجين قهوة يا عبده » .

وكاد الخادم يختنق في غيظة . ثلاثـــة فناجين قهوة بثلاث ليرات .. لقـــد كان باستطاعة الراقصة محاسن أن تحسو مع زميلتها وسليمان بك عشر زجاجات ويسكي .. عشر زجاجات

ويسكي بألف ومئة ليرة لبنانية .. لقـد خسر الملهى وخسرت الراقصتان وخسر هو ايضاً . يا لها من فتاة بلهاء.. وسار الخادم يجر اذيال الخيبة والفشل . سار الى صاحب الملهى ، الى ابي العز. هو سيشكو الراقصة محاسن الى ابي العز ، وستكون وقعتهـا سوداء . ان خسارة ابي العز ستكون كبيرة . عشر زجـاجات ويسكي ربحها معروف . هو زهاء ثمانمئة ليرة لبنانية ، والويسكي التي تحسوها البنات في الملهى ممزوجـة بالشاي . كان باستطاعة ابي العز ان يربح ثمانمئة ليرة لبنانية في مجالسة انعـام ومحاسن سليمان بك . مسكينة محاسن . ابو العز سيخرب بيتهـا ، اذا وقف على الخبر المؤلم الرهيب ...

وكان ابو العز جالساً وراء « البار » عندما وصل اليه الخادم وهو يتمتم كلمات تنم عما في صدره من غضب وحنق .. وسأله ابو العز : » ما بك يا عبود ؟ » . وتمتم عبود : « الست محاسن ستقضي على هذا الملهى بالخراب وتقضي عليك بالافلاس يا ابا العز». وتمتم ابو العز : « لماذا يا عبده ؟ » ..

قال: « انها لتجلس الآن مع سليمان بك ». قال : « عال.. » قال عبده : « اي عال » . هو هذا ؟.. هل تعلم مـاذا طلبت الست محاسن ؟ » . فسأل ابو العز : « ماذا ؟ » . قال الخادم : « فنجان قهوة » .

فدهش ابو العز وتمتم : « ماذا تقول ؟ طلبت فنجان قهوة ؟ هل يخيل اليها في نادي للعائلات المحترمـة ؟ » . قـال الخادم : « ليت المصيبة توقفت عند هذا الحد ، اذن لهان الامر » . قال

ابو العز : « أكمل .. اكمل ، ماذا بعد ؟ » .

قال عبده : « لقد ارغمت انعام وأرغمت سليمان بك على تناول القهوة معها » . فضرب ابو العز كفاً بكف وزعق : « يا خراب بيتي انا سأعرف كيف اتدبر امرها.سأقصف عمرها وأخمد انفاسها وأقضي عليها » ..

وانصرف الخادم وهو يشتم محاسن ويمطرها بوابل من اللعنات .. وحمل القهوة الى الثلاثة، الى سليمان بك والى محاسن والى انعام والحنق يعصف به والحقد يكاد يخنقه .. وراحت محاسن ترشف القهوة وتدخن وتساير البيك وتمازحه ، في حين أقامت انعام على صمت وغضب واضطراب .. وجلس ابو العز وراء « البار » يراقبهم والغضب الشديد يعصف به .. وخيل لأبي العز ان محاسن ستعود الى رشدها وتطلب زجاجة ويسكي إلا ان محاسن خيبت الامل . فهي لم تتنازل وتطلب شيئاً..لا ويسكي ولا شمبانيا ولا حتى كأس عرق او زجاجة جعة صغيرة .. وانتصف الليل والثلاثة ما زالوا في جلستهم الهانئة.. وتبرم ابو العز وتأفف . ونادى الخادم اليه ليقول له : « قل للست انعام انني بحاجة اليها . فلتحضر الي الآن فوراً » وسار الخادم الى « الست » انعام ليهمس في اذنها : « ابو العز يدعوك اليه » .

وهمست انعام : « انني قادمة ».وعاد الخادم ادراجه ، ونهضت انعام لتقول : « ارجو المعذرة يا سليمان بك . انني مضطرة للانصراف » وهمس البيك : «مع السلامة يا ست انعام»

وسارت انعـــام .. سارت الى ابي العز .. واستقبلها ابو العز بالغضب الشديد . وصرخ بهـــا : « ايخيل اليك والى صديقتك محاسن انكما في ضيافة احدى الصديقات العزيزات . تطلبان القهوة لترشفاها على مهل ، بكل وقـار وتهذيب واحترام ؟. »
وتمتمت انعام : « ما هو ذنبي انا ؟.. محاسن ارادت أن تشرب القهوة . لقد حاولت أن اطلب زجاجة ويسكي إلا أنهـا حالت بيني وبين مـا اردت » فهدد ابو العز : « والله لأقصفن عمرها . اذهبي انت الآن وابحثي بين الزبائن الكرام عن « الرزقـة » .. لقـــد انتصف الليل وانا لم اجنِ ليرة واحدة . لا منك ولا من محاسن النحس » ..

وسارت انعام باحثة بـــين الزبائن عن صديق يجود عليها بكأس ويسكي .. ولم يطل بهـــا البحث فالمعجبون كثيرون والاسخياء عديدون ... ومرت انعـــام بأحد الشبان الاثرياء مبتسمة له وابتسم الشاب لهـا ووقف ليقول : « تفضلي يا ست انعام تفضلي وخذي معي كأس ويسكي » ألف غرض مثل هذا الغرض . وجلست انعـــام قرب الشاب وراحت تحسو الخمر وتسايره وتسامره وتتودد اليه ، في حين مضت محاسن في جلستها قرب سليمان بـــك وهي تدخن وتستمع الى حديث البك ، وافكارها ، هناك في القرية الباسمة الخضراء ، عند حبيب القلب والروح ..

واشرفت الساعة على الثانية بعد منتصف الليـل فبدأ رواد الملهى العامر ينصرفون وقد افرغوا كل ما في جيوبهم من مال .

والتفت سليمان بك الى محاسن ليقول: « محاسن !.. انت يا ابنتي وفرت على الليلة زهـاء الف ليرة كنت اريد ان انقدها للخادم ثمن خمر .. هذه الليرات الالف هي من حقك يا محاسن.. خذي، هذه عشر ورقات نقدية كل ورقة من فئة مئة ليرة لبنانية » .

ونثر سليمان بك امام محاسن الورقات العشر ، إلا أن محاسن لم تمد اليها يداً . بل هي نفثت دخان اللفافة في الفضاء والتفتت الى سليمان بك لتقول : انني لاشكر لك سخاءك وكرم خلقك يا سليمان بك واعتذر عن قبول هبتك هذه .

وارتسمت الدهشة جلية في عيني البيك . هل هناك راقصة في العالم ترفض مثل هذا المبلغ الرجيح ؟.. وعادت محاسن الى الكلام بعد صمت قصير لتقول : « الفقراء احوج مني الى هـذا المبلغ يا سليمان بك. هناك كثيرون ناموا هذه الليلة بدون عشاء. وهناك كثيرون لا يستطيعون أن يناموا لأن الاوبئة والامراض والآلام تعذبهم وهم لا يملكون ثمـن دواء .. هناك يتامى ليس لهم في هذه الحياة إلا رحمة ابناء الخير . فلماذا لا نكون نحن من ابناء الخير ؟.. انني لارجوك يا سليمان بك ان توزع هـذا المبلغ باسمي على الفقراء المحتاجين » .

وتحولت الدهشة في عيني سليمان بك الى وجوم . ماذا تقول هذه الراقصة الحسناء .

من هي هذه الفتاة الجالسة قربه؟.. اتراها راقصة في ملهى، ام انها راهبة في دير ؟.. وساد الصمت بينهما . وراح سليمان بك يفكر بما تقول هذه الراقصة الحسناء : « هناك فقراء ناموا هذه

الليلة بدون عشاء. وهناك مرضى لا يملكون ثمن الدواء الشافي» .
هذا صحيح . وهؤلاء الفقراء والمرضى البؤساء احوج من بنات الليل ومن اصحاب الملاهي ومن تجار الخمور الى المال .. ومــاذا قالت محاسن ايضاً ؟.. قالت: لماذا لا نكون نحن من ابناء الخير؟ صحيح ، لماذا ؟

وامتدت يـــد سليمان بك الى الاوراق النقدية تجمعها عن الطاولة ؟.. وهمس : « محاسن !.. انت قديسة يا ابنتي. مكانك ليسّ هنا في هذا الملهى الماجن الصاخب المجنون ، مكانك هناك في دار الزوجية ، لو لم اكن في عمر والدك لامسكت بيدك الآن وسرت بك الى داري زوجة مكرمة مصوناً . انت على حق يا محاسن . يجب أن تكوني من ابناء الخير . كلامك هــذا نزل من قلبي في الصميم . وهـــذا المبلغ سأوزعه باسمك على الفقراء . وسأرصد مبلغاً مثله ، الف لـــيرة كل شهر اوزعها على اليتامى الفقراء المعوزين . لقد انار كلامك امامي السبيل الى الخير ، فلينر الله سبيلك يا ابنتي الى السعادة والهناء » .

ونهض سليمان بك يودع الراقصة محاسن ويسير من ذلـــك الملهى العـــامر الفسيح .. وظلت محاسن في جلستها تدخن وتنظر عبر النافــذة الى النجوم المتبخترة على مسرح الفضاء على تيه وغنج ودلال .. وعادت الذكريات تداعب فؤادها وتغمر روحها الهائمة الولوع وهي تستعرض نجوم السماء . هــذه النجوم الساطعة الزاهية المتلألئة كانت تلوح لعينيها ولعيني حبيبها حبيب مرزوق عندما يجلسان معــاً على « سطيحة » داره كل ليــلة ..

ترى هل يشاهدها الآن حبيب كما تشاهدها هي ؟.. وهل ينظر اليها كما تنظر اليها هي؟. لقد تغيرت حالها هي. وتغيرت الايام، وانقلبت سعادتها الى حزن وألم ودموع وشقاء ، وظلت النجوم في السماء كما هي ، لا تتغير ولا تتبدل ولا تغيب إلا لتعود الى الظهور .. وهمست محاسن وهي تستعرض : « ايتها النجوم . يا سميرة العشاق ورفيقة الليل الطويل سلمي على حبيب » .. وبدأت الدموع تتدحرج على وجنتيها النديتين الجميلتين ..

وضاعت محاسن نصار عن حقيقتها وهي تستعرض النجوم وتبكي وتفكر بحبيبها .. ولم تستفق من شرود ذهنها إلا على صوت انعام يناديها : « محاسن !. هل ذهب سليمان بك ؟ » .. وانتفضت محاسن ، والتفتت الى صديقتها انعام لتمسح دموعها وتهمس : « سليمان بك ؟ هذا هو اول زبون يطير من ملهى صالح ابو العز .. العقبى للزبون الثاني » ..

وجلست انعام قربها لتمسك بيدها هامسة : « محاسن !.. لماذا فعلت هكذا ؟ لماذا لم تتناولي الخمر مع سليمان بك ؟. مهمتنا يا اختي تنحصر في حمل الزبائن على الانفاق . نحن نأكل خبزنا من هذا الملهى وعلينا أن نحرص على مصلحته » وهمست محاسن : « نأكل خبزنا من هذا الملهى ونبذل دموعنا . في هذا الملهى خبز ودمع ليتنا يا انعام لا نأكل الخبز ولا نسكب الدمع . ترى هل يوازي الخبز الذي نأكله كل هذه الدموع التي نسكبها يا اختي؟».

وتمتمت انعام : « انهضي يا محاسن ، انهضي يا اختي الملهى يكاد يقفر من الزبائن ، والليل سار شوطاً بعيداً في الطريق ،

والفجر أشرف على البزوغ . يجب ان نعود الى دارنا . تعالي .. تعالي يا محاسن ». ونهضت محاسن .. ودخلت الراقصتان الى غرفتها لتحمل كل منها حقيبتها وتخرجان . وسارتا نحو باب الملهى .. واذا بأبي العز يعترض سبيلها ، والغضب الشديد يطل من عينيه .. ووثب ابو العز الى محاسن ليقول : « ماذا فعلت يا ست محاسن الليلة ؟.. لماذا لم تطلبي الويسكي عندما كنت تجالسين سليمان بك ؟ »..

ورمقت محاسن ابا العز بنظرة هزء وسخرية دون ان تجيب بحرف .. وأمسك ابو العز بكتفها يهزها ويقول: « ما دمت مغرمة بالقهوة الى هذا الحد، فلماذا لا تعملين خادمة وتقدمين القهوة للزبائن وتشربين فضلاتهم » . ورفعت محاسن يد ابي العز عن كتفها وهمت بالمسير ، الا ان ابا العز عاد يعترض سبيلها ليصرخ بها : « لماذا لم تشربي الخمر مع سليمان بك ؟ اريد ان اعلم لماذا ؟ » . قالت : « انا حرة ، أشرب ما اريد ساعة اريد » .. قال ، وقد اشتد به الغضب : « لا.. انت لست حرة. ما دمت تعملين في هذا الملهى يجب عليك ان تقومي بواجبك على اكمل وجه . كيف تريدينني ان أنقدك مرتبك آخر الشهر وأنا لا أجني من وراءك ليرة واحدة ؟ ».وبلا مبالاة. أجابت ايضاً: « وأنت ايضاً حر . اذا كان عملي لا يرضيك ما عليك الا ان تطردني من ملهاك الكبير » .

وكان الغضب قد بلغ حده الاقصى في صدر ابي العز فصرخ بها : « مجنونة .. هل يخيل اليك ان ابا العز لعبة بيدك؟ لا والله



لا يغرنك من ابي العز لطفه ولينـــه وحلاوة لسانه . انا لن اطردك من هذا الملهى ، ولن اتخلى عنك . انت ستعملين في هذا الملهى طيلة ايام حياتك . وستتقيدين بقوانين العمل وبشروطـه والويل ثم الويـــل لك اذا حاولت التمرد والعصيان .. والله لأسحقن رأسك سحقاً اذا أعدتها مرة ثانية . اكثر من ألف ليرة لبنانية ضاع علي الليلة بسببك يا فاجرة » ..

وتحول الهدوء في صدر محاسن الى غضب ، فتقدمت من ابي العز لتقول بغضب شديد : « اسمع يا ابا العز . لا تحاول ان تلعب بالنار ، انت لن تستطيع ان تمد سلطانك علي بعد الآن . الايام الآفلة مضت ولن تعود . انا حرة الآن . اعمل ما اريد . اشرب الخمر ، اشرب القهوة ، لا اشرب شيئاً ، حرة .. وليس لك ان تعترضني ولا ان تصدر اوامرك . هل يعجبك هذا ؟.. اذا كان ذلك لا يعجبك فقل لي الآن .. اول الطريق ولا كله».

فزعق ابو العز : « لا ، هذا لا يعجبني ولا يرضيني ، والويل ثم الويل لك اذا لم تنزلي عند اوامري » . وقابلت محاسن ثورة ابي العز بالمثل ، فوثبت اليه تقول : « لن انزل عند اوامرك تستطيع ان تفعل ما يطيب لك »..

وأمسك ابو العز بيدها على غضب . وكاد ينهال عليها بالضرب ، الا ان انعام وقفت بينهما ، وراحت تلاطف صاحب الملهى وتعمل على التخفيف من حدة غضبه . وأمسكت بيده ، تبعده عن محاسن لتهمس في اذنه : « خفف عنك يا ابا العز والطف بها . هي ثائرة الآن . غاضبة .. الكارثة النازلة بها أضاعت صوابها وأثارت اعصابها . انني لأخشى ان تهرب منك اذا قسوت عليها » . وهمس ابو العز : « لا تخافي . هي لن تهرب . انا الآن لا . اخشى ان تفلت من يدي بعد ان تخلى عنها حبيبها . كنت اخشى ان اضيعها وأفقدها يوم كانت قرب حبيب مرزوق ، اما الآن فهي في قبضة يدي ، ولن تستطيع الافلات ».

قالت انعام : « ان اللين معها اجدى وأنفع يا ابا العز ، هي ستأتمر بأوامرك . واذا كانت قد ارتكبت هذه الهفوة الليلة ، فهي لن تعيدها...هذه الهفوة ولن تتكرر مرة ثانية ، انا أعدك بذلك » .

وصمت ابو العز .. وهمست انعام : « تصبح على خير » .. وتمتم : « تصبحين على خير » .. وسارت انعـــام .. وكانت محاسن قـــد سبقتها الى السيارة ، فوثبت انعام الى السيارة الأنيقة لتجلس قرب محاسن ، وتهمس : « لم يكن لك ان تغضبي ابا العز يا محاسن . انه رجل طيب القلب » . وابتسمت محاسن ابتسامة هازئة ، وتمتمت : « مسكين .. مسكين .. » قالت انعام : « لقد وعدته بأنك لن تعيديها مرة ثانيـــة . في الليلة المقبلة ستشربين الخمر مع الزبائن الكرام وتعوضين عليـه خسارته الليلة » . وتمتمت محاسن ، وهي تدير محرك السيارة: « طولي بالك يا انعام علي .. انا سأخرب بيته . انني ما زلت في اول الطريق معه . اذا أبقيت على هذا الملهى فليأخذ الله عمري. ان انتقامي سيكون رهيباً يا انعام . ابو العز هـــذا سيصبح ، بفضل اختك محاسن متسولاً معدمـــاً فقيراً ، لا يملك شيئاً من حطام هذه الدنيـــا ». وانطلقت السيارة بهما ، تشق شوارع بيروت المقفرة ، وقد قارب الفجر البزوغ الى الدار، الدار القائمة من شارع الحمراء في الصميم .

٢٣
العاشق الحيران

حبيب مرزوق جالس على ـ سطيحة ـ داره المتواضعة يدخن ويفكر .

فهو قد اتجه الى داره فوراً ، بعد ان خرج من دار الخوري الياس ، ذلك المساء ، وجلس على المقعد الخشبي على السطيحة يفكر بكلام الأب الياس . ماذا قال الأب الياس ؟ لقد قال له: « تستطيع يا ابني ان تتزوج من الراقصة محاسن دون ان ترتكب خطيئة مميتة ».. وقال له ايضاً وهو يسأله النصيحة : « من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر » .. وماذا قال ايضاً الخوري الياس ؟. قال : « المهم هو ان تكون الراقصة التي تريد الزواج منها مهذبة . في قلبها روح الله وفي نفسها خوفه تعالى . وقد تكون هذه الفتاة مضطرة للعمل لتعيش او لتعيل اسرتها . قد تكون هذه الراقصة بحاجة الى شراء خبزها بدموع عينيها . الحياة خبز ودمع » يا بني . ومن يريد ان يأكل الخبز عليه ان يسكب الدمع . ما أمرّ الحياة وما اصعبها على مثل هذه الفتاة يا حبيب» .

هذا هو رأي الأب الياس .. والأب الياس على حق .. ان محاسن فتاة مهذبة . في قلبهـــا روح الله . فهو يستطيع ان يتزوج منها اذن وهو مطمئن البال مرتاح الضمير .. وماذا قال ايضاً الأب الياس ؟ قال : « قد تربح اجراً بانتشالك هـــذه الفتاة من بؤرة الفساد التي تعيش فيها » ..

هذا ما قاله الخوري الياس ، والخوري اليـــاس مطلع على اسرار الحياة وخفاياها وهو خبير في مثل هذه الامور ويستطيع ان ينير امامه السبيل الى الحق والصلاح .. ماذا عليه أن يفعل الآن ؟ هل يتزوج من محاسن ، ام يمضي في عناده ؟ هل يبتعـد عنها ؟ هل يسرع اليها ؟ ليس يدري ، ليس يدري ...

وطال جلوس حبيب مرزوق على — السطيحـة — المنبسطة امـــام الدار القروية تحت اغصان الاشجار الوارفة الظلال .. وكانت الشمس قد توارت وراء الافق البعيـد ، وبدأت النجوم ترصع كبد السماء، وبزغ القمر من وراء القمم العالية الشماء ساكباً نوره الفضي الجميل على تلك الوهـــاد والتلال والوديان . ونسيم الليل العليل يهب بارداً من وراء التلال . وتلوح في الفضاء قطع من الغمام الدكناء من حين الى آخر لتحجب القمر والنجوم عن الارض ، ثم تنقشع بعد قليل لتندفع مع الهواء في طريقهـــا الى الافق البعيـد ، وراح حبيب يستعرض القمر والنجوم والغمام ، وهو يفكر . انه ليفكر بمحاسن . اين هي محاسن الآن ؟ ماذا تفعل ؟ بماذا تفكر ؟ أتراها تفكر به كما يفكر هو بها ؟ هل هي حانقة عليه ؟ هل هي غضبى ؟

وطافت الافكار في رأس حبيب مرزوق على سرعة واندفاع. وكانت تلك الافكار شبيهة بمواكب الغمام المندفعة في الفضاء على سرعة وانطلاق .. ولم يستطع حبيب مرزوق ان يتخذ قراراً حاسماً . لم يستطع أن يقرر العودة الى محاسن ولم يستطع أن يقرر المضي في الابتعاد عنها ... لم يستطع أن يقرر شيئاً ...

الخوري الياس يدعوه الى الزواج من محاسن وانتشالها من بؤرة الفساد ومن غياهب الظلام ، ولكن . ولكن بشرط ان تكون محاسن مهذبة تخاف الله ، وتكون مستعدة لنسيان الماضي والسير في طريق جديد ، طريق الخير والبر والتقوى والصلاح .. فهل تستطيع محاسن ان تنسى الماضي ، وأن تعيش معه حياة جديدة ؟ هل تستطيع محاسن ان تسير في طريق البر التقوى والصلاح ! .

اجل . اجل محاسن تحبه ، هو متيقن من حبها . والحب كفيل بتذليل العقبات والصعاب ... اذن .. اذن ماذا ؟. ليس يدري ، ليس يدري ..

وإذا بوالدته تطل... وتقدمت الوالدة منه بخطوات متئدة ، والحنان يسبقها من عينيها اليه ، والقلق يستبد بها . فهي قد تعودت رؤية وحيدها في مثل هذه الجلسة الساهمة القلقة الحزين. كان حبيب يجلس دائماً مثل هذه الجلسة ليفكر ويدخن ويذرف الدموع ، وكانت امه تتعذب لعذابه وتتألم لألمه وتبكي لبكائه .

وتقدمت ام حبيب من إبنها لتقول : « حبيب ! .. قم يا ابني ، قم يا حبيبي . العشاء جاهز يا حبيب » .

وهمس حبيب : « لا اريد أن أتناول الطعام يا أمي . ليس لي شهية للطعام » . فجلست الأم البائسة قرب ابنهـا لتقول : « يا ابني يا حبيب يجب أن تضع حداً لهذه الحـال.يا ابني انت تسيء الى نفسك والى صحتك والي ايضاً . كفى يا ابني ، كفى تعذبني وتعذب نفسك يا حبيب » .

ولم يفه حبيب مرزوق بحرف ، بل هو مضى في صمتـه وفي وجومه ، وفي تحديقه بالأفق البعيد ...

وعادت الأم الى الكلام لتقول : يجب ان تبحث عن محاسن يا ابني وأن تتزوج منها » . لقـد أدركت تلك الأم ان ليس الا محاسن من يستطيع ان يعيد لابنها الهناء والسعادة والصفاء . وأم حبيب لا يهمها إلا راحة ابنها وسعادته وصحته. لا فرق لديهـا أتزوج حبيب من الراقصة محاسن ام من احدى بنـات القرية ، كل ما يهمها هو أن تريح ابنهـا وأن تبعد عنـه العنـاء والعياء والهم والحزن والدمع ..

ووجم حبيب مرزوق وهو يسمع كلام امـه . امـه ايضاً تدعوه للزواج من محاسن .. ليس الأب الياس وحده من هذا الرأي .. رأي امه ايضاً ينطبق على رأي الأب الياس . اذن.. اذن ماذا ؟. اذن عليه ان يتزوج من محاسن ..

والتفت حبيب الى امه ليسألها : « أتوافقين على زواجي من محاسن يا امي ؟ » . قـالت : « كل مـا يريحك يريحني يا ابني . وكل ما يسعدك يسعدني » .

قال : « اذن انت لا تمـانعين في زواجي من محاسن ؟ » .

قالت : « لا ابداً يا ابني . محاسن فتاة فاضلة . وهي ستسعدك وتعيد اليك الصحة والعافية والسعادة والهناء » .

قال حبيب : « هذا هو رأي الخوري الياس ايضاً » .

قالت : « وماذا تنتظر اذن » . قال حبيب والفرحة تغمر روحه : « انا سأشخص الآن . الآن في هذه الساعة الى بيروت، وأعود بمحاسن اليك وستكون حفلة الزفاف غداً. غداً يا امي». فارتسمت على شفتي ام حبيب ابتسامة هادئة صافية بيضاء . الحمد لله ، لقد عرفت شفتا حبيب الابتسام ، وعرفت روحه السعادة ، وعرف قلبه الطمأنينة والهناء . هي لم تشاهد ابنها في مثل هذه السعادة منذ ايام بعيدة . منذ ان وقعت الكارثة . منذ ان علم حقيقة محاسن وتوارت الراقصة الحسناء عنه . منذ ذلك اليوم وحبيب يعيش في هم ودمع وألم وشجن ..

اما الآن ، وقد علم ان محاسن ستعود اليه ، فقد استطاع ان يبتسم وأن يتخلص من همومه وآلامه ودموعه وأحزانه . ما دامت محاسن تستطيع ان تعيد لحبيب سعادته وهناءه . فمرحباً وأهلاً وسهلاً بها ..

والتفتت ام حبيب الى ابنها لتقول : « لا بأس يا ابني . سر الآن الى بيروت ، الآن في هذه الساعة من الليل ، وعد بها الي . سأنتظر عودتكما . ولو طالت هذه العودة حتى مطلع الفجر .. ورمق حبيب الساعة المشدودة الى معصمه فاذا بها تشير الى التاسعة من الليل ، والتفت الى امه ليقول : «سنكون هنا قبل منتصف الليل يا امي » .

فاغرورقت عينا الأم العجوز بدموع الفرح ، وهي تشاهد ابنها في فرحته وفي سعادته الهانئة . ووثبت اليــه تضمه الى صدرها وتهمس في اذنــه : « فليوفقك الله ، ويحرسك يا ابني ، وليفرش طريقك بالزهور والعطور والرياحين » .. وقبّل حبيب يد امه .. ودخل الى الدار ليرتدي ثيــابه الانيقة ويهم بالخروج من الدار ..

واعترضت امه سبيله هامسة : « لن تخرج قبل ان تتنــاول عشاءك يا ابني » . قال : « سأتناول العشاء مع محاسن ، بعـد ان اعود بها الى هنا » . فأبت الأم ان تسمح لابنها بمغادرة الدار قبل ان يتناول الطعام .. وأمسكت بيده تجره الى المائدة ... وجلست قربه تقدم له الطعام بيدها المرتجفة الذابلة .. وتناول حبيب القليل من الطعام . وعاد الى تقبيل امه طالباً منها البركة والرضا ، وأسرع بالخروج من الدار .. ووقفت الأم تشيعــه بنظرات العطف والحنان ودموع الفرح تترقرق في عينيها ... وشاهدتــه يسير بين الاشجار الوارفة الظلال يغمره نور القمر الفضي الجميل فهمست ، وهي تمسح دموعهــا : « احرسه يا رب وأعده اليّ سالمــاً معافى » . وسار حبيب .. سار الى سيارته الصغيرة السوداء يستقلها ويطلق لهــا العنان في طريق بيروت والسعادة تغمر روحه وتخلع على قلبه وشاحها الناصع البياض . انه ليشخص الى بيروت ، الى شارع الحمراء ، الى دار محاسن.. سيمسك بيدها ، ويعود بها الى القرية الهاجعة.يا لفرحته الباسمة الهانئة البيضاء .

٢٤
اللقاء الاليم

شارع الحمراء في بيروت يغرق في ساطع الانوار ، وينعم بالزهو واللهو والاعتداد . وشارع الحمراء بين شوارع بيروت الارستقراطية في المقدمة . فهو مقر الرجال الدبلوماسيين ، وكبار الموظفين ، وكبار الفنانين وكبار رجال المال والاعمال . وليس للفقراء البؤساء المعوزين مكان في شارع الحمراء الطويل الفسيح الارجاء . ما هناك سوى الاغنياء الاثرياء الموسرين . والبنايات الشاهقة الشماء تنتصب في شارع الحمراء على مجد وفن وجمال ، والمحال التجارية الواسعة ، ودور السينما ، والنوادي تجثم في ذلك الشارع الفسيح على راحة وهناء واطمئنان .

وكانت الساعة تشير الى العاشرة من الليل عندما وصل حبيب مرزوق الى شارع الحمراء في سيارته الصغيرة المتواضعة السوداء . وكانت الانوار الزاهية المتعددة الالوان تغمر ذلك الشارع الجميل . وكانت الموسيقى تتعالى من تلك الدور الانيقة الفخمة ، من مذياع او من جهاز تلفزيوني ، فتنساب في الاذان على رقة وعذوبة وشجو لتبعث الشوق والحنين والحنان في

القلوب والارواح ..

وأوقف حبيب مرزوق السيارة الصغيرة امام بناية الراقصة محاسن ، وترجل من السيارة ، ودخـل الى البناية الساطعة الانوار .. واستقل المصعد الى دار محاسن ووقف امـام الباب باحثاً عن الاسم .. فهو يريـد أن يتأكد من ان تلك الدار هي دار محاسن .. وقرأ الاسم المثبت على قطعة من نحاس لامـع قرب الجرس : « محاسن نصار » وامتدت اصابعـه الى الجرس تقرعه .. ووقف ينتظر .. إلا أن انتظاره طال والباب ما زال موصداً . فما هناك همسة في الدار ولا حركة ولا صوت .. وعاد حبيب يقرع الجرس ، وعاد الى الانتظار مجـدداً . إلا أن الباب لم يفتح .. وطال الانتظار دون جدوى ، وتكرر القرع دون جدوى ايضاً .. واذا بباب الدار القائمة قرب دار محاسن يفتح ويخرج منه شابان .. انهما جارا محاسن .. وشاهد الشابان حبيباً يقف بباب دار محاسن فتبادلا النظرات والابتسامات.. وتقدم حبيب منهما يسألهما : « أليست هذه الدار دار محاسن يا سيدي ؟ » وقال احد الشابين : « الراقصة محاسن ؟ » قـال حبيب : « اجل الراقصة محاسن » وارتسمت على شفتي الشاب ابتسامة هزء وسخرية . وعاد يتبادل النظرات الهازئة مع رفيقه ليقول لحبيب : « لقد تأخرت في الحضور اليها . محاسن ذهبت الى عملها . يمكنك أن تعود اليها عند الفجر » .

وشعر حبيب مرزوق بقلبه يتمزق وبروحه تـذوب ، كما تـذوب الشمعة المضاءة تحت حرارة النور ، وهو يسمع جواب

الشاب ويشاهد ابتسامته وابتسامة رفيقـــه الهازئتين . وهمس بدهشة واستغراب : « ذهبت الى عملها ؟.. واين تعمل الآن ؟» وهمس الشاب وهو يهم بالمسير مع رفيقه .

« اذا كنت مستعجلاً تستطيع أن توافيها الى الملهى . انهـا تعمل في ملهى ابي العز في ساحة الشهداء . ستجدهـا بانتظارك هناك » . وهمس رفيقه : « نتمنى لـك ليلة طيبة يا صاحب الحظ السعيد » .

وسار الشابان الى المصعد يهبطان به الى الشارع وهما يقهقهان. وكانت قهقهاتهما تنزل في اذني حبيب مرزوق كقصف الرعـــد. وكدوي المدافع .. وشعر بدوار شديد ، شعر بالعياء ، بالوهن. واحس بأعصابه كلها ترتجف ، وبركبتيه تصطكان ، وخشي أن تعجز ركبتاه عن حمـله ، وخاف أن يسقط على الارض فاستند الى الجدار .. محاسن عادت الى عملها ؟.. عادت الى الملهى ؟.. عادت إلى الرقص.هل عادت الى ماضيها الموبوء؟ اتراها تحبه ؟.. لا. لا. لو كانت تحبه لما تناست هواه وعبثت بذكراه ، وعادت الى ذلـك الماضي القاتم السواد ، محاسن ستظل راقصة . هي لن تستطيع الافلات من قبضة ذلك الماضي الرهيب الذي تعيش فيه.مـا له ولهـا ، فليبتعد عنها ، فلينسَ حبها ولينسها وليعش العمر كله في آلامه وعذابه ودموعه . يجب أن يبتعد عن هـذه الراقصة المفناج ، فليعد الى القرية حالاً قبل أن تخور عزائمـه ، وقبل أن تسقط به قدماه ..

وسار وهو يتحسس الجدار خشية السقوط. سار الى المصعد

ليهبط به الى سيارته الجاثمـــة امام تلك البناية الشاهقة على ذل وتواضع وانكسار ..

واشتقل السيارة .. وادار المحرك فسارت بـه تطوي ذلك الشارع الفسيح على تمهل واتئاد.. وعادت الافكار المؤلمة المعذبة تؤلمه وتعذبه : لماذا عادت محاسن الى الرقص ؟.. لماذا تناست وعودها وعهودها ؟ لـــماذا عبثت بحبه وكفرت بهواه ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟.. واذا بكلمات الخوري الياس ترن في اذنيـــه : « قد تكون هـــذه الفتاة مضطرة الى العمل لشراء خبزها او لأعالة اسرتها » .. وشعر ببعض الارتياح وقد ترددت في اذنيه تلك الكلمات .. وعاد الى التفكير فيما تطوي بـه السيارة حنايا ذلك الشارع الرحيب . من قال له ان محاسن تناست حبه وعبثت بهواه ؟.. من قال له انها غدرت به، قد تكون مضطرة للعمل ، قد تكون ثمة اسباب تهيب بها الى الرقص . لماذا يصدر عليها حكمه القاسي الرهيب قبل أن يستمع الى دفاعها ؟.. يجب أن يراهـا ، وأن يستمع الى دفاعها .. من يدري ماذا سيكون ذلك الدفاع ؟

وطافت في رأس حبيب مرزوق عشرات الافكار .. وكاد يضيع بين افكاره المتعددة المتناقضة المندفعة في رأسه على سرعة واندفاع .. وسارت بـه السيارة دون أن يعلم الى اين تسير . كانت روحه تقود تلك السيارة لا جسده ، كان قلبه يقبض على المقود لا يداه .. واذا به يجد نفسه فجأة ، في ساحة الشهداء .. هـذه هي ساحة الشهداء . الشابان ، جارا محاسن قـالا له :

« الراقصة محاسن تعمل في ملهى ابي العز في ساحة الشهداء »..

هـذه هي ساحة الشهداء الفسيحة الارجاء ، فـأين هو ملهى ابي العز ؟

وأوقف حبيب مرزوق السيارة الى جانب الرصيف. وترجل منها ، وسار بقدمين واهيتين خائرتين مرتجفتين باحثاً بين تلك الملاهي العديدة المنتشرة في ساحـة الشهداء عن ملهى ابي العز . ولم يطل به البحث ، ملهى ابو العز يحتل بين تلك الملاهي المقام المرموق . فهو ينتصب على شموخ وازدهار . ها هو اسم صاحب الملهى يعلوا البـــاب العريض : « ملهى أبو العز لصاحبه صالح أبو العز » .. صالح أبو العز ؟.. اذن صالح أبو العز ليس نسيب محاسن كما ادعت . انه سيدها . انه صاحب الملهى الذي تعمل فيه. لقد كذبت محاسن عليه إذن. فهل يغفر لها هذه الكذبة؟.

وضحك حبيب من نفسه وهو يطرح على نفسه هذا السؤال. لقد غفر لهـا كل « كذبها » فهل تقف في سبيله هـــذه الكذبة الصغيرة ؟.. وبخطوات متئدة حيرى وجلة تقدم حبيب مرزوق من باب الملهى . وبقدمين مرتجفتين صعد السلالم الرخامية القليلة ليجد نفسه في قاعة كبيرة شاسعة ، رحبة ، واسعة الأرجاء ..

وكانت الساعة تشير الى الحادية عشرة من الليل. والموسيقى تتعالى صاخبة تكاد تصم الآذان ، والدخان ، دخان التبغ والتنباك يعقد اجنحة دكناء في فضاء القاعة ، والزبائن الكرام يزدحمون حول الموائد العامرة بكل شهي من الطعام والشراب.. وتوغل حبيب مرزوق في الملهى ، ومشى بين الموائد المنثورة في

تلك القاعة الرحبـــة ، وسار بين الزبائن الكرام متقدماً من المسرح .. وكانت ثمة راقصة تتمايل على المسرح بقدهـا الرشيق وتتلوى على انغام الموسيقى الصاخبة الهوجاء ، وكان الدخـان المعقود الأجنحة في القاعة يكاد يحجب عن عينيه وجـــه تلك الراقصة فلم يتبينه جيداً إلا وقد اصبح على مقربة من المسرح..

وصعق حبيب مرزوق وقد تبين وجـه الراقصة ، وعرف فيه وجه محاسن .. محاسن ؟.. هـذه هي محاسن التي ترقص هـــذا الرقص السافر الخليع ؟.. لا ، لا ، لا . مستحيل ، مستحيل .. ولكن عينيـه تؤكدان ان الوجه وجـه محاسن ، والشعر شعر محاسن ، والابتسامة ابتسامة محـــاسن . والقوام قوامها والقد قدها ، فهل يكذب عينيه ؟..

وعاد العياء يعصف بـه ، والعناء يرهق اعصابه ، وعـادت ركبتاه الى الارتجاف ، وشفتاه الى الارتعاش وقلبـه الى القلق والاضطراب .

وخشي حبيب ان يسقط الى الارض، فسار بقدمين واهيتين الى الجدار القريب ليسند ظهره الى الجـدار ، والقلق والوجوم والاضطراب تعصف به وترهق جسده المضطرب الواهي السقيم. وأخذت الدموع تتدحرج على وجنتيه .

وكانت محاسن ترقص رقصاً رائعاً فاتنـا . كانت تبـدع في رقصها ، وكان التصفيق يتعالى في ارجـاء الملهى اعجاباً بهـــا واستحساناً .. وبدأ الزبائن المعجبون يطرونها بكلمات ماجنة تعبيراً عمـا يجيش في صدورهم من اعجاب وتقدير لهـــا ولجمالها

ولرقصها .. وطريقة ابنـاء الليل في ابـداء الاعجاب والتقدير معروفة، فهي قبضة من الكلمات السافرة المخجلة التي يأنفها الذوق السليم وتترفع الشفاه عن التلفظ بها في معرض الحشمة والوقار..

فهنا شاب يرفع كأس العرق بيـده ويصرخ بأعلى صوته : « كأس ربك اللي خلقك » ..

وهناك رجل بدين يدخن النارجيلة ، ويحشوا فمـه بأصناف الطعام يعربد وهو يصفق لها : « يسلمولي هالعيون »... وهناك ثلاثـة شبان يدخنون ويشربون الخمر ويتبادلون القهقهات ، يصفرون ويصفقون ويولولون بصوت واحد: « يا عيني على هالقد يا محاسن » .

وكانت تلك الكلمات السافرة الماجنة المتهتكة تنزل في اذني حبيب مرزوق كالحراب وكالنبـال لتستقر في قلبه وتثخنـه بالجراح..وانهمرت الدموع غزيرة على وجنتي حبيب وهو يشاهد محاسن ترقص ويسمع تلك الكلمات النابية تنهال عليها من كل صوب .. واحتار حبيب في امره .. ماذا عليه ان يفعل الآن بعد ان رأى ما رأى وشاهد مـا شاهد وسمع مـا سمع ؟.. هل يثب الى محاسن ويرغمها على الانقطاع عن الرقص والسير معه؟.. هل يهجم على هؤلاء المعربدين السكارى ويحطم تلك الزجاجات والكؤوس والأطباق والطاولات والمقاعد على رؤوسهم؟.. هل يكتفي بما شاهد ، وبمـا سمع ويعود ادراجه الى القرية ؟.. ماذا سيفعل ؟.. ليس يدري .

وطالت وقفت حبيب مرزوق في ذلك الملهى ، وهو يسند

ظهره الى الجدار ويبكي ويفكر .. ولم يستطع حبيب ان يتخذ اي قرار.لم يكن قادراً على اتخاذ القرار الحاسم الحازم الصريح.. وبدأت الانظار ، انظار الزبائن والراقصات وبنات الليل ، تتجه اليه . وبدأت الهمسات تتعالى : « انظروا هذا الشاب الواقف هناك . انه يبكي » .

وأثار حبيب شفقة الفنانات اللواتي يجالسن الزبائن ، في حين اثار تهكم الشبان وهزءهم وسخريتهم وضحكهم ..

وكانت محاسن ترقص دون ان تلتفت الى احد . كانت منهمكة بالرقص، ولذلك فهي لم تره بالرغم من انه كان على مقربة من المسرح ..

وفجأة وقع نظر محاسن عليه في وقفته المؤلمة فذعرت . ماذا ترى ؟ اتكون في حلم مزعج رهيب ؟.. هل تخدعها عيناها ؟.. أيكون هذا الواقف هناك حبيباً ؟.. لا . لا . لا ، مستحيل هي واهمة . هذا ليس حبيباً . حبيب لا يدخل الى هذا الملهى الموبوء . انها تحلم ، انها تخدع . عيناها خادعتان كاذبتان تحاولان ان تخدعاها . هذا ليس حبيباً مرزوق ..

وسمرت عينا محاسن في عيني حبيب . وتأكدت من انها ليست واهمة . هذا هو حبيب .. وأخذت محاسن ترتجف كأنها ورقة في مهب الرياح العاتية الهوجاء . وخشيت ان تقع على المسرح ، وهناك الفضيحة الكبرى ، فتراجعت الى الوراء رويداً رويداً وهي تحاول جاهدة اخفاء قلقها ووجومها وارتعاشها واضطرابها .. وأنهت رقصها على عجل .. وأسرعت بالدخول

الى غرفتها من الملهى لتنزع عنها ثياب الرقص وترتدي على عجل ثيابها وتهم بالخروج من الغرفة

وإذا بصديقتها انعام تعترض سبيلها متمتمة : « محاسن ا.. ما بك ، لمـــاذا انقطعت عن الرقص قبل ان تنهي وصلتك ؟. لماذا انت هكذا صفراء الوجه، تائهة النظرات ، مرتجفة، وجلة ، قلقة ، حيرى ؟ ما بك يا اختي ؟.. »

وهمست محاسن ، وهي تهم بالمسير : « انه هنا .. »

ودهشت انعام . وهمست : « من ؟ حبيب ؟ » .

وتمتمت : « اجل حبيب يا انعام . لقد شاهدته يقف مسنداً ظهره الى الجدار والدموع تنحدر على وجنتيه بغزارة . كان منظره يفتت الاكباد . وشعرت بالوهن وبالعياء ، وخشيت ان اقع على الأرض فانقطعت عن الرقص وهربت » ..

قالت انعام : الى اين تذهبين الآن ؟ قالت : « انني شاخصة اليه . اريد أن اراه .. اريـد أن اكلمه ، اريد أن اسمع صوته يا انعام ».فأمسكت الراقصة انعام بيد صديقتها محاسن لتقول : « محاسن ا.. كوني عاقلة يا اختي . مالك وله. يجب أن تبتعدي عنه . وفي البعاد عنه بعـاد عن الهم والألم والشجن والدموع . لقـد بدأت تسيرين الآن في طريق النسيان فلماذا تريدين العودة الى اول الطريق ؟.. » فتدحرجت الدموع الغزيرة على وجنتي الراقصة محاسن وهمست : « اريـد أن اراه . اريـد أن اراه »

وتمتمت انعام بحزم وعزم وثبات : « لا ، لا يا محاسن . لا يجوز أن تشاهديه . لا تعذبيه ولا تعذبي نفسك يا اختي حرام عليـك

يا محاسن . كوني عاقلة . حكمي عقلك يا حبيبتي . تعالي. تعالي»
ومسحت محاسن دموعها الغزيرة المنسابة على وجنتيها. وهمست
باسترحام واستعطاف ورجاء : « ارجوك أن تساعديني وأن
تسهلي لي السبيل اليه. اريد أن اراه . اريد أن استمع الى كلامه
اريد أن ارتمي على صدره وافرغ كل ما في عيني من دموع » .

وضمتها انعـــام الى صدرها برفق وحنان وهمست : « اي فائدة من هذا اللقاء يا محاسن ؟.. ماذا ستكون نتيجته؟ كلام.. وعذاب وبكاء ونحيب ودموع . ثم .. ثم ماذا ؟ فراق .. لقد اصبحت هناك وهدة عميقة الآن بينك وبـين حبيب مرزوق لا انت تستطيعين اجتيازها للوصول اليـــه ، ولا هو يستطيع اجتيازها للوصول اليك . حبيب لن يرضى بالزواج منك بعـد أن وقف على حقيقتك ، لا سيا بعـد أن شاهدك ترقصين الآن وتعرضين جسدك البض الجميل على انظار السكارى والعربدين. ما لك وله يا محاسن . ابتعدي عنه ، لا تفكري به.لا تستسلمي للعذاب وللآلام يا اختي . تعالي . تعالي يا محاسن » .. وسارت الراقصة محاسن برفقة زميلتها انعام وهي تفكر بما قالت لهـــا الزميلة العزيزة .. انعام على حق . اى فائدة ترجى من هـــذا اللقاء الاليم ؟..

ان مشاهدة حبيب اعادت الى عينيها الدموع،بعد ان كادت تلك الدموع تجف ، فماذا سيفعل بهـــا التحدث اليه ؟. ماذا ستفعل وهي تقف اماعـــه وقفة المجرم السفاح في ساحة القضاء العادل الرهيب ؟.. من المؤكد انها ستعجز عن الوقوف امامـه

وعن التلفظ بكلمة واحدة على مسمعه . هي لن تستطيع أن تخاطبه لن تستطيع أن تشاهده ، لن تستطيع أن تنظر اليه . فلتبتعد عنه . فلتبتعد عنه ، وفي البعاد راحة له ولها .. ومشت محاسن قرب انعام .

وكانت انعام تمسك بيدها وتقودها كما يقود المبصر الضرير.. ولم تكن محاسن لتعلم الى اين تسير بهـــا انعام . لم تكن لتعي شيئاً .. ومرت بالمعجبين من الزبائن فراحوا يحيونهـا ويرحبون بها ويسكبون في اذنيها كلمات التقدير والحب والاعجاب ، إلا انها لم تكن لتسمع او لترى شيئاً .. وسارت انعام بها الى آخر القاعة ، الى الزاوية الغارقة في النور الاحمر الواهي الضئيل .

وكان ثمة شاب في مقتبل العمر جالساً وراء مائـدة بسطت فوقها المآكل الشهية والخمر الفاخر . انه احد المعجبين بمحاسن.. ووقف الشاب يرحب بالراقصتين الجميلتين وهو يشاهدهما مقبلتين نحوه .. وتقدمت انعام منـه وهي تمسك بيد محاسن هامسة : «مساء الخير يا ابراهيم» ومد ابراهيم يده يصافح انعام ثم يصافح محاسن متمتماً : « اهلاً . اهـــلاً وسهلاً بالكواكب والنجوم والاقمار . اهلاً اهلاً » قال هذا وقدم لهما مقعدين ..

وجلست انعام قربـــه .. وجلست محاسن عند النافذة الزجاجية قرب انعـام .. وانصرفت الراقصة انعام الى مسايرة ابراهيم والى مسامرته والى التحدث اليه بلطف وغنج ودلال في حين راحت محاسن تستعرض النجوم السابحـة في الفضاء بعينين تغمرهما الدموع الحمراء .. والتفت ابراهيم الى انعـــام ليقول :

« مـــا بها صديقتك محاسن يا انعام ؟. ».وهمست محاسن : « مسكينة . رأسها يؤلمها ».وارتـد ابراهيم الى محاسن ليقول : « محاسن ا.. هل ابتاع لك قرص اسبرين ؟ » .. وارتسمت على شفتي محاسن ابتسامة واهيـة صفراء برزت من وراء دموعها كما تـبزغ شمس الخريف من وراء الغمام الدكناء . وهمست : « لا شكراً .. » وصب لهـا كأساً . وناولها اياه. وحاولت محاسن الاعتذار عن تناول الخمر ، إلا أن انعام كانت قد تناولت الكأس من يد ابراهيم وقدمتها لها وهي تحدجها بنظرة قاسية لتقول : « خذي اشربي . الخمرة تخفف من حدة الصداع يا محاسن » .. ولم تستطع محاسن الرفض وهناك انعـام تحدجها بتلك النظرة القاسية الحازمة ، فتناولت الكأس من يدها وهمت بان ترشف ما فيها ..

واذا بحبيب مرزوق ينتصب امامها كصوت القـــدر .. وارتعشت الكأس بين يدي محاسن . وراحت تحدق بحبيب من خلال دموعها . وراح حبيب يحدق بهـــا من خلال دموعه . وتحطمت الكلمات على الشفاه الاربع . على شفتي محاسن وعلى شفتي حبيب فلم يستطع احدهما ان ينطق بحرف ..

وكان سكوتهما سكوتـاً رهيباً اشبه بالسكون الذي يسبق العاصفة العاتية الهوجاء .. وتبادل ابراهيم وانعـام نظرة دهشة وعجب .. وبخطوات متئدة حيرى تقـدم حبيب مرزوق من الراقصة محاسن ليهمس كلمتين .. كلمتين فقط: « محاسن ا.. تعالي » ولم تجب محاسن بحرف ، بـــل هي ألقت بالكأس من

يدها، ونهضت.. نهضت والدموع تنسكب بغزارة على وجنتيها..

وامسكت انعام بيدها هامسة : « اجلسي يا محاسن » إلا ان محاسن لم تستجب لدعوة انعام فأفلتت يدهـا من يد انعام وسارت نحو حبيب . فكأن ثمـة قوة ممغطسة تجذبها اليه .. وتقدمت منـه بكل هدوء وخشوع كأنها في معبد تتقدم من هيكل مقدس.واقتربت منه وهي تبكي فمد لهـا يده .. وتشابكت اليدان.. وسار حبيب فسارت محاسن قربه ويدها بيده مخترقين معاً صفوف رواد الملهى الفسيح الارجاء ..

والتفت ابراهيم الى انعام وهو يشاهد محاسن تسير برفقـة ذلـك الشاب الغريب ليقول بغضب وهو يهـم بالنهوض : « سأحطم رأس هـذا الشاب الوقح » وامسكت انعـام بيده هامسة : « اجلس انـه خطيبها » .. وجلس ابراهيم ليهمس بدهشة واستغراب : « خطيبها ؟ » وتمتمت انعام : « اجـل خطيبها .. » وادمعت عينا انعام وهي تشاهد صديقتها محاسن تخرج برفقـة حبيب من الملهى . وهمست ، وهي تغمض عينيها على دموعها : « خـذ بيدها يا رب واحرسها وافرش امامهـا الطريق بالسعادة والهناء » .

وفتحت انعـام عينيها لتشاهدهما يخرجان من باب الملهى الكبير .. ونهضت ، والتفتت الى ابراهيم هامسة : « المعذرة يا ابراهيم . سأعود اليك بعد برهة وجيزة» .

قالت انعام هذا ، وهرولت مسرعة وراء محاسن وحبيب . وأدركتها ، وهما يقفان امام سيارة حبيب.. ووثبت انعام

الى صديقتها محاسن فاتحة لهـــا ذراعيها . وارتمت محاسن بين الذراعين المفتوحتين، وتعانقت الصديقتان الوفيتان ودموع الفرح تترقرق في عيونها.. وهمست انعام في اذن محاسن وهي تعانقها: «فليوفقك الله يا اختي وليحرسك، وليسعد قلبك الطاهر النبيل».

وهمست محاسن: «فليفتح الله العلي العظيم لك طريق الخلاص من هذا الجو الموبوء كما فتح امامي هذا الطريق يا انعام. سأكون بانتظارك في القرية الباسمة الخضراء يا حبيبتي».

قالت محاسن هذا وانسلخت عن انعام لتقول: «انا ذاهبة الآن مع حبيب . هذه الساعة هي اسعد ساعات حياتي يا انعام. ثيابي ومحفظتي واغراضي كلها مـا زالت في الغرفة ، في الملهى . ارجو ان تنقليها الى الدار . ثياب الرقص هي لك . ومفتـاح السيارة في المحفظة . ارجو ان تنقلي السيارة من هنـا الى المرأب يا انعام . تستطيعين يا اختي ان تتصرفي بكل ما أملك ريثما اتدبر اموري . قـد اعود بعد ايام قليلة مع حبيب اليك ونتفق على كل شيء».

والتفتت انعام الى حبيب لتقول: «فليوفقكما الله يا حبيب. محاسن امانة في عنقك وأرجو ان تحافظ على الامانة».

وتمتم حبيب وهو يهم بالصعود الى السيارة ، الى سيارتـه الصغيرة السوداء : «اطمئني يا انعـام ، محاسن عندي في مقام القلب والروح». وصعدت محاسن الى السيارة الصغيرة لتجلس قرب حبيبها وتلقي برأسها الجميل الى كتفه.. وانطلقت السيارة بهما في طريق القرية الهاجعة الباسمة الخضراء .

٢٥
ليلة الزفاف

احتفلت القرية الصغيرة الحالمة بعرس حبيب مرزوق ومحاسن نصار احتفالاً هادئاً متواضعاً . فقد أبى حبيب مرزوق ان يجعل من عرسه مهرجاناً تنطلق فيه القرية بأسرهـــا انطلاقة البهجة والحبور. فاليوم، يوم العرس، ليس يوم عطلة.. لقد جاء حبيب الى القرية بحبيبته عند منتصف ليل الاربعاء وكان العرس في صباح يوم الخميس .

ووقف حبيب قرب محاسن امام الخوري الياس ووقفت أم حبيب قرب ابنها والتف حول العروسين انسباء حبيب وبعض اصدقائه وأقاربـه . وانطلق بعض الاولاد الى الحقول يجمعون الازهار البرية ويحملونها الى العروس الحسناء .. وحملت محاسن تلك الزهور البرية المتواضعة ، وضمتها الى صدرها كأنها تريد ان تحتفظ بها الى الابد .. كانت تلك الزهور الوضيعة لدى محاسن افضل من كل مـــا شاهدت وتلقت في حياتها من زهور وورود ورياحين .. وأدمعت عينا محاسن والأب الياس يرفع يده فوق رأسها وفوق رأس عريسها ليباركهما .. لا بـد من الدموع في

مثل هذا الموقف الرهيب .. وانتهت مراسيم الزفاف فوثبت أم حبيب الى محاسن تضمها الى صدرها . وأقبل الاهل والاصدقاء يهنئون العروسين والفرحـــة تغمر قلوبهم وأرواحهم . وانتقل الجميع الى دار العروسين السعيدين حيث قامت أم حبيب بالواجب المفروض وقدمت للمهنئين المشروبات والحلويات والاثمـــار .. وانتشر الخبر في القرية على سرعة وانطلاق : « حبيب مرزوق تزوج من البيروتية الحسناء ». وما ان عاد العمال والفلاحون، في المساء من اعمـــالهم ، حتى انطلقوا الى دار العروسين، عاتبين على حبيب لأنه احتفل بزفافه في يوم ليس يوم أحد ولا هو يوم عيد ليشاركوه فرحة العرس . ليس من عادة شبان القرية ان يحتفلوا بزفافهم إلا في ايام الآحاد والأعياد. وتولت أم حبيب الاعتذار: « لا بأس .. يوم الاحد قريب . وأنتم مدعوون لتنـــاول طعام الغداء عندنا يوم الاحد » . واطمأن ابنـــاء القرية ، سيقومون بالواجب المفروض حيال العروسين يوم الاحد ان شاء الله .. وكانت محاسن تجلس قرب حبيبها حبيب والدنيا على سعتها لا تتسع لفرحتها .. لقــد عرفت اخيراً محاسن نصار لذة السعادة والهناء ، واستطاعت شفتاها النديتان ان تتذوقا لذة الابتسام، وعيناهـــا النجلاوان تخلصتا اخيراً من مرارة الدمع الهتون ، يا لسعادتها ويا لفرحتها، ويا لهنائها الباسم الهانيء الوارف الظلال. ستعيش العمر ككله ، هكذا ، قرب حبيب القلب والروح .. واطمأنت محاسن نصار كل الاطمئنان ، وقد جاد الله عليهـــا بكل ما تتمنى وتروم في هذه الحياة .

وكان يوم الاحد ، واذا بأبناء القرية يزحفون الى دار حبيب مرزوق للاحتفال بزفافه الميمون .. لا بد من الاحتفال بالعرس ولا بد للراقصين من الرقص، وللدابكين من الدبك، وللزجالين من نثر روائعهم في وصف العروسين الكريمين .. وازدهت دار حبيب مرزوق وترنحت وازدهرت وقد اقيم فيها وفي حديقتها الغناء المهرجان الرائع الجميل ، واستمر الرقص والدبك والغناء في دار حبيب حتى ساعة متأخرة من الليل . ولم ينصرف ابناء القرية من دار العروسين إلا وقد قارب البزوغ .

* * *

محاسن نصار زوجة حبيب مرزوق على سعادة هانئة وارفة الظلال .. هي لم تعرف يوماً السعادة في حياتها مثلها الآن وهي تعيش قرب حبيب القلب والروح .. كل مـا في العالم من سعادة وبهجة وهناء وارتياح جمعها الله السخي الكريم وغمر بها محاسن..

وكانت محاسن تنهض في ساعـة مبكرة من الصباح ، على غير عادتها ، فتدخل الى المطبخ وتهيء القهوة لحبيب ولأمه وتحملها لهما بيديها ، ويجلس الثلاثة ، محاسن وحبيب وأمـه ليرشفوا القهوة ويتبادلوا الاحاديث . ويرتدي حبيب ثيـاب العمل ، ويشخص الى البستان او الى الحقـل او الى الكرم ، ولا تلبث محاسن ان تلحق به حاملة له طعام الصباح ، ويتعانقان ... ويجلسا معـاً ، على الارض ، تحت ظلال شجرة باسقة وارفـة الاغصان ، او فوق صخرة متواضعة ملساء . وتشعر محـاسن نصار ، وهي تجلس قرب حبيب ، فوق الصخرة او على الارض

بأنها جالسة فوق مقعد رجراج وثير . وتتناول الطعام بـلذة وشهية ونهم، وتقدم الطعام لحبيب بيديها، ويتسامران ويتحدثان ويضحكان مشاركين الاطيار تغاريدها والانهار تراتيلها والازهار فرحتها وسمعتها وهناءها ..

وعندما ينتهيان من تناول الطعام تأبى محاسن ان تعود الى الدار . فهي تريد ان تساعد زوجها في عمله.. ويضحك حبيب. ويضمها الى صدره العامر الحنون بقوة وجنون ويهمس في اذنها : « مكانك ليس هنا يا محاسن . مكانك هناك في الدار يا حبيبتي».

وتطوق عنقـه بذراعيها وتهمس : « مكاني حيث يكون زوجي .. لن تستطيع ان تفلت مني . لن تستطيع ان تبتعـد عني ، لن تستطيع ان تخلص من محاسن يا حبيب » ..

ويضحكان .. ويهمس حبيب ، وهو يضمها الى قلبه :«ولا انت تستطيعين الافلات من يد حبيب بعد الآن » .

وتغمض عينيهـا وتهمس : « هل يخيل اليك انني أرغب في الافلات يا حبيبي ؟ لا ، وحياتك يا حبيب ، وحيـاة عينيك الحلوتين يا روح محـاسن . انني لأصلي الى الله ، وأضرع له ألاّ يميتني ، ألاّ يغمض عيني إلا وأنا هكذا بين ذراعيك » .

ويتمتم حبيب : « نحن سنظل معاً مدى الحياة .. مـدى الحياة يا روح حبيب ويا نور عينيه » .

وينطلقان الى العمل معاً، ويعودان معاً الى الدار عند الظهر ليتناولا طعام الغداء مع ام حبيب .. ويرتاحان قليلاً ليعودا الى العمل .. وفي المساء يقضيان السهرة ، إما في الدار ، وإمـا في

دار احد الاقارب او احد الاصدقاء .. وتعودت محاسن حياة القرية ، وارتاحت كل الارتياح الى تلك الحياة . ونسيت محاسن ماضيها الموبوء ورمت بذلك الماضي في وهاد النسيان . محاسن لم تعد تذكر شيئاً من ذلك الماضي المخيف القاتم السواد. انها لتعيش في حاضرها في هذا الحلم الرائع الفاتن الجميل ..

وكانت صديقتها انعام تزورها من حين الى آخر ، حاملة لها ايراد البناية التي تملكها في شارع الحمراء ، وبعض الهدايا ... وكانت محاسن قد وهبت انعام سيارتها الخاصة ووهبتها ثيابها وتركت لها الدار التي كانت تقيم معها فيها ، لتقيم فيها وحدها دون ان تتقاضى منها بدل الايجار . انعام صديقتها المخلصة الوفية ، وليس لمحاسن في هذه الحياة قريب او نسيب او صديق الا انعام ..

وكانت انعام تبادل صديقتها محاسن الاخلاص والمحبة والصداقة والوفاء .. وكانت تحرص على سعادتها كل الحرص ، لذلك فهي لم تكن لتحمل لها اخبار العمل وأنباء المعجبين وقصص الملهى . ومـا يدور في الملهى من عجائب وغرائب .

كانت انعام تريد مخلصة ان تساعد صديقتها محاسن على النسيان .. ولكن حدث ذات يوم ما أهاب بالراقصة انعام الى مخاطبة محاسن في امر مهم خطير .. فقد اقبلت انعام ذات يوم لزيارة محاسن . وكانت محاسن مع حبيب في البستان عندما اطلت انعام على القرية وشخصت الى دار حبيب . وكانت ام حبيب في الدار فرحبت بصديقة محاسن شديد الترحيب

ودعتها الى الانتظار : « تفضلي يا ابنتي . تفضلي اجلسي هنـا . سأدعو محاسن اليك . انها في البستان مع حبيب » .

وتمتمت انعام : « لا يا خالتي أم حبيب. لا تزعجي نفسك . انا سأشخص اليها » .

قالت انعام هذا وشخصت الى البستان . وراحت تنـادي محاسن ، وقد اقتربت من البستان .. وسمعت محاسن النداء ، فقالت لحبيب : « لقد اقبلت انعام. انا شاخصة اليها يا حبيبي».

قال حبيب : « سألحق بك بعد قليل يا محاسن » .

وأسرعت محاسن الى انعـــام فاتحة ذراعيها .. وتعانقت الصديقتان .. وتمتمت محاسن ، وهي تتأبط ذراع صديقتهـا الحبيبة : « تعالي . تعالي يا انعام معي الى الدار » .

وهمست الراقصة انعـام : « لا يا محاسن . لا يا حبيبتي . سنجلس هنا . هنا تحت اغصان هذه الشجرة الوارفة الظلال . لي معك حديث سري طويل يا اختي. تعالي. تعالي نجلس هنا».

ووجمت محاسن.. ما هو هذا الحديث السري الطويل الذي تريد انعام ان تحدثها به ؟

وجلست انعام فوق صخرة متواضعة صغيرة وجلست محاسن قربها ، وأشعلت انعام لفافة نفثت دخانها في الفضاء وهمست : « محاسن ! .. منذ ان تزوجت ، وتركت العمل وأنا أتحـاشى ان اذكر على مسمعك اي كلمة تذكرك بالماضي القريب الذي كنت تعيشين فيه » .

فوجمت محاسن وهي تسمع انعام تتحفها بهذه المقدمة المنمقة.

وحبست انفاسها على قلق واضطراب ، وقد حدثها قلبهـا بأن ثمة امراً مهماً خطيراً..ومضت انعام في الكلام لتقول: «اسمعي يا محاسن . انني لأخشى ان تكون سعادتك الزوجية مهـددة بخطر داهم رهيب » .

فاشتد القلق والوجوم بمحاسن ، وانعام تحدثهـا عن خطر رهيب . وهمست : « ما هو هذا الخطر يا انعام ؟ هل استطيع ان اعلم ما هو ؟ »

وتمتمت انعام : « انا ما جئت اليك اليوم إلا لأطلعك على كل شيء وأحذرك من هذا الخطر » .

قالت محاسن : « اوضحي ، اوضحي يا انعام . لقد شغلت بالي يا اختي » . فعادت الراقصة انعام الى نفث دخان اللفـافة الفاخرة في الفضاء لتقول : « اسمعي يا محاسن . انا اريد ان اطلعك على كل شيء . على كل شيء يا اختي . لن اخفي عنك شيئاً. سأبدأ بسرد القصة لك من اولهـا .. منذ تلك الليلة التي أمسك فيها حبيب بيدك وخرج بك من الملهى ، في تلك الليلة ، بعد ان ودعتك امـــام باب الملهى وعدت الى القاعة وجدت ابا العز بانتظاري .. ووثب إلي ليقول : « اين هي محاسن ؟ » لم يكن قد شاهدك تخرجين من الملهى مع حبيب لأنه كان منصرفـاً الى عمله .. ولم أشأ ان اطلعه على الحقيقة خشية ان يلحق بك ويحول دون تحقيق امانيك العذاب . فقلت له «محاسن مصابة بصداع شديد وهي قد عادت الى الدار». وهمس «انها كاذبة . هي تريد ان تهرب من العمل . سأتدبر الامر معها ليلة غـدم». وضحكت

في سري وأنا على يقين من انه لن يستطيع ان يتدبر الامر معك. وفي الليلة التالية ، عندما وصلت الى الملهى وثب ابو العز إليّ ليقول: «اين هي محاسن؟» ولم اكن استطيع المضي في الخداع. كان عليّ ان اقر بالحقيقة ، لا سيا بعد ان اصبحت انت في مأمن من شره ، فقلت له بهزء وسخرية : « عوضنا الله بسلامة رأسك يا ابا العز ».وأمسك ابو العز بذراعي يشدها ويزأر : « مــاذا تعنين ؟ » قلت : « محاسن تزوجت وانتهى الأمر » وجحظت عيناه ، وارتجفت شفتاه الغليظتان ، وظهر الغضب الشديد على محياه حتى اصبح منظره مخيفــاً وصرخ بي : « ماذا تقولين يا مجرمة ؟ ماذا تقولين ؟ محاسن تزوجت ؟ مستحيل. مستحيل. انت كاذبــة ، منافقة ، محتالة . محاسن لم تتزوج . قولي لي يا مجرمة ، اين هي محاسن ؟ ؟ »

وذعرت وأنا أشاهده في ثورته الجامحة الهوجاء .كان مخيفاً في غضبه يا أختي . كان كالعاصفة الكاسحة ، كان كألسنة اللهيب المتقدة السعير . وحاولت الهرب منه إلا انني عجزت . فهو قد دخــل بي الى غرفته واوصد الباب . وانتضى خنجراً مصقولاً وامسك بيدي يهددني بالخنجر ويهــدر : « قولي لي يا فاسقة اين هي محاسن ؟ » ولم يكن ثمة بد من الاعتراف فاعترفت له بكل شيء وعيناي الجاحظتان تراقبان الخنجر المصقول .

وجلس ابو العز على مقعد وراح يداعب الخنجر ويفكر .. ولم يلبث ان التفت اليّ ليقول : « الويــل ثم الويل لمحاسن من غضبي . لقد خربت بيتي ، وانا سأخرب بيتها .. لن ادعها تهنأ

في حياتها الزوجية . اموالها كلها ستؤول اليّ . بنايتها ستصبح لي . حتى جسدها لي انا .. هـــذه الثروة التي جمعتها لم تكن لتجمعها لولا مساعدتي اياها . لقد جمعت هذه الثروة من هـــذا الملهى وستعيدها لهـــذا الملهى .. انا سأتدبر امري مع المجرمة الخائنة » ..

ووقفت امامه ارتجف كأنني ورقــة في مهب الرياح . كنت اخشى على عنقي من ذلك الخنجر المتراقص بين يديه .. ومضت الدقائق ثقيلة على قلبي .. ولم يلبث ان نهض ابو العز ليقول : « اسمعي يا شقية . انت مجرمة . جريمتك لا تختلف عن جريمة محاسن . انت ساعدتها على الهرب يا مجرمــة . ويجب أن اقتص منك قبل أن اقتص منها » وعــاد الذعر يعصف بي يا محاسن . لقد خشيت أن يقتلني . انت تعرفين ابا العز كما اعرفــه انا . هو لا يتورع عن ارتكاب الجرائم الرهيبة في سبيل تحقيق رغباتــه واهدافه .

وتقـــدم ابو العز مني واصابعه تداعب الخنجر ليقول : « ولكن .. ولكن باستطاعتك أن تكفري عن جريمتك وباستطاعتي عندئذ ان اعفو عنك ». قلت له والخوف يستبد بي: «مر . ماذا تريد مني يا ابا العز ؟ ». قال: «عليك الآن أن تساعديني على محاسن .. يجب أن نعمل معـــاً للحصول على اموالها وعلى بنايتها» قلت: «ولكن كيف. كيف نستطيع ذلك يا ابا العز ؟» قال: «ليس لك أن تسألي كيف .. انا سأرسم الخطة . وعليك أن تنفذيها ».

قلت والخوف يغمر قلبي «كما تريد . كما تريد يا ابا العز». قال لي «منذ هذه اللحظة لا يحق لمحاسن أن تتقاضى بدل ايجار مساكن بنايتها . ولا يحق لها أن تسحب اي مبلغ من المصارف. هل فهمت ما اعني ؟» قلت ، وقد بدأت استعيد هدوئي «لم افهم شيئاً» قال: «محاسن الآن مع زوجها. هي ليست في بيروت أليس كذلك ؟» فقلت : اجل .

قال : «كل ما اريد منك الآن هو أن تخبريني بحضورها . عندما تحضر الى بيروت . وعليّ الباقي». ووعدته يا محاسن بأن انفذ اوامره وانا ارتجف من الخوف .. وخرجت من غرفته في الملهى وانا اتحسس عنقي لاتأكد من سلامته .. ومنذ تلك الليلة وهو لا ينفك يسألني كلما وقعت عيناه عليّ «ألم تحضر محاسن الى بيروت ؟» واجيبه بالنفي . وبدأ يشك بي . بدأت الهواجس والظنون تعصف برأسه فعاد الى التهديد والوعيد ..

ولم يكتف بذلك يا محاسن . لم يكتف بالتهديد وبالوعيد ، بل هو عمد الى قطع مرتبي واخذ يطوف على المستأجرين في بنايتك ليعلن لهم ان البناية انتقلت اليه وان ليس لهم أن ينقدوا بدل الايجار لسواه .. المرحلة وصلت الآن الى نقطة خطرة يا حبيبتي .. يجب أن تتداركي الامر قبل فوات الاوان يا اختي . يجب أن نضع حداً لتصرفات هذا المجرم الخطر المخيف » .

وكانت محاسن تستمع الى صديقتها انعام وهي تنظر الى الافق البعيد وتفكر .. والتفتت محاسن الى صديقتها ، وقد انتهت الصديقة من حديثها لتقول : « اطمئني يا انعام . اطمئني

يا اختي . انا سأتدبر الامر وسأقطع على هـــذا المجرم الخطر الطريق » قالت انعام : « ولكن يجب أن تعملي بسرعة وعجل قبـــل أن يفوت الاوان يا اختي » فعادت محاسن الى التمتمة : « اطمئني ، اطمئني يا انعـام . انا سأعرف كيف سأتخلص من هذا المجرم الشرير . ولكن كل مـــا ارجوه منك هو ان تتخلصي انت منه لئلا يعمد الى الانتقام منك. يحسن بك ان تتركي العمل في ملهاه الآن . الآن فوراً . لا تشخصي الليلة الى ملهاه » .

قالت انعام : « ولكن ، لقد اصبح لي بذمته مبلغ كبير من المال . منذ ثلاثة شهور لم ينقدني ليرة واحد من مرتبي » قالت محاسن : « لا بأس يا انعام . سامحيه بهذا المبلغ ، خير لك أن تخسري الفاً الآن ، من أن تخسري الوفـــاً بعد شهور انت لن تستطيعي أن تتقاضي ليرة واحدة منه . لا الآن ولا بعد سنة.. يجب أن تغادري لبنان الى بلد عربي شقيق لمدة من الزمن. انت راقصة شهيرة . تستطيعين أن تعمـلي في اي ملهى ».قالت : « سأجرب أن اعمـــل بنصيحتك يا محاسن . ولكنني اخاف عليك انت من انتقام هـــذا الوحش ».فأمسكت محاسن بيد صديقتها انعام لتقول : « لا تخافي عليّ . قلت لـــك : اطمئني . انا سأكون في مأمن من شره » .

ونهضت محاسن لتقول : « تعالي معي الآن الى الدار . لقد حان موعد الغداء . سنتناول الغداء معــاً يا انعام » .. وسارتا الى الدار .. ولم يلبث ان جاء حبيب ليرحب بانعـام شديد الترحيب .. وتناولوا طعام الغداء معاً . وقضت انعـــام طيلة

النهار قرب صديقتها محاسن .. وفي المساء عـادت الى بيروت وقـد عزمت على ان تعمل بنصيحة محاسن . هي ستنقطع عن العمل في ملهى ابي العز وستسافر الى خـارج لبنان ، وليفعل ابو العز ما يطيب له ويحلو ..

وانصرفت محاسن الى التفكير بعد ذهاب انعام .. مـا حملت اليها انعـام من الانباء المقلقة يدعو الى التفكير الشديد . عليها أن تعمل بسرعة لدرء الخطر المحدق بهـا .. واستغرقت محاسن في التفكير . وهي جالسة على « السطيحة » المنبسطة امـام المنزل القروي الوضيع .. وعندما عـاد حبيب في المساء وثبت اليه تعانقه بشوق وحنان . ودعته الى الجلوس قربها .

فجلس الزوجان السعيدان على « السطيحة » الفسيحة الارجاء .. وكانت النجوم قد بدأت تتلألق في الفضاء والظلام يبسط اجنحته السوداء على تلـك الجبال والوديان والوهاد والتلال . ونسيم الليل العليل يداعب اغصان الاشجار فتتمايـل تلك الاغصان بين ايدي النسيم العليل على رقة وعطف ودلال ، وكان الجو صافياً وشذا الازهار والورود يعطر الاجواء ويبعث النشوة والشوق والحنـين في القلوب والارواح . فالشهر ، شهر حزيران ، وقـد اشرف الربيع على الافول ويبدأ فصل الصيف يتأهب للبزوغ من وراء الربيـع الماطر الممرع الريان . وبـدت القرية باسمة هاجعة خاشعة . وقد زادها الليل رهبة وخشوعاً ..

والقت محاسن برأسها الواهي على صدر زوجها ونظرت الى الفضاء الواسع الرحيب لتهمس : « حبيب !.. اتحبني يا حبيب ؟ »

وارتسمت على شفتي حبيب ابتسامة هادئة بيضاء. وراحت اصابعه تداعب خصلات شعرها الحريري ، وهمس: « هل لمثلك ان يسأل مثل هذا السؤال يا محاسن؟.. أتشكين بحبي يا حبيبتي؟. ألا تؤمنين بحب حبيب وبإخلاصه وبوفائه ؟ » .

وتمتمت محاسن ، وقد بدأت الدموع تموج في عينيها : « قل لي يا حبيب كم هو مقدار حبك إياي ؟. كم ؟ اجبني يا حبيبي »

فاتسعت الابتسامة على شفتي حبيب. وهمس : « حبي اياك عميق واسع شاسع رحيب ، لا حدود له ولا سدود يا حبيبتي . كل ما في العالم من حب وعطف وهيام لا يوازي حبي وعطفي وهيامي » . قالت : هل ستظل تذكر محاسن طيلة العمر ؟ »

فوجم حبيب: « لماذا تطرح عليه محاسن هذا السؤال ؟ اتكون عازمة على الابتعاد عنه ؟.. وتابعت محاسن كلامها لتقول : « انظر يا حبيب الى الفضاء الواسع الرحيب انه بعيد واسع شاسع . ليس هناك ما يضاهيه شسعاً وبعداً ورحابة واتساعاً . ان حبي اياك مثل هذا الفضاء يا حبيبي . انا سأظل اذكرك طيلة العمر .. طيلة العمر ؟ لا ، بل انني سأذكرك حتى بعد انتهاء هذا العمر الفاني على هذه الارض ، سأذكرك حتى بعد رحيلي . عن هذه الحياة الفانية . سيظل حبك في روحي الى الابد ، الى الابد يا روح محاسن » .

وتمتم حبيب بخوف ووجل وارتياع : « لماذا تتحدثين عن الذكرى وعن الرحيل ، وعن البعاد يا محاسن ؟.. هل يخيل لك اننا سنفترق يا حبيبتي ؟ » .

فهمست محـــاسن وهي لا تنفك تنظر الى الفضاء الواسع الرحيب : « حبيب !.. انظر الى الفضاء ، هل تشاهد هـــذه النجوم الزاهيـة الزاهيـة المتلألئـة في الفضاء ؟ هل تشاهدها يا حبيب ؟ هذه النجوم تعرف كل شيء عني . هي تعرف كم تحبك محاسن ، وقد سهرت معي الليالي الطوال . كل مـا في قلبي من اسرار بحت بها لهذه النجوم يا حبيب . اذا ابتعدت عنك يومـاً يا حبيبي ، اذا فقـدتني ، سل النجوم عني تخبرك كل شيء ، كل شيء » .

وضم حبيب مرزوق حبيبته الى صدره برفق وحنان وتمتم : « محاسن !. لن اكون مضطرا لأطرح على النجوم اي سؤال ، لأنك لن تبتعدي عني . لقد جاد علينا الله بكل ما نتمنى ونريد يا محاسن ، لم يبخل علينا الله عز وجل بشيء . وها هو قد جمع بيننا ، وأراح قلبينا ، وأبعـد شبح الفراق الأليم عنـا . وهو ما جمع بيننا ليفرق جسدينا ويبعدنا عن بعضنا يا محاسن . نحن سنعيش العمر كله معاً . لن نفترق . لن نفترق يا حبيبتي » .

وبدأت الدموع تتدحرج على وجنتي محاسن، وذعر حبيب وهو يشاهد دموع زوجتـه منحدرة على وجنتيها ، على انعكاس ضوء القمر الذي كان قـــد بـــدأ يبزغ من وراء الجبال الشماء . وهمس : « محاسن !.. لماذا تبكين يا حبيبتي ؟.. هل هنـــاك ما يعذبك ويشقيك قرب حبيب ؟ » .

وطوقته بذراعيها وهمست : « لا يا حبيبي ، لا.انا سعيـدة قربك . انا لا استحق هذه السعادة التي وهبني إياها الله العظيم .

انني أبكي لسعادتي الفائقة . والسعادة اذا اتسعت حدودها تدفع الدمع الى العيون،تماماً مثل الحزن والشقاء يا حبيب. انا سعيدة. انا سعيدة . أنا سعيدة . يا روح محاسن ، وإنني لأضرع الى الله كي يديم لي هذه السعادة ويبقيها » .

وتعانقا على شوق وهوى هيـــام .. وإذا بأم حبيب تقبل داعية حبيب ومحاسن لتناول طعام العشاء..ومسحت محاسن دموعها بكفيها ونهضت ، تستند الى ذراع زوجها . ودخلا الى الدار ليتناولا مع أم حبيب طعام العشاء .. وبعـد العشاء عادا الى السطيحة ليقضيا السهرة مع أم حبيب ..

وفي الساعة العاشرة دخلا الى غرفتها ليرقـدا . ولم يغمض لمحاسن جفن طيلة ذلك الليل .. كانت محـــاسن مستلقية في سريرها تفكر .. انها لتفكر بوسيلة تتخلص بهـــا من مضايقة ابي العز .. وطال تفكيرها .. وبـدأ النعاس يداعب اجفانهـا ويثقلها مع مطلع الفجر البعيـد .. واستسلمت للرقـاد .. ولم تستفق محاسن إلا على صوت أم حبيب يناديهـــا : محاسن انهضي يا ابنتي .. واستفاقت محـاسن ، واستوت في سريرها لتشاهد أم حبيب حاملة لها قهوة قهوة الصباح..وهمست أم حبيب وهي تقدم « للكنة » الحبيبة القهوة : « منذ أن وطأت قدماك عتبة هذه الدار وأنت تهيئين وتقدمين لي القهوة يا ابنتي . هـذه المرة استطعت أن أرد لك الجميل وأن أحمل اليك القهوة » .

ووثبت محاسن من السرير لترتدي « الروب » ثم لتتنـاول صينية القهوة من « حماتهـــا » وتهمس : لا . لا ترهجي نفسك

يا امي . انا سأقدم لك القهوة .. ولكن . اين هو حبيب ؟ » .

قالت العجوز : « انه هناك على السطيحة يتناول قهوته » .

وحملت محاسن القهوة . وتأبطت ذراع أم حبيب وسارت وإياها الى السطيحة لتجلسا قرب حبيب .. وتناولوا القهوة ، حبيب وأمه ومحاسن .. ولم تلبث ان نهضت أم حبيب وسارت الى المطبخ لتهيء الطعام في حين ظل الزوجان في جلستها الهانئة السمحاء .. والتفتت محاسن الى زوجها لتقول ، وقد خلا بهما المكان : « حبيب !.. أنا لم أشخص الى بيروت ، منذ يوم زفافنا انني بحاجة الى ابتياع بعض الاغراض . اريد ان اشخص اليوم الى بيروت . هل ترافقني اليها يا حبيبي ؟ » .

وتمتم حبيب : « انت تعلمين يا محاسن ان الاعمال لا تسمح لي بمرافقتك يا حبيبتي . تستطيعين ان تشخصي وحدك الى بيروت فتبتاعين ما تحتاجين اليه وتعودين اليّ » . قالت : « انا شاخصة الآن الى بيروت وسأعود اليك عند الظهر يا حبيبي ، ونتناول طعام الغداء معاً » . ونهض حبيب ونهضت محاسن . ودخلا معاً الى الدار ، وتناول حبيب مفتاح السيارة ودفع بـه الى محاسن ليقول : « هـذا هو مفتاح السيارة يا حبيبتي . لا تتأخري في العودة يا محاسن ، سأكون في انتظارك يا حبيبتي ، هـل انت ما زلت تحسنين قيادة السيارة ؟ » .

وهمست وهي تتناول مفتاح السيارة من يده : « ستثبت لك محاسن انها سواقة ماهره ».. وارتدت ثيابها على عجل ، ووثبت الى حبيب تطوقه بذراعيها وتعانقه بشوق وبحرارة.. وانسلخت

عنه .. وهم حبيب بالخروج من الدار ، إلا انهـا استوقفته لتعود الى تقبيله . فكأنها تخشى ألاّ تعود اليه .. وعانقته مراراً قبـل ان تخرج من الدار وتشخص الى السيارة الصغيرة فلتستقلها وتطير بها الى بيروت .. ووقف حبيب يودع السيارة بقلق ووجوم حتى توارت عن ناظريه ..

ووصلت محاسن الى بيروت ، فبدت لها العاصمة اللبنانية ، بعد طويل الغياب ، غريبة عنها ، فكأنها غادرتهـــا منذ سنين بعيدة آفلة .. وشخصت تواً الى شارع الحمراء ، الى دارهـا .. واستقبلها حارس البناية بالترحيب الشديد.وهمس : « لقـــد أوحشتنا بعادك عنا يا ست محاسن » . وهمست محاسن : « كيف حالك يا منصور ؟ هل انت بخير ؟ » . قال الحارس : « بألف خير يا سيدتي .. ولكن بعد ان نأيت عنا وبعت هذه البناية لم نعد نرى الخير » . فوجمت محاسن ، وهمست : « من قال لـك انني بعت هذه البناية يا منصور ؟ » . قال : « ابو العز يا سيدتي قال لي انه اشترى هذه البناية منك.وهو يحضر من حين الى آخر فيتفقد البناية ويتصل بالمستأجرين » .

وتمتمت محاسن بغضب : « اسمع يا منصور ، اذا عـــاد ابو العز الى هنا مرة ثانية فاطرده . البناية ملكي انا،وليس لأحد ان يتدخل في ملكي . هل تفهم ».ووجم منصور الحارس. فهو لم يشاهد الست محاسن في مثل هذه الثورة الجامحة من الغضب .. وهمس : « الامر أمرك يا سيدتي » ..

واستقلت محاسن المصعـد الى الدار .. وقرعت الجرس ..

وكانت انعام لا تزال مستسلمة للرقاد فهبت من نومها على قرع الجرس المتواصل .. وفتحت انعام الباب لتجد محاسن امامها.. ووثبت اليها تعانقها هامسة : « محاسن !.. ما أتى بك الى بيروت في هذه الساعة المبكرة من الصباح؟ هل انت على خصام مع حبيب ؟ » . وابتسمت محاسن وهمست : « لا . انا لست على خصام مع حبيب يا انعام . لقد جئت الى بيروت لأضع حداً لتصرفات ابي العز وشروره » ..

وأمسكت انعام بيد محاسن ودخلت بها الى الدار ، وهي تتمتم : « سأهيء القهوة ونحسوها معاً يا محاسن .. منذ أمد بعيد ونحن لم نتناول قهوة الصباح معاً » . ودخلت انعام الى المطبخ لتهيء القهوة ، في حين دخلت محاسن الى غرفتها من الدار لتتفقد بعض اغراضها وحاجاتها الخاصة . ولم تلبث ان عادت انعام تحمل القهوة ..

وجلست الصديقتان تحسوان القهوة على مهل .. والتفتت انعام الى محاسن لتقول : « ماذا ستفعلين الآن يا محاسن ؟ » . ورشفت محاسن القهوة وهمست : « اسمعي يا انعام. انا سأشخص الآن الى كاتب العدل لأسجل كل ما أملك باسم زوجي . ثم انتقل الى المصارف لأحول كل ما لدي من مال باسمه ايضاً . ليس لي ان املك شيئاً بوجود زوجي . انا وكل ما املك من مال وعقار لحبيب . اما ابو العز فاذا خطر بباله ان يعود الى مضايقتي فسأرفع دعواي عليه وأزجه في اعماق السجون .

انت سترافقينني يا انعام الى كاتب العدل والى المصارف .

قد احتاج الى مساعدتك يا اختي » .. ورشفت انعام قهوتها .. وهمست : « وأنا ايضاً سأعمل بنصيحتك يا محاسن . لن اعمل بعد اليوم في ملهى ابي العز .. الاسبوع القادم سأغادر لبنان الى بغداد حيث اعمل هناك في العاصمة العراقية الحبيبة مدة ثلاثة اشهر » . وتمتمت محاسن : « اسرعي اسرعي يا انعام . يجب ان اعود الى القرية عند الظهر ، ان حبيباً ليقيم على انتظاري يا اختي » ..

وأسرعت انعام في ارتداء ثيابها.وخرجت مع محاسن الى كاتب العدل ، حيث سجلت انعام البناية باسم زوجها ، ثم انتقلتا الى المصارف ، حيث حولت كل ما تملك من مال الى اسم حبيب مرزوق . ولم يكن باستطاعة محاسن ان تنتظر انتهاء المعاملات ، فطلبت الى صديقتها انعام ان تعود الى كاتب العدل والى المصارف وتستلم الاوراق المثبتة وتحملها اليها الى القرية .. وعرجت محاسن الى سوق الطويلة فابتاعت بعض الثياب والاغراض لها وبعض الهدايا للزوج الحبيب ولأمه ، وودعت انعام قائلة : « الى اللقاء يا حبيبتي . سأكون بانتظارك في القرية غداً او بعد غد . أرجوك يا انعام ان تعودي الى كاتب العدل والى المصارف وتنهي لي هذه المعاملات وتحملي لي الاوراق الى القرية.. قد لا استطيع العودة الى بيروت يا اختي».

وعانقت انعام صديقتها محاسن وهمست: « اطمئني يا اختي. سأحمل لك الاوراق المثبتة كلها الى القرية خلال اسبوع واحد».

واستقلت محاسن السيارة الصغيرة ، وطارت بها الى القرية

الوادعة .. وكانت الساعة قد بدأت تشير الى الثانيـة من بعد الظهر عندما وصلت محاسن الى الدار حاملة الهدايا والاغراض. وكان حبيب ينتظر عودتها على نار وحمم فوثبت اليــه تعانقه وتلقي بالهدايا بين يديه : « خذ يا حبيبي ، هـل تعجبك ربطة العنق هذه ؟.. وهذه المناديل؟هل أعجبتك؟ وهذه الجوارب؟» وضمها حبيب الى قلبه هامساً : « لماذا أزعجت نفسك يا حبيبتي بابتياع كل هذه الاشياء ؟ » . وهمست : « كل ما اطمع بـه من الحياة يا حبيبي هو ان انال رضاك » .

وأقبلت ام حبيب فوثبت محاسن اليهـا تنفحها بالهدايا : « تفضلي يا امي ، هل يعجبك هذا الشال ؟.. وهـذا الثوب ؟ هل يروق لك لونه ؟.. وهذا الحذاء ؟.. » . وضمتها ام حبيب الى صدرهـــا هامسة : « شكراً يا ابنتي محاسن » . وتمتمت محاسن : « انا جائعة انني أتضور جوعاً » . وأمسك حبيب بيدها .. وسارا الى المائدة وجلسا مع ام حبيب يتناولان الطعـام .. وقضت محاسن طيلة بعد ظهر اليوم قرب حبيب والفرحة تغمر قلبها . فكأنها ، وقد سجلت املاكها وأموالهـا باسم حبيب ، ألقت بعبء ثقيل عن عاتقهـــا . الحمد لله . لقد ارتاحت محاسن زوجة حبيب مرزوق من جميع هموم الحيـاة

* * *

القرية الباسمة الخضراء تغرق في احضان السكينة والهدوء . والشمس تطل من وراء الجبال الشامخة الشماء لتلقي بثوبها الذهبي الجميل على بساتين القرية ومنازلها ودورها وحقولها وأحراجهـا

وكرومها . والعصافير تملأ الفضاء ألحاناً شجية رائعة، والجداول تسكب في اذن الطبيعة ترانيمها الحالمة، والفلاحون والمزارعون ينتشرون في اراضيهم وينصرفون الى العمل بهمة ونشاط ..
ودقت الساعة التاسعة من الصباح فحملت محاسن الطعام لزوجها – كعادتها – وخرجت من الدار متجهة نحو البستان لتتناول طعام الصباح مع الحبيب . وما كادت محاسن تخطو خطوات قليلة خارج الدار حتى توقفت على هلع وذعر . فهي قد شاهدت ابا العز يقترب منها والغضب الشديد يطل من عينيه ..

واشتد الذعر بمحاسن وقد اصبح ابو العز على مقربة منها وأخذت ترتجف كأنها ورقة في مهب الرياح الهوجاء . وأسندت ظهرها الى جذع السنديانة الضخمة العجوز. وراحت تحدق بأبي العز بخوف وجزع.وتمتم ابو العز ، وقد وقف قربها : « صباح الخير يا ست محاسن » .

ولم ترد محاسن عليه التحية.بل هي همست : « ماذا جئت تفعل هنا ؟ عد من حيث أتيت » .

وعاد ابو العز الى الاقتراب منها ليتمتم : « أهكذا تطردين ضيوفك يا مدام حبيب مرزوق ؟ »

وزأرت محاسن: « عد من حيث اتيت . اليك عني . انا لا اريد ان ارى وجهك هنا » .

وأمسك بيدها على غضب شديد ليقول: « سأعود من حيث اتيت ولكن بعد ان أصفي حسابي معك . هناك حساب طويل كبير واسع شاسع بيني وبينك بحاجة الى تصفية » .

وألقت محاسن بالطعام من يدها اليمنى ، وسحبت يدهـا اليسرى من يده لتقول : « اليك عني ايها المجرم النذل .. اليك عني . ماذا تريد مني ؟ ألا يكفيك ما جنيت من المتاجرة بي . ابتعد عني ايها النذل ، ابتعد عني » .

ولم يبتعد ابو العز عنها ، بل هو صرخ بهـا : « مجرمة ا .. لقد خربت بيتي . ضيعت عليّ ألوف الليرات يجب ان تعوضي عليّ ، كل ما تملكين من مال وعقار هو لي . هل تفهمين؟ هو لي انا .. كيف تتجرئين يا مجرمة على اصدار اوامرك السنية لحارس البناية بطردي ؟ هـذه البناية لي . لي انا .. وأموالك كلها لي . وأنت .. انت لي ايضاً » .

واذا بصوت حبيب يتعالى : « محاسن ! يا محاسن » .

كان حبيب قد استبطأ حضور زوجته اليه . وكان من عادته ان يشخص هو الى الدار في الساعة التاسعة والنصف لتنـــاول طعام الصباح ، اذا لم تحضر اليه محاسن في السـاعـة التاسعة .. وسمعت محاسن صوت حبيب فذعرت .. والتفتت الى ابي العز تقول بتوسل ورجاء : « يا ابا العز ! .. ارجوك ان تدعني وشأني. ابتعد عن طريقي . كن شهماً ولو مرة واحدة في حياتك » .

وقهقه ابو العز وهدر: « لماذا لا تكونين انت شهمة وتتنازلين لي عن كل ما تملكين ؟ » .

وإذا بوقع خطوات حبيب يتكسر في اذني محـــاسن .. حبيب مقبل نحوها.. وها هو وراء اغصان الاشجار يسير اليها .. يا ويلها يا ويلها .. سيشاهدها واقفـــة قرب ابي العز وسيثور

ويغضب ويظن بها السوء .. ماذا ستفعل ؟. مـاذا ستفعل ؟.. يجب ان تتدارك الامر بسرعة فائقة قبل وقوع الكارثـة ... وتقدمت من ابي العز تمسك بيده وتهمس: « لقد اقبل زوجي.. تعال .. تعال يا أبا العز ، تعال الى القبو تعال » .

وأبى ابو العز أن يتزحزح ، أبى ان يدخل معهـا الى القبو القريب قال : « لا . يجب ان يعرف زوجك كل شيء . انت عشيقتي . فلماذا تخفين هذه الحقيقة عن زوجك المخدوع ؟ » .

واشتد الذعر بمحاسن وأمسكت بيد ابي العز تجره الى القبو وهي تهمس : « ارجوك ارجوك يا أبا العز واستحلفك بحياتك بنور عينيك ان تدخل معي الى القبو قبل ان يراك حبيب.تعال تعال تعال » ..

وشعر ابو العز بحرارة اصابعهـا المرتعشة تلهب اصابعـه فارتعش .. ومرت في خياله ذكرى تلك الليالي الدافئة الهانئة التي قضاها قربها .. فسار معها الى القبو المظلم الصغير ...

وكان حبيب قـد اقترب من القبو في طريقه الى الدار ، وشاهد من خلال الاغصان الوارفة زوجته محاسن تمسك بيـد رجل وتدخل وإياه الى القبو فتوقف عن المسير على ذعر ووجوم. ماذا يري ؟. أيكون في يقظه ام تراه في منام ؟. محاسن تمسك بيد رجل وتدخل معه الى القبو ؟. مستحيل ، مستحيل . هو في حلم مزعج مخيف انه كابوس هـائل رهيب .. وفرك حبيب عينيه وسار نحو باب القبو .. وشاهد وهو في طريقه الى القبو ،

الطعام الذي كانت تحمله محاسن ملقى على الارض ، فتأكد من انه في يقظة تامة ...

وبخطوات متئدة اقترب حبيب من باب القبو المخلع المفتوح:. وسمع الهمسات ، همسات زوجته وهمسات الرجل تتصاعد من داخل القبو إلا انه لم يستطع ان يجلو تلك الهمسات . فهو بعيد عنها .. وأطل برأسه من باب القبو ، وشاهد من خلال ظلام القبو الواهي محاسن ملقاة فوق كومة من القش والرجل قربها ...

وثار الدم في عروقه على ثورة جامحة هوجاء .. ودخل الى القبو .. وإذا بالهمسات تتعالى في اذنيه لتصبح كلاماً واضحاً .. وسمع حبيب ، ماذا سمع ؟. لقد سمع محاسن تقول بغضب وجنون : « مجرم .. مجرم .. وضيع نذل .. ذليل .. ابتعد عني ايها النذل .. ابتعد عني .. قلامة من ظفر زوجي تساوي عندي ألفاً من امثالك ايها المجرم الشرير » .

وسمع صوت الرجل يقول : « انت لي .. اموالك لي .. كل ما تملكين لي .. جسدك البض الجميل لي » .

وشاهد حبيب يد محاسن ترتفع في الظلام الاغبر الواهي لتنهال على وجه الرجل بالصفع .. وإذا بالرجل يمسك بعنق محاسن محاولاً خنقها ..

وقفز حبيب قفزة واحدة وأصبح وراء الرجل .. وأمسك بعنقه ورفعه عن صدر محاسن ليكيل له لطمة شديدة ارجعته الى مسافة بعيدة ..

ووثبت محاسن الى زوجهـا وهي تولول : « حبيب !. أنا مخلصة وفيـة يا حبيبي .. لا تسيء الظن بي يا حبيب . ابو العز مجرم سافل شرير » ..

وضمها حبيب الى صدره وهمس : « اطمئني.. لقد سمعت كل شيء .. كل شيء يا حبيبتي » ..

وفي هذه الاثناء كان ابو العز ينهض عن الارض، وقد استعاد قواه ليشهر مسدسه ويصوبـه الى حبيب مرزوق .. وشاهدت محاسن المسدس يلمع في ظلام القبو في يد ابي العز وهو مصوب الى حبيب فذعرت .. وأدركت ان ابا العز سيطلق الرصاص على زوجها فوثبت الى حبيب تحميـــه بصدرها وهي تصرخ : « ابو العز !.. لا . لا . لا . لا تطلق الرصاص يا أبا العز » ..

وإذا بالرصاص يدوي ممزقـاً اذن السكون والهدوء . ثلاث رصاصات ، كان ابو العز يريدهـــا ان تستقر في صدر حبيب مرزوق ، فاستقرت في صدر محـاسن .. وهوت محاسن الى الارض ..

وذعر حبيب .. ووثب الى ابي العز يمسك به قبل ان يتمكن من الفرار ، ينهال عليه بالصفع واللطم والرفس.. ووقع ابو العز في الارض محطم الاسنان والاضلاع ..

وأسرع حبيب الى زوجته يرفعها بين يديه والدم يتدفق من صدرها بغزارة ، ويسرع بالخروج بها من القبو .. وإذا بأبنـاء القرية يهرعون على دوي الرصاص .. وشاهدوا حبيباً يحمل

زوجته بين يديه ويسير بهـــا .. ودخل البعض منهم الى القبو ليقبض على ابي العز ..

وهمست محاسن وهي تلفظ انفاسهـا بين يـدي زوجهـا الحبيب : « حبيب !.. انا سأموت يا حبيبي ، إلا انني سأموت مرتاحة الضمير.. لم اخنك يا حبيب. لم ألوث شرفك بالوحول.. انا مخلصة يا حبيب .. هـذه هي مشيئة الله . فلتكن مشيئته مباركة .. ان الله يدعوني الى جواره لأكون بانتظارك هناك . اذكرني يا حبيب . اذكر محـاسن ، اذكر زوجتك المخلصة الوفية ... وثق ان روحها ستظل ابداً قربك الى الابد .. الى الأبد يا حبيب .. الى الأبد .. الى الأبد » .. وتلاشت كل حركة فيها .. وألوت عنقها على زند زوجها وأسلمت الروح ..

واهتزت القرية الوادعة للجريمـة النكراء .. وأقيم للزوجة الراحلة مأتم حافل.وكانت انعام وحبيب يذرفان الدموع الغزيرة الحمراء وهما يشيعان محاسن الى المقر الأخير .. وما ان ووريت محاسن الثرى وعـاد حبيب مع المشيعين الى الدار حتى تقدمت انعام منه تقدم له الأوراق المثبتة انتقال املاك محاسن وأموالها اليه ، هامسة : « لقد سجلت كل مـا تملك باسمك يا حبيب قبل موتها بأيام قليلة فكأنها كانت تعلم انها راحلة عن هذه الفانية».

وهمس حبيب والدموع تتدحرج بغزارة على وجنتيـــه : « ماذا تفيدني الأموال ؟ ومـاذا تفيدني الاملاك وقـد فقدت محاسن ؟.. هـذه الثروة ستوزع على الفقراء .. محاسن كانت تحب الفقراء يا انعام » ..

وسيق صالح ابو العز الى ساحة القضاء فحكم عليه بالاعدام..

لقد خسر ابو العز كل شيء .. ماله ، ومحاسن ، وحياته ...

واقام حبيب مرزوق قرب ضريح زوجته الحبيبة . فهو دائماً وابداً عند القبر ، يبكي حبيبته محاسن بدموع قانية الاحمرار .. وكلما لاحت له النجوم في السماء تذكر كلام محاسن: « حبيب !.. انظر الى الفضاء .. هل تشاهد هذه النجوم الزاهية الزاهرة المتلألئة في السماء ؟.. هل تشاهدها يا حبيب ؟. النجوم تعرف كل شيء عني . هي تعرف كم تحبك محاسن ، وقد سهرت معي الليالي الطوال . كل ما في قلبي من اسرار بحت بها لهذه النجوم يا حبيب. اذا ابتعدت عنك يوماً يا حبيبي ، اذا فقدتني ، سل النجوم عني تخبرك كل شيء .. كل شيء » ..

وينظر حبيب مرزوق من خلال دموعه الى النجوم الزاهية في الفضاء ويهمس : « ايتها النجوم اين هي محاسن ؟ .

مؤلفات الاستاذ بيار روفايل
القصص العاطفية

الأرض العذراء
الأمل الصريع
انا خاطئة
بين نارين
حسناء بغداد
خبز ودمع
خذ قلبي ودعني
دموع الأرز ١/٢
دموع العذارى
دموع لا تجف
زنبقة في الوحول

سرّ الراهبة
صرخة الاستقلال
صقر الصحراء
ضاع عمري
طريق الدموع
ظلمتني يا قلب
غادة دمشق
في مهبّ الرياح
القلب الأخضر
لا تلمني
لن يعود

ماذا فعلت بقلبي
معقل النسور ١/٢
ملائكة في الجحيم
من اجل عينيك

نار في الجنوب
هل تذكرين
وحدي مع الليل.

تطلب من دار الجيل